العربي رمضاني

أناشيد الملح

سيرة حراگ

مكتبة نوميديا 212
Telegram@Numidia_Library

المتوسط

العربي رمضاني: كاتب جزائري من مواليد ١٩٨٦، بسيدي نعمان في المدية، خريج الصحافة سنة ٢٠٠٨، يكتب مقالات في السياسة والثقافة، وكتابه: «أناشيد الملح - سيرة حراگ» هو أول إصداراته.

المتوسط

أناشيد الملح

حقوق النسخ والتأليف © 2019 **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Anachid Al-Melh *by* "Larbi Ramdani"
Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: العربي رمضاني / عنوان الكتاب: أناشيد الملح - سيرة حراگ
الطبعة الأولى: 2019.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-17-8

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

العربي رمضاني

أناشيد الملح

سيرة حراگ

المتوسط

مُوتُوا في المجاز، ولا تمُوتُوا في الحقيقة

من قصيدة قارب إلى ليسبوس للشاعر السوري: نوري الجرّاح

مقدمة
سيرةُ جثّةٍ تطفو في البحرِ

سعيد خطيبي

في كلّ عبور، من جنوب المتوسّط إلى شماله، يؤسّس "الحراق"، كما يسمّيه الجزائريون، أو "المهُاجر غير الشّرعيّ" كما يسمّيه آخرون، حياة موازية له، يتّخذ من البحر مسكناً له، إلى أن يصل وجهته، وإن لم يصل، فهو يعلم أن جثثاً أخرى، ترتاح في الأعماق، ستُؤنسه، في نومه الأخير، لهذا فإنه - أبداً - لا يشعر بوحشة، بل يركب التّجربة، في قوارب مطّاطيّة، وهو يعلم أنه يصنع حكاية، يسردُها النّاس من بعده، وأنه حتّى وإن صار جثّة، ستكون له سيرة، ولن تغفل عليه ألسنة أهله قطّ.

العربي رمضاني سافر، في البحر، وعاد، وأتمّ الرّحلة بأن كتب هذه الشّهادة، التي تفتح أسئلة، أكثر ممّا تعرض إجابات، وتُوسِّع من الاستفهامات، التي تطفو على مُخيّلتنا، وتُنبِّهنا أن البحر قد ازداد ضراوة، في قَبْض الأرواح، وطراوة في قَذْف الحكايات. لقد سافر، في البدء، ميّتاً، فعاد حَيّاً. بحث عن الحُرّيّة، فعثر على التّسامح. لم يكن سفره ممتعاً، مثلما كان سفر عوليس، فقد نجا، أكثر من مرّة، من الشّرطة، ومن حَرَس الحدود، لكنه عاد - في النّهاية - ليُذكّرنا بقصص النّاجين، وما بقي من سِيَر الجثث، التي شاهدها، ويكتب عن مأساة العيش بين ضفَّتَيْن، وعن حُلم الوصول للضّفّة الأخرى.

بعد قراءة هذه الشّهادة، نشعر أن مصطلح "الهجرة غير الشّرعيّة" يحتاج إلى إعادة تعريف، فحين تغيب ظروف العيش الكريم في مكان ما، تصير الهجرة حقّاً مشروعاً. فالدّوافع إليها ليست، فقط، الحروب وانعدام الأمن، بل أيضاً دوافع اجتماعية، كغياب الفرص والتهميش واللّاعدالة. وتاريخ "الحرقة"، في الجزائر، ليس وليد القرن الواحد والعشرين، بل هي ظاهرة تاريخية، لم تتوقّف، بل كانت دائماً في تصاعد. منذ أن فرّ القدّيس أوغستين من البلد، في نهايات القرن الرابع، إلى روما، ثمّ ميلانو، بسبب تدنّي أجور الأساتذة، وسوء المُعاملة، التي تعرّض لها، والجزائريون يهربون من بلدهم، للأسباب نفسها تقريباً. وفَهْم ظاهرة كهذه لن يكون بإجراءات جنائية، ولا بفتاوى، بل يبدأ من فَهْم عقلية الجزائري، الذي مَلَّ من تكرار التّاريخ، ومِنْ تحوُّله إلى تابع، بدل أن يصير مواطناً، مُكتمِل الحقوق والصّفات، كما هو حال مواطني دول، يهاجر إليها.

لقد ابتكر الشباب الجزائري، في السنوات الأخيرة، أمثالاً ومقولات، تُعبِّر عن رغبته في الهجرة، والتّحرّر من "خيبات" الوطن الذي يعيش فيه، كالقول: "روما ولا انتوما" (أُفضِّل روما عنكم) أو "يأكلني الحوت، وما يأكلنيش الدود". وتراكمت الأسباب، التي تدفع بعشرات الآلاف منهم إلى عبور البحر، فقد بلغ "اليأس" ذروته، لدرجة أنّ الشّباب يُفضّلون الموت على البقاء، لكنْ، في سعيهم إلى الهجرة هناك أيضاً بُعْد إنساني، نزعة إلى تنظيم حيواتهم، وإيجاد خيارات أرحم، فهم لا يجرؤون على مغامرة كهذه، تحتمل الموت، سوى من أجل الوصول إلى بدائل أفضل، لتحسين أوضاع أخفقت بلادهم الأصلية في توفيرها لهم. هؤلاء الشباب، من أمثال العربي رمضاني، جعلوا من "الحرقة" بيتاً لهم، خيارهم الأسمى، ولن يعودوا في قرارهم ما لم يخرج البلد، من سياساته الأُحادية، وحُكمه الأفقي، هم يُهاجرون بحثاً عن أنفسهم، رغبة منهم في الإمساك بما لم يصلوا إليه في

وطنهم، يُهاجرون بحثاً عن حقّهم في الحُرّيّة، ونصيبهم في الحُلم، من أجل أن يُحقّقوا ميلاداً جديداً لذواتهم.

خيط الأمل الرّقيق، في حياة أنقى، هو ما يُحرّكهم إلى المجازفة، هو الذي يفتح أعينهم للنّظر صوب الشمال، وركوب البحر، فالأمل هو عماد العالم، كما يقول مَثَل إفريقي، هو السّقف الذي يحتمون تحته، ويُوفِّر لهم مسافة أمان عن الموت.

إن كلّ هجرة، مهما كانت وجهتها، ستتحوّل، مع الوقت، إلى هجرة عكسية، بالاتّجاه الذي انطلقت منه، هذا ما عبّر عنه العربي رمضاني أيضاً، في شهادته، فكلّما ابتعد عن الجزائر، نظر إليها، بشكل أفضل، وأعاد تجديد علاقته بها، لهذا فإن "الحرقة"، أو الهجرة غير الشّرعيّة، ليست سوى مرحلة أولى، كردّة فعل عن إخفاق منظومة حاكمة، قبل أن تتحوّل إلى هجرة عكسية أخرى، وهذا ما لا ينظر إليه القائمون على شؤون النّاس في الجزائر، يُطلقون فتاوى وقوانين استعجالية، للتّضييق على حُرّيّات الأفراد، بدون الانتباه إلى أن ما يحصل ليس سوى جزء ثابت من تاريخ البلد، فالجزائري مرتبط، منذ القِدَم، بعلاقة حميمة مع البحر، يذهب في الاتّجاهات كلّها، لكنْ، سرعان ما يعود من حيث أتى.

"الحراق" الجزائري لم يخترع شيئاً جديداً، لم يأتِ فعلاً مُحدَثاً، ولا بدعة، بل هو يستعيد فقط ما تعلّمه من الأجداد، فالجزائري، من القِدَم، يسكن البحر، مرّة قرصاناً، يقطع طريق العابرين، ومرّة مُهجَّراً في بواخر الاستعمار، لم يأتِ الشّابّ الجديد بفعل شنيع، بل، فقط،ساير ما وجد عليه الأجداد، سلك البحر، في هجرة اختيارية، وليست قَسْرِيّة، ولكن الشّيء الجديد، هذه المرّة، أنه يكتب قصّة ما حدث.

فشلٌ في النّوم

عندما حان الوقت، قرّرتُ مغادرة "الوطن"، أو بمعنى آخر، الهرب منه، من وطن الزُّور والخديعة والخيبة. لم يكن القرار اعتباطياً، ولم يكن متسرّعاً أو فجائياً أيضاً، بل جاء نتيجة لتراكماتٍ عديدة، وضياعٍ في اللّاجدوى والفراغ وانتظار اللاشيء. بطالةٌ مُقنَّنة، يُعزّزها فسادٌ مُستشرٍ، وغياب لأدنى معالم الحياة المحترمة، هكذا تبدو الأوطان في أعين أبنائها الذين تقابلهم بالتجاهل، مجرّد "قبور مظلمة".

لا بدّ أن أذكر في البداية، أنه قد مرّت سنوات على تخرُّجي في الجامعة، بعدها أتى دور الخدمة الوطنية، وأدّيتُها، وكلّ ما تمكّنت منه خلال ما مرّ من هذا الوقت هو التّقدّم في السّنّ لا أكثر، وكأنه الإنجاز الوحيد هنا، حيث العبث والاتّجاه نحو الخلف بكل طواعية. لا يوجد ما يُشجِّع على البقاء، نظام شاخ وهرم وأفلس، ولم يعد لديه ما يقدّمه سوى خططٍ أخرى مُفلِسة، لازال يسرق من أعمارنا، ويضيف إلى عمره، واقع سياسي رديء مُحبِط وموبوء مع تفشٍّ للفساد والمحسوبية، وكوارث متعلّقة بالمجتمع والبيئة والمحيط، لم تكن لتظهر في السابق، لولا تراخي العدالة. هذا لا يُشجّع على الاستقرار خاصّة وأن التغيير مستحيل.

كبرتُ، ووقعتُ في الفخّ، لم أجد "الوطن" الذي عرفتُهُ وتعرّفتُ إليه في المدرسة، وسمعتُ عنه في الإذاعة والتلفزيون، لم أجد الأمان والأماني، بل وجدتُ نفسي في سجن واسع اسمه "وطن"، مُسيَّج بالأكاذيب

والشّعارات الفضفاضة، وجدتُ نفسي في "رقعة جغرافية" لم أخترْها، وأعدّ وجودي فيها صدفة. هذه الجغرافيا ظلمتْني، وألقتْ بي في ربوعها الخالية من الفرح، كيف مرّت ثلاثة عقود، ولم أشعر فيها بالانتماء؟ أعيش فيها مُرغَماً، وأموت، كلّ يوم، اغترابًا وحزناً، مُتطلّعاً إلى ساعة الحُرّيّة التي سأكون فيها بعيداً عن الهموم والقسوة واللامبالاة.

القرارُ كان مطلع سنة 2017، كان شتاءً دافئاً بالأحلام، مليئاً برغبات الفرار، وبمجرّد اتّخاذه، شعرتُ - حينها - بالسعادة، بالحُرّيّة والنشوة، فرُحتُ أحمل أحلامي في ملفّ تأشيرة قدّمتُها للقنصليات المختلفة، أيّ واحدة كانت ستفي بالغرض، المهمّ المغادرة بسرعة. شعرتُ بالانتماء لمكان وزمان غريبَيْن، وتسرّبتْ إلى أعماقي الخاوية ومضةُ فرحٍ حين أنعشتْني رائحة جديدة في تلك القنصليات، رأيتُ وجوهاً لم أتعوّد عليها، وجدتُ معاملةً حسنة، عزّزتْ فكرة التّحرّر من هذا الجحيم الذي زادت ناره بعد إخفاقي في الحصول على تأشيرة، تتيحُ لي سفراً محترماً. لم يتحقّق الحُلم بالخروج من "الوطن السجن" بطريقة شَرعيّة، وكأن الهروب يتطلّب مشقّة مُضاعَفَة، تتجاوز شقاءَنا التّاريخيّ الذي دفعَنا للبحث عن الطُّرُق كلّها، من أجل الحصول على الحُرّيّة.

أخفقتُ في الحصول على تأشيرة شنغن، وأحسستُ أن القَدَرَ يُعاكسني.

اخترتُ طريقة أخرى في الهرب، والوجهة كانت تركيا، باعتبارها نقطة الانطلاق للوصول إلى أوروبا، تركيا هي الطريق المُفضّل لمَنْ تفرّقتْ بهم السُّبُل، واختاروا الفرار إلى الحُلم، وأخفقوا في الفوز بتأشيرات سفر من قنصليات أوروبية، همُّها كلّه جمع أموالٍ طائلة من زبائنها الباحثين عن ومضة حياة، وبلا شفقة، تكسر، في معظم الأوقات، آمالهم كلها عندما

تُكرّمهم بالرفض، ودون أن تُعيد لهم جزءاً من رسوم التأشيرة، بمنتهى التحايل أو كما نقول بعاميّتنا "صحانية الوجه" (قلّة أدب).

لحسن الحظّ، حصلتُ على تأشيرة سياحية لتركيا بسهولة، وجاء الوقتُ الأكثر قسوة على قلبي وعلى أهلي، فهِجرتي لم تكن خبراً سعيداً لوالدَيّ خاصّة والدتي التي كانت متردّدة في الموافقة على هروبي، وأنا أتأهّب، انفجرتْ باكية عندما ودّعتُها وركبتُ السّيّارة، وقفَتْ أمام الباب الخارجي للمنزل، بملامح منكسرة وحزينة، وبدأت تجهش بالبكاء. دموعُ عينَيْها الجميلَتَيْن تنهمران بغزارة كما الثلج الذي كان يتساقط يومها بجنون كبير، يومها تضامنتْ معها السماء، ومع حزنها، وشعرتْ معها بحرقة توديع ابنها، لم أتحمّل، ونزلتُ من السّيّارة، عانقتُها بحرارة، ومسحتُ دموعها الحارقة، وقبّلتُ جبينها، ومنعتُ نفسي من البكاء، أخفقتُ في طمأنتها أن غيّابي لن يطول. وتركتُها تبكي بشكل هستيري.

الفراق يجرحُ الأمّ، الغياب خرابٌ دائم في قُلوب الأُمّهات، لا يُرمّمه سوى البقاء إلى جوارهنّ، ودَّعتُ أُمّي المكسورة برحيلي، بقلب متألّم وروحٍ مقهورة بالغصّات، شلال من الدموع كان لغتي، وكنتُ أقمعه بصعوبة.

وأنا أبتعد بالسّيّارة، شاهدتُ مسقط رأسي في أعالي ولاية المدية وسط الجزائر على الحدود بين البليدة والبويرة، ساهم الثلج في حجب معالم المنطقة التي أقطنها، اختفت ملامح الوادي الذي كبرتُ بين جنباته، وتعلّمتُ السباحة فيه، وسرقتُ الفواكه من حقوله، لم تظهر لي قمّة تيكجدة بعد أن غطّاها الضباب والثلج، لم يعد هناك ما يستنفر الروح أو يستفزّ الذاكرة، مشاعر باردة، لا يُوقظِها شيء، بعد عشريةٍ دامية في التّسعينيّات، فقدَت المنطقة بريقها، غادرها معظم سكّانها، وذهبت مظاهر البهجة التي كانت تمُيّزها، اختفت "التويزة"، وطقوس زيارة الأولياء الصالحين، وما

يرافقها من احتفالات وألعاب، حتّى الأعراس فَقَدَت نكهتها، وقلّ النشاط الفلاّحيّ، ولم يعد الوادي يفيض بالمياه كما في السابق، وتوقّفَت العرائس عن زيارته صباحاً بعد ليلة الدخلة، الإرهاب سرق من مسقط الرأس روحَهُ، وتركه هيكلاً مخيفاً. باستثناء فراق الأهل، لم أشعر أنني فقدتُ شيئاً عزيزاً.

وصلتُ صباح الأربعاء إلى مطار الجزائر الدّوليّ "هواري بومدين" بعد أن قضيتُ ليلة في البليدة عند خالتي التي قاسمتْ والدتي أحزانها، حركة المطار صباحاً متواضعة، الجوّ ماطر وبارد، وصل رفقاء رحلتي، زملاء دراسة وأصدقاء جمعنا الحُلم في الهروب ونحن خرّيجو جامعات، لم نُوفّق في الحصول على وظيفة في جزائر العزّة والكرامة. احتسيْنا قهوة، دَخَّنَّا، تبادلْنا الحديث عن طقوس الوداع التي حدثتْ مع الأهل، كنتُ أتأمّل وجوه المسافرين، بين حزينة مُتعَبَة وأخرى مبتهجة بالمغادرة، تشعر أن الوطن ثقيل في حركاتهم. هناك أيضاً أثرياء جدد أو أبناء مسؤولين وشخصيات نافذة تتّجه للضّفّة الأخرى بحثاً عن الترفيه والبيزنس.

لم يبقَ الكثير من الوقت على إقلاع طائرة الخطوط الجوّيّة التّركيّة التي حجزْنا فيها، الأسعار باهظة الثمن في المطار ابتداء من القهوة والمياه التي لا تختلف في شيء عن تلك التي تُقدَّم غير بعيد عنه، دون أن أجد تفسيراً مُقنِعاً لهذا الغلاء. اقتنيتُ علب سجائر رخيصة الثّمن، وتركتُ ما تبقّى لديّ من مال بالدينار الجزائري مع ابن عمّي الذي رافقَني بعد أن ودّعتُهُ. تمّتْ إجراءات التفتيش بسهولة. صعدْنا إلى قاعة الانتظار الباهتة جدّاً مع عدد قليل من المسافرين. دخَّنتُ آخر سيجارة، وودّعتُ مجدّداً أهلي عبر الهاتف. أقلعتِ الطائرة التّركيّة الأنيقة والفخمة قبيل منتصف النهار، استقبلَنا مضيفها الشّابّ بابتسامة لطيفة، رحتُ أتأمّل العاصمة من خلال النافذة، تبدو شاحبة جدّاً، ومبعثرة مع أكوام فوضى.

وداعاً، أُمّي.

وداعاً، أيّها الشهداء النبلاء.

وداعاً، أيّها العَدَم المنتشر في ربوع هذه الجغرافيا المترامية البليدة.

وداعاً، أيّها اليأس.

مرحباً بالحُلم.

مرحباً بكَ، أيّها الفرح.

وداعاً، أيّتها الأرصفة والحانات الرديئة والمقاهي المكتظّة بأعقاب السجائر ومناصري كرة القَدَم المهزومين.

وداعاً، أيّها الوطن المكدّس في دهاليز النسيان،

لا أحتاجكَ، ولن أشتاقكَ.

بعد أكثر من ثلاث ساعات في الطائرة، أخفقتُ في النوم، أمضيتُ الوقت في متابعة وثائقيات عن تركيا، من خلال لوحٍ إلكتروني مُثبت على ظهر الكرسي المقابل، يعرض أيضاً خريطة، تتيح معرفة مسار الطائرة من نقطة الانطلاق حتّى الوصول، وأحياناً كنتُ أطلّ من النافذة، لأرى البحر من فوق، منظره مرعب بزُرقته الداكنة المائلة إلى السواد، لمحتُ الشقيقة تونس ترتدي البياض، وتُلوّحُ لنا، مررْنا على الجنوب الإيطالي، كثافة الضباب لا تسمح بالرؤية، بركاتكَ، يا غاليلو. لم يعد يفصلُنا الكثير عن تركيا متّجهين إلى شمالها الغربي مروراً باليونان، حيث اسطنبول التي بدأت تظهر بوضوح بعد انخفاض ارتفاع الطائرة، وانقشاع الضباب الذي رافقَنا من جنوب إيطاليا حتّى خروجنا من الأجواء اليونانية، عمارات شاهقة

ورافعات بناء، ملاعب بأرضيّات خضراء، قصور فارهة، تتوسّطها مسابح بماء أزرق شفّاف، موانئ مزدحمة، وحقول وبساتين مصطفّة، طُرُق سريعة كثيفة الحركة، مساجد بمآذن طويلة ونحيفة مع قُبَبٍ فضِّيَّة واسعة. عمران بديع، وتنوُّع مُدهِشٌ حقّاً.

حطّتِ الطائرة في مطار أتاتورك الدّوليّ حوالي الرابعة مساءً. كان الجوّ ماطراً وبارداً جدّاً، بعدها صعدْنا حافلة المطار التي تقودنا إلى نقاط استعراض الجوازات، وهناك همس شابٌّ عاصميٌّ في أُذُن مرافقي، وحدّثَهُ عن أسهل طُرُق الحرقة، تجاهله مرافقي، وأخبره بأن وجوده هنا للسياحة، لا أكثر.

مطار أتاتورك ضخم جدّاً، ومزدحم بالمسافرين من جنسيات عديدة، طَلَبَة، تجّار، زوّار ومغادرين، وكذلك مشاريع مهاجرين، مع وجود كثيف لرجال الأمن، أغلبهم بزيّ مَدَنيّ، وعمّال ينظّمون حركة المسافرين في طوابير الانتظار، التنظيم جيّد، والمكان نظيف ودافئ، والحركة تتمّ بسرعة. خرجْنا من المطار، وقمْنا بتبديل "الأورو" إلى "الليرة التّركيّة" من أجل دفع تذاكر المترو عند صرّاف آليّ مجاور لمحلّ يعرض قناني خمر فاخرة وحلويات تركية وعطوراً وهدايا. ركبْنا المترو متّجهين إلى حَيّ"أقساراي" للوصول إلى شارع "بايزيد"، مكان تجاريّ ضخم في اسطنبول، حجزْنا قبل أن نسافر في أحد فنادقه Bekdaş Hotel.

من نافذة المترو تظهر اسطنبول التي وصلتُها في أُمسيّة شتوية حالمة، اكتشفتُ فيها نكهة أخرى للمطر، واقتحم قلبي شعور لذيذ بالانعتاق وأنا أسير في أزقّتها الفاتنة. خُيّل إليّ أنني صرتُ حُرّاً، وُلدتُ من جديد، وقد غمرتْني متعة الاكتشاف. وصلْنا محطّة أقساراي، الحَيّ المشهور في اسطنبول غير بعيد عن ميدان تقسيم، حَيّ معروف بتواجد المهرّبين والمهاجرين، تلمحُ الجزائريّيْن، وتسمع لهجتهم في كل ناحية تمرّ منها.

منذ أن حطّت الطائرة بمطار أتاتورك الدّوليّ، اكتشفتُ أنّكَ صغير، يا وطني، لا تملك حتّى مطاراً محترماً، وإنما مجرّد بقعة تشبه محطّة حافلات في دولة فقيرة، خرجتْ لتوّها من حربٍ مدمِّرة. جعلتْني اسطنبول، أيضاً، بسِحْرها وتنوّع عمرانها، وبجحافل سيّاحها ومباهجها. أكتشف وَهْم وكذبة "الوطن" الذي لا يزال إعلامه الخشبي يُروِّج له بوقاحة الدّجّالين. في اسطنبول خُيّل إليّ أن حياتي التي عشتُها كانت مجرَّد كذبة كبيرة. ما أصغركَ، يا وطني، وما أكبر خيبتي فيكَ!

وصلْنا إلى الفندق، يقعُ يمين الطّريق الرئيس للشارع، فندقٌ فخم بأربع نجوم، خدماته راقية بأسعار معقولة جدّاً. قضيْنا أيّاماً في اسطنبول، تتجوّل بين أزقّتها العتيقة ومراكزها التّجاريّة الضّخمة، وشوارعها المزدحمة بالتّجّار والسّيّاح والمهاجرين والعاهرات والمهرّبين. تُغريكَ كثيراً اسطنبول، كفتاة روسية فاتنة تسحبكَ إلى غرفتها، وتُغلق الباب، ولا تتركُكَ إلّا بعد أن تُفرِغَ جيوبكَ، وتُلقي بكَ خارجاً.

بعد أيّام، نجحتُ في مقاومة إغراء اسطنبول التي زرتُ أهمّ معالمها التّاريخيّة "جامع السلطان أحمد بمعماره البديع"، وكاتدرائية "آية صوفيا". اسطنبول الجميلة، لم أستسلم لمفاتنها، هدوئها، خدماتها الجيّدة التي لم أجدها في وطني التّعيس رغم إمكانياته الرهيبة كلها التي شاخت دون أن تُستَغَلّ. اجتمعْنا بمهرّب، رتّب عملية خروجنا، ودفعْنا له ثمن بطاقات هويّة فرنسية ويونانية مزوّرة (حوالي 200 أورو)، ولم يبقَ لنا إلّا أن نغادر إلى مدينة أزمير للوصول - بعدها - إلى واحدة من الجزر اليونانية. آخر ليلة في اسطنبول المُلهِمَة، سمكٌ مَشويٌّ في مطعم مُطلّ على بحر مرمرة، وقهوة تركية بالقرب من ميدان تقسيم، مشيٌ تحت المطر، واقتناء بعض الأغراض، ثمّ إطلالةٌ أخيرة من نافذة غرفة الفندق على بحر مرمرة الهادئ.

صباحاً، نزلْنا إلى بهو الفندق، سحبْنا جوازاتنا، واحتسيْنا قهوة، كان يومَ جمعة. وجدْنا في انتظارنا شابّاً من الغابون، يُدعى عبدو، شريك المهرّب، سيُرافقُنا إلى محطّة الحافلات، ويقطع لنا تذاكر الحافلة المتّجهة إلى أزمير غرب الأناضول بتركيا التي تبعد عن اسطنبول حوالي 700 كلم. عبدو شابّ غابوني يعيش في اسطنبول منذ سنوات، قصير القامة، بشرته سمراء فاتحة، وشَعْر بجدائل، وصل إليها كلاعب كرة قَدَم، لينتهي به الحال إلى مهرّب. عبدو يغمركَ بطيبته الإفريقية الفاضحة، وبلغة فرنسية سليمة، يُحدِّثكَ عن طغيان الأنظمة الاستبدادية في إفريقيا، والمصير الأسود الذي يواجه الشباب الإفريقي في محاولاتهم للهروب من تلك القارّة المُتعَبَة، التي تعجُّ بالطّغاة واللّصوص وعملاء الاستعمار.

في المحطّة جلسْنا نحتسي شاياً ساخناً، يبدّد برد الصّباح، كنتُ أتأمّل وجوه المارّة، وألمحُ البساطة والهدوء في وجوههم. وأراقبُ عمّال المحطّة من سائقين ومساعديهم، يرتدون هنداماً أنيقاً، أبهرني ذلك الالتزام بالوقت في الإقلاع إلى وجهات أخرى، واستحضرتُ محطّات وطني الموبوءة بحافلاتها المهترئة وقذارة المكان والاحتيال وتلك الأشكال المنفّرة المتجهّمة، عصبية المزاج - دوماً وبلا سبب - وتلك السّاديّة المريعة اتّجاه المسافرين المضطرّين للانتظار لوقت طويل، يستنشقون دخان الحافلات التي لا تصلح سوى لنقل المواشي والعلف، وليس البشر.

انطلقتِ الحافلة في الوقت المحدّد. ودّعنا عبدو. جلستُ قرب النافذة. منعتُ نفسي من النوم، ورحتُ أتأمّل المكان من بنى تحتية متطوّرة، وبنايات منسجمة، ونظافة لافتة، وتضاريس متنوّعة بديعة، وطُرُق عصرية، وجسور ضخمة، تصل الشّقّ الأوروبي لاسطنبول بشقّها الآسيوي عبر مضيق البوسفور. كانت طريقاً طويلة، لكنّني لم أشعر بها وأنا أرى

عالماً جديداً، لم أتعوّد عليه في الجزائر المختَطَفَة، المتّجهة إلى الخلف بالسّرعة نفسها التي يتّجه فيها غيرها إلى آفاق أرقى وأجمل. على طول الطريق، كنّا نتأكّد من حجم التّطوّر الذي تحقّق في تركيا منذ مطلع الألفية، مؤسّسات اقتصادية، ومصانع وورشات كبيرة، وإنشاءات وحقولٌ زراعية، وإنجازاتٌ كبرى عجّلت بتغيُّر وجه تركيا التي أنهكَها العسكر لعقود طويلة، من الفساد والتّضخّم والقَمْع، توقّفْنا في أكثر من محطّة، نفسُ الهدوء والبساطة والانضباط، ومن حين لآخر، كان عامل الحافلة اللطيف يُكرِمنا بأكواب عصير وقهوة وحلوى.

توقّفت الحافلة في آخر محطّة لها قبل الوصول إلى وُجهتنا، دخلْنا، مكان فخم يتجاوز ربّما مطار الجزائر ككلّ. تناولْنا هناك وجبة العشاء، وخرجْنا لنُدخِّن مع زخّات مطر لطيفة. تلقيتُ اتّصالاً من المهرّب، كان يرغب في معرفة موقعنا، ليُخبر عنّا مهرّباً آخر، كان في انتظارنا في محطّة أزمير، التي وصلْنا إليها مع منتصف الليل بعد أكثر من عشر ساعات سفر. هواءُ أزمير يُراقِص الروح، لمحتُ برجَيْن شاهقَيْن، يُصدِران أنواراً ملوّنة ومشرقةً جدّاً. اتّصلْنا بالمهرّب الثّاني، كرديٌّ من العراق، طلب منّا أن نأخذ تاكسي، ونطلب من السائق أن يُوصِلَنا إلى مدينة "بسمانة"، السائق كهلٌ خمسينيٌّ بشوارب بيضاء، لم يتحدّث معنا مطلقاً، ربّما اعتاد على زبائن مثلنا، وصلْنا بعد أقلّ من ربع ساعة، بالقرب من محطّة الحافلات، حركةٌ قليلة، والجوّ باردٌ جدّاً، اتّصلْنا بالمهرّب، وطلب منّا الانتظار ريثما يأتي شابّ، ليُرافقنا إلى الفندق. بينما كنتُ أُدخِّن أنا واثنان من رفاقي، رأينا شابّاً عشرينياً نحيلَ الجسد يتّجه نحونا. ألقى السلام، وصافحَنا، وقال: "حضرتكم جزائريّيْن؟"، ثمّ واصل: "أنا مبعوث المهرّب". رافقَنا إلى فندق متواضع، رفضْنا الإقامة فيه، واخترْنا فندقاً آخر، كان يبدو محترماً، لكنه رفض أن يحجز لنا بحجّة عدم امتلاكنا جوازات السّفر، فأقمْنا في فندق

متواضع آخر، يملكه كهلٌ مرح، لا يهتمّ بهويات نزلاء فندقه الذي يرتاده العمّال والمهاجرون، خاصّة منهم الأفارقة والجزائريّيْن. كان الشّتاء لذيذاً في مدينة بسمانة، كنّا نتجوّل فيها بتحفّظ، خشية من الأمن المنتشر بكثافة في مدينة تعجّ بالمهرّبين وتجّار المخدّرات والمهاجرين غير الشّرعيّيْن الذي اختاروا هذه المدينة كنقطة انطلاق إلى الجزر اليونانية.

في الفندق، يوجد الكثير من الأكراد والأفارقة، سوريون وجزائريون كذلك. كان هناك عامل كردي تركي يأتي مساءً، بعد أن يدخل غرفته ويُغلق الباب، يشرع في العزف على قيثارة بشكل يلامس الروح. كانت الأيّام متشابهةً، نومٌ وخروج لتناوُل الطعام واقتناء السّجائر .. تلك الأيّام والليالي الهادئة في الفندق كان يتخلّلها أحياناً اقتحام شباب جزائريّيْن الفندق بعد منتصف الليل بفظاظة شديدة، يدخلون في مناوشات حادّة مع عجوز أعرج، يشتغل في الفندق، يحاول دفعهم خارجاً، لأنهم لا يملكون ثمن المبيت، ولا يتردّد هؤلاء في شتمه بألفاظ نابية من قاموس شتائم وطننا.

كلُّنا أفارقةٌ

بعد مرور أسبوع، طلبْنا من المهرّب أن يأتي. جاء مساءً. أخبرَنا عن رحلة نهاية الأسبوع أو بداية الأسبوع، الذي يليه، بسبب رداءة الجوّ. وذات مساء، جاء إلينا مساعده الشّابّ الكرديّ الذي استقبلَنا أوّل يوم، طلب منّا تحضير أنفسنا، والاستعداد للرحلة. بعد ساعات طلب منّا أن نخرجَ ونرافقَه في الشارع المؤدّي إلى شارع آخر على طرف المدينة. وصلْنا إلى مكان شبه مهجور. بقيْنا هناك للحظات، ثمّ طلب منّا أن نصعد إلى حافلة كانت مركونةً بالقرب من بناية مهترئة، وجدْنا داخلها عائلات عراقية، وبعدها بلحظات، بدأ وصول أفرادٍ آخرين أفارقة وسوريّيْن، جاء مهرّب آخر، وطلب منّا أن نتفادى الضّجيج. انطلقت الحافلة بعد انتظار طويل والتحاق "النفرات"(المهاجرون الآخرون). كانت سيّارة تسبقُ الحافلة، وهي عبارة عن كشّاف، يعتمد عليها سائق الحافلة في مسيره الطويل الذي امتدّ لحوالي 200 كلم، توقّفْنا خلاله لمرّتَيْن، الأولى بسبب حاجزٍ أمنيٍّ غَادرٍ بعد منتصف اللّيل، والأخرى بأمرٍ من الكشّاف الذي كان يتفقّد البحر. بعد توقّفِ الحافلة في محطّة وقود مهجورة، نزلْنا للتّبوّل والتدخين. كانت الرياح باردة جدّاً. صعدْنا مجدّداً إلى الحافلة، على أصوات بكاء الأطفال. كانت أمامي طفلةٌ سورية مع أُمّها، ترتعشُ من البرد الذي منعَني من النوم، لم أكن أشعر بحركة الحافلة التي انطلقتْ وتقدّمتْ كثيراً حتّى توقّفتْ أخيراً، وسمعتُ مرافقي يُوقِظني والسائق التّركيّ الطويل الأصلع يطلب منّا النزول بسرعة، وبلهجة مشرقية "يلّا يلّا!".

بعد النزول، داهمتْنا ريحُ قوية وباردة، ابتعدْنا عن الطريق، ووجدْنا أنفسنا في حقل زيتون، والرياح وقحة لا ترحم، وعلى الشاطئ مشاريع مهاجرين من جنسيات مختلفة، لا يملكون إلّا أحلامهم بعد أن هربوا من حروبٍ وأوطان وفساد وجحيم وخيانات، ترتعش أيديهم وهي تعبث بالهاتف خلسة عن المهرّب، وتكتب آخر رسالة إلى أهل أو أحبّة قبل لفّها في كيس بلاستيكي حتّى لا يطالها الماء. سنكون في عداد الموتى، وفريسة محتملة تُبهِج بطن بحر إيجة. ارتديْنا النّجّادات التي اشتريْناها من بسمانة، دخَّنْتُ آخر سيجارة بعيداً عن المهرّب، حتّى ظهر أمامنا قارب مطّاطيّ، وتفاجَأنا أنه صغير الحجم مقارنة بعدد الرّكّاب الذي تجاوز الثلاثين. الاحتجاج في هذه اللحظات لا ينفع، ليس باليد حيلة. صعد الأطفال الذين ارتفع بكاؤهم بفعل الصدمة ربّما أوّل الليل وتواجدهم مع غرباء، وصعدت النّساء. ثمّ بدأ المهرّب بفظاظة لا مثيل لها في تكديس النّفرات حتّى جاء دوري، دخلتُ البحر، كان بارداً جدّاً، تبلَّل جسمي، وبصعوبة حصلتُ على مكانٍ أجلس فيه. بقيْنا وحدنا رفقة البحر وهديره المُفزِع.

انطلق القارب المطّاطيّ ببطء، ونحن نشاهد أضواء المدينة. البحر ليلاً مخيف، كانت أمواجه تتحرّش بنا، والبرد يُقطِّع أوصالنا، دخّنتُ سيجارة، تقاسمتُها مع صديقَيّ. الرّكّاب الآخرون أيضاً كانوا يرتعشون من البرد، ومع كل محاولة للحديث، يطلب منهم قائد الرّحلة ومرافقه الصّمت. صبيٌّ عراقيّ - عرفتُ فيما بعد أنه من مدينة "العمارة" (جنوب العراق) - كان يردّد تعويذات شيعية "يا حسين!".. تبلّل تماماً بعد أن غمر الموجُ المركبَ أكثر من مرّة.

بعد مرور أكثر من ساعَتَيْن على الإبحار، بدأ الموج يتراكم ويشتدّ، ونفد وقود المحرّك. وما كان على القائد، بعد اتّصال مع الكشّاف، إلّا أن يخرج

إلى الشاطئ للتّزوّد بالوقود، حيث كانت تنتظره سيّارة الكشّاف التي نزل منها شابّ يحمل بندقية صيد، وآخر يرتدي شورتاً قصيراً رغم قسوة البرد، وكان يصرخ بشدّة، ويخاطب بلهجة عنيفة قائد المركب. طلب منّا أن نخرج بسرعة من البحر، ليتّجه فيما بعد إلى "البلم"، وينزع المحرّك منه، ويأخذه إلى السّيّارة، ويُقلع مُسرعاً. علمْنا فيما بعد أن الدّرك التّركيّ كان يطارده، كما عرفْنا أيضاً أننا كنّا متّجهين إلى جزيرة ليسبوس "ميتيلني" البعيدة نسبياً عن السّاحل التّركيّ، مقارنة بجزيرتَي ساموس وخيوس. وسط صخب الموج وبدء بزوغ الفجر وشدّة البرد، قمْنا بمساعدة النّساء والأطفال على الخروج من البحر، ونحن مبلّلين تماماً ونرتعش، بالكاد نقوى على المشي نتيجة الجلوس لساعات في المركب الممتلئ بالماء، بالإضافة إلى الهلع الذي يزرعه بحر إيجة، ذلك الوحش التّاريخيّ النّهم المخادع، الذي يجعل من ضحاياه ولائمَ لأعشابه.

بعد هروب الكشّاف مع قائد المركب، بقيْنا وحدنا رفقة البحر وموجه العالي المتلاطم. ربّما كان غاضباً لأنّنا أفلتْنا من بطنه الواسع .. مشيْنا بصعوبة إلى اليابسة قليلاً، بين أشجار الزّيتون، شبه عاجزين بسبب البرد وتعب الرّحلة التي لم تكتملْ مع فتح باب القلق والتفكير في القادم. في منطقة لا نعرفها، والهواتف مبلّلة تحتاج حرارة حتّى تشتغل، أوّل ما قمْنا به هو جمع بعض الحشائش وأغصان الزيتون المبتلّة، ونجحْنا في إشعال النّار، لتلفح بلهيبها برد أجسادنا المتجمّدة والثّياب الثقيلة بفعل ماء البحر، كنتُ أراقب العراقيّيْن الذين كانوا بالقرب منّا، ذهب ذلك الرعب والبكاء الذي سيطر على الأطفال والنساء طيلة الرحلة، ربّما خبرتهم مع المآسي والكوارث التي تحدث في العراق جعلتْهم ينسجمون مع هكذا أحداث عابرة. كانت وجوههم زرقاء، وملامحهم حزينة، وعيونهم مُتعَبَة ومُنكَسِرة، وشفاههم ترتعش. ثمّ قاموا بإخراج الماء والحلوى والفواكه من حقائبهم،

وقامت سيّدة بتغيير ثياب أطفالها في مشهد مؤلم جدًّاً. أشفقتُ كثيراً على الأطفال وهم بذلك الوضع المزري اللاإنساني، ولم أعرف مَنْ عليّ أن ألوم: هل ألوم أولياءهم الذين يغامرون بهم؟ أم ألعن الأوطان التي هربوا منها؟ أم السّماء التي تتجاهل معاناتهم، ولا تُعاقِب جلّاديهم والحكومات الفاسدة التي تسبّبت في هروبهم من بلدانهم المنكوبة؟ كان معنا رجلٌ ثلاثينيٌّ، أدهشَني كثيراً. لم ينفعلْ أو يرتعبْ، ظلّ متماسكاً طيلة الرّحلة حين كان يشدّ أزر زوجته وأبنائه وشقيقته ووالدته.

ونحن حول النار، جاءتْ إلينا سيّدة سورية مع ابنتها، كانت تبدو هادئة مقارنة بما عشْناه، وبادرتْ بجَمْع الحطب، والبحث عن دفء ليَدَيْها، لم تجده بعد في هذا العالم الظّالم. بدأت تلك السّيّدة تتحدّث بمرارة عن خيبة أملها، بعد محاولاتها العديدة والمخفقة في أغلبها للوصول إلى اليونان، هناك ينتظرها زوجها، ومع ذلك لا تزال مصمّمة على المحاولة رغم المخاطر والخسائر المالية كلها. المكان حيث كنّا قريب من الطريق، وغير بعيد عن البحر، تمرّ بين الفينة والأخرى سيّارات مدنية وشاحنات تحمل نسوة يتّجهنَ لجَني الزيتون، يرمقُنا أصحابها بنظرات استغراب. بقيْنا نتدفّأ، ونتناقش حول الهرب إلى الجبل القريب، ثمّ إلى بسمانة مجدّداً، لكن سيّارة الدرك التّركيّ التي أتتْ فجأة قطعت حبل التخطيط، وطلب منّا الدّركيّ ومرافقه أن نلتحق بالبقية. وقفْنا في صفوف خلف بعضنا، قام الدّركيّ بالتّأكّد من عددنا، ثمّ بدأ يسألنا عن هوياتنا، بلداننا، طبيعة وأسماء المهرّبين، لم يجبْهُ أحد، كان يتكلّم بالتّركيّة مع إنجليزية ركيكة. علَّمونا قبل الرحلة، في حالة ما إذا أمسك بنا الأمن التّركيّ، أن نقدِّم أنفسنا كسوريّيْن، لتفادي إجراءات أمنية غالباً ما تنتهي إلى السّجن لأشهر، بالنسبة إلى بقية الجنسيات الأخرى، خاصّة الأفارقة والجزائريّيْن تحديداً، مع تفادي ذِكْر هوية المهرّبين.

كان ذلك الدّركيّ، صاحب العينَيْن الزرقاوَيْن الحادَّتَيْن، يحاول بلهجته العنيفة، أن يجد رأس الخيط الذي يدلّه على المهرّب، وكان يردّد في كل مرّة كلمة "قشقجي"، أيْ مهرّب. دوَّن أسماءَنا وأسماءَ أبوَيْنا مع اسم الدولة، أذكر أن ذلك الدّركيّ المنفعل، كان مركّزاً عليّ بشكل استفزّني كثيراً، ربّما لأن ملامحي تشبه الأتراك كما أخبرني لاحقاً دركيٌّ آخر، أو لأن شكوكه كانت مُخطئة في مطلق الأحوال. حاول تعنيفي ورفع نبرة صوته معي وهو يُصرّ على البحث بيننا عن مهرّب.

فكرّتُ في لَكْمِهِ وطَرْحِهِ أرضاً، كان قصير القامة مقارنة بي، وأسلوبه معي يشجّع على تهشيم وجهه، ثمّ إنه كان مع دركي آخر فقط، بحيث يسهل علينا نحن الجزائريّيْن الثلاث أن نفتك بهما، ونهرب كما فعل ذلك قبلنا شبابٌ جزائريون، حين اعتدوا على أفراد من الدرك التّركيّ، وأخذوا سلاحهم، ليلوذوا بالفرار. غمزني مرافقي، وطلب منّي أن أتجاهل استفزازه، تفادياً لمصير نجهله. في النّهاية، قدّمتُ نفسي على أساس أنّني فادي حسن، من سورية.

بعد أن فرغ الدّركيّ من تدوين أسمائنا، وصلتْ حافلتان، ركبْنا فيهما باتّجاه مديرية الدرك في مدينة "كوساداسي" السّاحليّة، بقيْنا خارج المقرّ المتواجد قبالة البحر، كانت الشّمس تطلّ بتثاؤب، ولم يغادرْنا الارتعاش بعد، والسّجائر نفدت، كنتُ أتأمّل البحر، وعلى ضفّته باخرة عتيقة مهشّمة، تأمّلتُها مليّاً ربّما لأنّها تشبه قَدَرَنا الذي تهشّم، كانت معنا أيضاً سيّدة عراقية جميلة مُنهَكَةٌ جدّاً، يحوم حولها طفلاها وهما يُكثِران من الأسئلة، ويردّدان أسماء علي، وكرّار، والهادي، ببراءة خطفها منهما توحُّش العالم. لم تكن تشعر بالقَدَر الذي انتهت إليه، عيناها واسعتان وحزينتان، تدوران في الفراغ، سمعتُها تردّد بلهجة عراقية خافتة "يمّا تبهدلْنا !"...

بعد حوالي ساعة في حديقة مقرّ الدّرك، بدأت المناداة علينا بالاسم، الأوّل كان شابّاً عراقيّاً، استغرقوا وقتاً طويلاً في التّحقيق معه، بعد أن خرج، اجتمعْنا حوله، وأخبرَنا بأنهم طلبوا منه أن يكشف عن هوية المهرّب، وعرضوا أمامه صوّراً عديدة، ليتعرّف على المهرّب، الذي تعامل معه، حينها تأكّدتُ أن التّحقيق عَبَثيّ، لا معنى له. جِيء بشابّ سوريٍّ يُقيم هناك، ليكون مترجماً لنا، وتحدَّث معنا، وقال بأنه لن يكون هناك شيء، فقط قدّموا معلومات صحيحة. كان ذلك الشّابّ السّوريّ ابن مدينة درعا، شرارة الثّورة السّوريّة، مهذّباً جدّاً ومُشفِقاً على حالنا، من حسن حظّنا أننا لم نخضع لتفتيش، كانت بحوزتي هوية فرنسية مزوّرة، تحمل اسمي الكامل، كما أن هواتفنا لم تُسحَب منّا. اتّصلتُ بالمهرّب في اسطنبول، وأخبرتُهُ عن وضعنا، وقال بأنه سيُفرَج عنّا بعد ساعات، وكان الأمر كذلك.

جاء دوري في التّحقيق، لم يسألني المحقّق عن أيّ شيء، فقط قدَّم لي المترجم السّوريّ ورقة مكتوبة بالتّركيّة، تتعلّق بهويتي للتّوقيع عليها، ثمّ طلب منّي الانصراف، وأنا أغادر مكتب المحقّق رافقني ذلك المترجم السّوريّ، وقال لي: ″أخي من وين أنت في سورية؟″. قلتُ له: ″من درعا″. ثمّ سألني: "تعرف عائلة فلان؟"، قلتُ له: "نعم"، وردّ: ″إيش حالهم؟″. وحتّى لا يسترسل أكثر في الحديث معي، أو يتنبّه للهجتي السّوريّة بلكنتها الجزائرية، أجبتُهُ: ″هديك العيلة، الله يرحمهم. قصفهم بشّار بالبراميل″. ثمّ صمت بُرْهَة، وبدأ يردّد: "لا حول ولا قوّة إلّا بالله".

بعد أن مرّ الجميع على التّحقيق، طلبوا منّا أن نركب الحافلة، ولم نكن ندري إلى أين تتّجه بنا، طلبتُ من السّائق سيجارة، ثمّ راح يُحدِّثني بالتّركيّة التي لا أُجيد منها إلّا كلمات معدودة، عن المبلغ الذي دفعْناه للمهرّب، تجاهلتُ سؤاله، وقلتُ له حتّى أتخلّص من ثرثرته: ″Kamel Atatürk

"is a good man". بدأ يهزُّ رأسه مفتخراً، ولم تتوقّف عيناه البذيئتان عن مطاردة النسوة في الخلف، كاد أن يبتلعهنّ بنظراته الجائعة لأجساد مجّانية، رمت بها الأقدار التعيسة في بلاده.

الحرارة التي كانت قادمة من المكيّف الهوائي للحافلة عجّلتْ بنعاسي، لم نكن نعرف وجهتَنا إلى أن توقّفت الحافلة أمام مركزٍ لإيواء اللّاجئين، على مدخله لافتة ضخمة، توحي بأنّه مركزُ لجوء مؤقّت، عبارة عن سجن، لا أكثر، يرعاه الاتّحاد الأوروبي. تقدّمت منّا سيّدة أوروبية، حدّثتْنا بإنجليزية سليمة، وطلبت منّا البقاء في المركز، أو دفع تكاليف العودة إلى المنطقة التي جئْنا منها، كان معنا شابّان وشابّتان من الغابون والكونغو الدّيمقراطيّة، ونحن ثلاثة جزائريّيْن، تحدَّثْنا عن كيفية التّعامل مع هذا الوضع، وقرّرْنا، في النهاية، أن ندفع ثمن العودة إلى بسمانة مع الحافلة التي جاءت بنا بعد اتّفاق بين الدّركيّ ومسؤول مركز الإيواء.

الاتّحاد الأوروبي يدفع سنويّاً ملايين اليوروهات لتركيا، من أجل الحَدّ من الهجرة غير الشّرعيّة، والأتراك بدورهم يقومون بإنشاء مراكز لجوء، لا تُقدِّم أدنى خدمة، مجرّد محتشدات غير إنسانية، كلّ مَنْ يصلها يُسجَّلُ في قوائم، تُرسَل إلى بروكسيل التي تُكافِئ الأتراك على كلّ فرد دخل إلى تلك المراكز. وعرفْنا من مهاجرين سبقونا إلى هذا الوضع، أن الأمر كلّه تخويف لا أكثر، ومجرّد متاجرة بمآسي المهاجرين، وقد لاحظتُ أن الأتراك أوّل ما يفعلونه مع المهاجرين الذين يأتي بهم الدرك التّركيّ إلى مراكز الإيواء من الباب مباشرة، هو التفاوض مع سائقي الحافلات، من أجل إيصالهم إلى أزمير، مع تقاسم المال لاحقاً بين الدرك ومسؤول المركز وأصحاب الحافلات.

يجهل المهاجر، الذي يفكّر في العبور إلى اليونان من أزمير، الجغرافيا

التّركيّة، وطبيعة المدُن، وتكاليف السّفر، ولا يحمل في جيبه سوى العُملة الأجنبية "دولار أو يورو"، ويتخلّص من الليرة التّركيّة التي لن يحتاجها في اليونان، وهنا يسهُل النّصب عليه في تلك المراكز، حيث لا أحد يعلم تكلفة الرّحلة، ولا يوجد صرّاف يُغيِّر العملة، ليكون الدفع بالعملة الصّعبة. هي عملية نصبٍ فاضحة، يقوم بها الأتراك لابتزاز الاتّحاد الأوروبي، والاستفادة من المهاجرين، وفي الحالات كلها الاتّحاد الأوروبي مُتواطِئ، لأنّه عاجز عن خَلْق آليات جادّة، تحدّ من الهجرة، وتُجبِر الأتراك على الشّفافية في التعامل مع المهاجرين.

دفعْنا ثمن ترحيلنا إلى بسمانة مجدّداً. تمّ الزّجّ بالعراقية وتلك السّيّدة السّوريّة مع ابنتها في حافلة، ونحن الأفارقة، من جزائريّيْن وكونغوليّيْن وغابونيّيْن، في حافلة أخرى. بسرعةٍ عجيبة، ساد بيننا دفءٌ حميم، وتبادلْنا الحديث عن تجربتنا الفتية، وأحلامنا، وتقاسموا معنا الطّعام والشّراب بطيبة نادرة، لا نجدها سوى عند الأفارقة، وحين شكرتُ ذلك الشّابّ الكونغولي المهندس على كرمه، ابتسم وقال: "Nous sommes tous des africains".

انطلقتِ الحافلة أخيراً باتّجاه أزمير، بسمانة تحديداً، كان يوماً بائساً بالمقاييس كلها، أهمّ إنجاز فيه أنّنا بقيْنا على قيد الحياة، بقية الخسائر لا تهمّ مُقارنة بالنّجاة من موت محقّق .. كان الطّريق طويلاً، لم يُخفِّف منه إلّا النّوم والتّوقّف في محطّات الوقود للتّزوّد بالطّعام والسّجائر، هناك اقتربت منّا السّيّدة السّوريّة، وطلبت من مرافقي سيجارة، لتسحب نَفَساً عميقاً، وتنفث دخانه إلى أعلى، بشكل مرير، أخبرتْنا عن معاناتها الطّويلة في أزمير، بعد مغادرة زوجها إلى اليونان، ونصحتْنا بتكرار المحاولة، والاستعانة بمهرّب جزائري، يُجيد ركوب البحر وقيادة المركب.

وصلْنا مع المغيب إلى بسمانة، ثيابنا لم تجفّ، وأمتعتنا كذلك، وقد نال منّا التّعب. ودَّعْنا السّيّدة السّوريّة بعد أن أخفقت في مَنْحنا رَقْم هاتفها الذي كان مُطفأ، وودَّعْنا أيضاً مرافقينا الأفارقة، وتمنّينا لهم حظّاً موفّقاً. كنتُ أرى العائلات العراقية تتّجه هي الأخرى إلى الفندق، بعد رحلة كادت أن تتحوّل إلى مأساة، ومأتم لا يختلف عن مآتم العراق اليومية. عندما دخلْنا إلى الفندق، رحّب بنا صاحبه، ذلك الشيخ الأعرج الطّيّب، ومنحَنا غرفةً في الطّابق الأرضي. كلّ ما كنّا نحتاجه في تلك اللحظات، هو كثير من الدّفء، وشحن الهواتف، والاتّصال بالأهل والمهرّب، والتّحرّر من تعب الرحلة وأهوالها. انقضت اللّيلة على أمل أن تكون الرّحلة القادمة موفّقة.

بعد أيّام اجتمعْنا بالمهرّب، وتحدَّثْنا معه عن عَبَث الرّحلة، ورعونة القائد والكشّاف، تحجّج بأنّه لا يتعامل مع ذلك الفريق الذي خرجْنا معه، وأنّه أرسلَنا معهم، لأنّنا كنّا مستعجلين للوصول إلى اليونان.

الأيّام تمرّ بسرعة في أزمير، تلك السّيّدة الأناضولية الكئيبة، التي تستيقظ متأخّرة، ملتحفة الضّباب، والمطر الوحشي يغسل عارها الذي يتركه المهرّبون والسماسرة والعاهرات، وبحر إيجة الشّبِق يلطم خدَّها، لعلّها تُكرِمُهُ بوليمة من الأطفال والنسوة الحالمين بالوصول إلى الضّفّة الأخرى. أزمير، حسناءُ بحر إيجة، مدينة السّمك المشوي والبيرة التّركيّة المنعشة، ومحلّات الأطعمة السّوريّة وحاناتها وملاهيها التي تعجّ بنساء من شرق أوروبا، وأسواقها المزدهرة بالبضائع والسيّاح خاصّة بازار "كيميرالتي" .. أزمير، محطّةُ العبور بحراً إلى أوروبا التي يغمركَ نسيمها القادم من الغرب، هي مقصد المهاجرين من الشّرق الأوسط والأدنى وشمال إفريقيا ووسطها، وحتّى من الدومينيكان، يأتي إليها شبابٌ وفتياتٌ للعبور إلى أوروبا. أزمير، بؤرةٌ قويةٌ لتهريب البشر والمخدّرات والآثار .. هي ثالثُ مُدُن تركيا، تنبض

بالحياة والنشاط الاقتصادي الذي ازدهر كثيراً مع موجة الربيع العربي، الذي هرب من أوطانه ملايين البشر.

في أزمير، لا نشعر أنّ هناك نشاطاً مضاداً للهجرة كما تخيّلنا بادئ الأمر، أغلب الفنادق تتيحُ لزبائنها المبيت حتّى دون أن يقدّموا جوازات سفر، ترى في شوارعها ناساً من مختلف الجنسيات، هناك عربٌ وأكراد وزنوج وآسيويون يتجوّلون بِحُرّيّة تامّة، أخبرني مهرّب كردي أنها في الصيف تمتلئ عن آخرها بالمهاجرين، حتّى إنّهم ينامون في الحدائق ومحطّات الحافلات، دون أن يُزعجَهم أحد، ما دام هؤلاء يُنفقون جزءاً كبيراً من أموالهم هناك قبل وصولهم إلى وجهتهم، وهي أموال ضخمة، بالنّظر إلى عدد المهاجرين، تعودُ بالنّفع على الاقتصاد التّركيّ الذي استفاد كثيراً من معاناة المهاجرين. بينما اتّخذ الاتّحاد الأوروبي مبدأ الثرثرة عن مخاطر الهجرة التي تُزعِج هدوء ورُقِيّ بلدان قادته المترفة، بالمقابل يجني أردوغان مزيداً من المكاسب، خاصّة حين جعل من ورقة الهجرة أداة لابتزاز بروكسيل. ورغم امتنان السّوريّيْن لكرم أردوغان الذي احتضنهم، ومنحهم إقامات، إلّا أنّهم لا يتجاهلون في أحاديثهم ذِكْر استغلال الأتراك لهم، بحيث يشتغلون لساعات طويلة، خاصّة في ورشات الخياطة مع أجر زهيد، وبلا تأمين، ولا عطل سنوية.

الحَيّ الذي كنّا نقيم فيه، بمحلّاته ومقاهيه الصّاخبة ومطاعمه السّوريّة والكرديّة كلّها تمنح خدمات "الحرقة"، لمَنْ يرغب فيها، من السّهل جدّاً أن يخوض معكَ صاحب محلّ مباشرة في الحديث عن رغبتكَ في الهجرة، ليُرسلكَ إلى مهرّب أو سمسار، وما عليكَ حينها إلّا أن تضع المبلغ المتّفق عليه، في مكتب لتأمين الأموال، يأخذ نسبةً منه، ويمنحكَ "شفرة"، ريثما تصلُ إلى وجهتكَ، تقدِّمها للمهرّب، ليسحب المال. ثمنُ الرّحلة يتجاوز

1500 يورو إذا كان المركب سريعاً، والمركب المطّاطيّ العادي ثمن الركوب فيه من 700 إلى 1000 يورو، وفي الصّيف يتضاعف هذا المبلغ. يدفع السّوريّون والعراقيون والأفارقة والآسيويون، يدفعون هذه الأموال كلّها رغم مخاطر الرّحلة، ورداءة الخدمات، خاصّة المراكب المتهالكة في معظمها. الأمر مختلف بالنّسبة للشّمال إفريقيّيْن خاصّة الجزائريّيْن منهم، انطلاقاً من أوطانهم يقومون بالتّفاوض مع مهرّبين، غالبيتهم من الجزائريّيْن، كما أنّه لديهم أقارب مرّوا من هناك، يخبرونهم عن سعر الرّحلات، بالإضافة إلى وجود صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي واليوتيوب، تُتيح كيفية الخروج، خطوة بخطوة، يقدّمها حراقة، يشرحون بالتّفصيل، كيفية العبور إلى الضّفّة الأخرى.

الجزائريون في أزمير يختلفون عن بقية المهاجرين في نظرتهم للحرقة، وفي تعاملهم مع الآخر واندفاعهم الشديد، ورعونتهم تصلّ حدّ سرقة المحلّات، واكتشاف مباهج المدينة .. لم نصادف إلّا القليل منهم في بسمانة، وكان حديثنا معهم مقتضباً جدّاً، وجوههم اليافعة تحمل مزيجاً من الطِّيبة والعدوانية، وذلك التّجهّم الجزائري والعناد والحزم واللامبالاة والضياع والاندفاع الشديد والتّحدّث بأصوات عالية، كأنّهم لا يزالون في حَيّ من الأحياء الشّعبيّة بالوطن. كانوا في معظمهم ينامون في غرف ضيّقة، بأعداد تتجاوز الأربعين، استعداداً للرّحلة مع ما يحدث فيها من شجار وسرقة مع المهرّبين، هم شبابٌ من طبقات وسطى، تمّ سحقها وتفقيرها، بسبب سياسات اقتصادية مخفقة، وطبقة سياسية فاسدة، قنّنت الفساد واستشراء الفوارق الطّبقيّة، وترسيخ الظلم الاجتماعي، لا يملكون سوى أحلامهم التي تُلقي بهم في الضّفّة الأخرى، للتّحرّر من وطن، أصبح طارداً لأبنائه، ولم يمنحهم إلّا الإخفاق والأكاذيب والخيبات المتتالية، التي تُعوَّض بالاستثمار في كرة القَدَم والعبث بالهويات، واستحضار الخطاب الدّيْنيّ،

وتلك البروباغاندا البائسة التي تُخوِّفهم من عشرية الإرهاب، وخوفاً من منزلق آخر كالذي عايشوه قبل عقدَيْن فضّلوا الهروب من الوطن على الدخول في مواجهة مع السّلطة، بحثاً لهم عن أُفق حياة أفضل وسلام. هؤلاء الشّباب ستجد من بينهم خرّيجو سجون وتجّار مخدّرات ولصوص وبطّالون وأبناء عائلات ميسورة وحملةُ شهاداتٍ جامعية، تقطّعت بهم السُّبُل، ولم يُوفّقوا في الحصول على حياةٍ كريمة في وطنهم .. تتراوح أعمارهم ما بين 17 و50 سنة، يختلفون عن المشارقة، في كونهم يهاجرون وحدهم دون عائلاتهم، نادراً ما تصادف جزائرياً مع زوجته أو أبنائه بصدد خوض تجربة البحر معهم، عكس السّوريّيْن والعراقيّيْن والأفارقة، الذين يهاجرون مجتمعين في عائلات .. الحراڨة الجزائريون لا يدفعون كثيراً من المال غالباً، ليس أكثر من 400 يورو، ثمّ إن المهرّبين خاصّة الأكراد الأتراك والشرق أوسطيّيْن يفضّلون التّعامل معهم، لأنّهم مندفعون، لا ترهبهم المخاطر، ومنهم مَنْ لديهم خبرة في التّعامل مع البحر، كما أنّهم يقومون بنَفْخ القارب المطّاطيّ وحمله إلى الشّطّ، والقائد يكون منهم بعد أن تُحدَّد له الإحداثيات.

اقترب موعد الرحلة كما أخبرَنا المهرّب، كان الطّقس رديئاً، وكان قد مرّ على وجودنا في بسمانة أكثر من أسبوعَيْن، ممّا ضاعف من قلقنا، المال ينفد، والطّقس يزداد رداءةً، والمهرّب يقدّم وعوداً غير مقنعة. في المساء، جاء المهرّب إلى الفندق، طلب منّا جمع أغراضنا، والاستعداد لخرجة، كانت مبرمجة في اليوم الموالي في منتصف النّهار، وعند الوقت المحدّد توقّفت سيّارة تاكسي أمام باب الفندق، ونحن نغادر، رافقَنا ذلك الكهل الأعرج، وتمنّى لنا حظّاً موفّقاً، ورفع يَدَيْه إلى السّماء سائلاً الله التوفيق لنا .. ركبْنا التاكسي، واتّجهْنا إلى فندق متواضع بطوابق عديدة، بقيْنا على سطحه إلى غاية المساء، وكانت تتوافد بين الفينة والأخرى عائلات

سورية، وأخرى إفريقية. سطحُ الفندق كان عبارة عن مساحةٍ شبه مكشوفة، تطلّ على المدينة، مخصّصة لغسّالات ضخمة، تتردّد عليها سيّدةٌ تدخّن بشراهة، تنشرُ الأغطية وتوضّبها، ثمّ تنقلها إلى الغرف. بقيْنا هناك لا نفعل شيئاً عدا التّدخين والعبث بالهاتف، وتأمّلِ حركة المدينة ورفرفة العلم التّركيّ المنتصب في قمّة جبل، والرياح تراقصه ..

حين حلّ الظّلام، طلبوا منّا أن نتجهّز، وصل شابّ سوريّ، عائلته تشتّتت بين سورية ولبنان وأوروبا، عاش لفترة في لبنان الذي ينعتُهُ بأقدح الأوصاف، أخبرَنا أنّه يقيم بتركيا منذ سَنَتَيْن، ويشتغل نادلاً في ملهى، ويتقن التّركيّة .. كان هناك أيضاً كهل كونغولي مع زوجته وابنتهما، مضى على وجودهم في تركيا أكثر من ستّة أشهر، قضوا أغلبها في اسطنبول، حاولت العائلة العبور عبر مطار أتاتورك الدّوليّ بجوازات وهويات فرنسية مزوّرة، ومن حسن حظّهم أنّهم مرّوا على إجراءات المطار بسهولة، ونجح الابن الذي لم يبلغ 17 سنة في التّسلّل إلى الطائرة، بينما والداه وشقيقته تمّ إنزالهم من سلّم الطائرة، وأعاد رجال الأمن التحقيق معهم، لتُسحَبَ منهم وثائق هوياتهم، ويُزجَّ بهم في السّجن، أمّا الابن، نجح في الوصول إلى سلوفينيا، وحصل على لجوء هناك، باعتباره قاصراً، له الأولوية وفقاً لقوانين اللجوء الأوروبية المتعاطفة مع القُصَّر. حوالي السابعة مساء اكتمل العدد مع مجيء شابّ أوغندي، وآخر إريتيريّ، وعائلَتَيْن سوريَّتَيْن، معهما أطفال صغار، بالإضافة لكهل خمسينيّ، جاء وحده وسيّدة رفقة ابنتها، وشابّة أخرى، سوريون أيضاً ..

صرْنا حوالي 20 "نفر". اتّصالات لا تتوقّف بين المهرّب وشركائه الأتراك حول ترتيبات الرّحلة وتأمين الطّريق والوقت المحدّد للانطلاق، تقدَّم مساعد المهرّب، وطلب من الجميع أن يُخفِّفوا من أمتعتهم حتّى لا يكون

المركب ثقيلاً، هذه المرّة قيل لنا إن المركب سريع "jet boat" نسخة قديمة.

كان ذلك الكونغولي الخمسيني الذي أطلقْنا عليه فيما بعد الحاجّ بانقو bango مع زوجته السمراء البدينة وابنتهما العشرينية البدينة هي الأخرى، يحمل أمتعة ضخمة، ثلاثةُ حقائب ظَهْرٍ من النّوع الكبير معبّأة بشكل تامّ، طلب منه أحد السماسرة التخفيف منها، ووجد صعوبة في التّفاهم معه، لكون الحاجّ بانغو لا يفهم التّركيّة، "لافريك جابها معاه"، يقول مرافقي مازحاً وهو يتقدّم من أبور أسيلاس، وهو اسمه الحقيقي، مُحاوِلاً إقناعه بأن يتخلّى عن بعض أغراضه غير المهمّة، وإلّا سيُحرَم من ركوب البحر، كما أخبره السمسار، قَبِل على مضض، وترك بعضاً من حاجياته بالفندق، ملابس وأحذية، وحفّاضات أطفال، وعطوراً وقارورات مياه، ونسخة من الكتاب المقدس. وضع يَدَيْه في جيوبه غير مستوعب فكرة التنازل القَسْرِيّة.

الحاجّ بانغو كونغولي جاء من العاصمة كينشاسا هرباً من الحروب الأهلية في الكونغو، تلك الدولة الإفريقية الغنية بالثروات، والمنكوبة بفضل حُكم فاسد، أحول من عينه اليسرى، نحيفٌ وطوله معتدل، كان يشتغل في ورشات تلحيم هناك، وزوجته تملك صالة حلاقة، وابنته متزوّجة، وترغب في الالتحاق بزوجها في فرنسا.

دقّت الساعة الثامنة مساء، وبدأنا في النزول من الفندق، بدأ يتسرّب إلينا القلق والتّوتّر، واستحضرتُ الرحلة السّابقة التي كانت مخفقة ومُتعِبة، نزلْنا فرداً وراء فرد، يتقدّم نفر أو نفران، ثمّ يعقبه نفرٌ آخر، والبقية وراءه تنتظر إلى غاية وصولنا إلى الباب الرئيس المؤدّي إلى خارج الفندق، كان هناك سمسار يقف وراء الباب، ويقوم بإرسال النفرات إلى الخارج، وهناك

يستقبلهم سائق الحافلة، ليتمّ شَحْنهم داخلها. ركبتْ بجانب السّائق سيّدة سورية مع ابنتها، وفي الخلف بقية النفرات. حافلةُ الشحن بائسة جدّاً أمرونا بإطفاء الهواتف، والتزام الصمت، جلستُ بالقرب من الباب الذي يقع يمين الحافلة، ووجدتُ صعوبة في الجلوس أو الوقوف، بقيْنا لأكثر من ساعَتَيْن، ثمّ توقّفْنا بعيداً عن الطّريق السريع تحديداً، بالقرب من غابة، فتح أحدهم، وجدناه هناك الباب الجانبي للحافلة، وطلب منّا النزول بعدوانية، تبعث على الاستفزاز، بعد أن نزلْنا سبقَنا شخص آخر، وبدأنا نمشي خلفه، الطّريق مُوحِل، والسماء تتحضّر لتُمطِر. لا أدري لمَ خاب أملي في نجاح العملية! وشعرتُ بإحباط وأنا أمشي بصعوبة في طريقٍ مُوحِل، جعل حذائي ثقيلاً جدّاً، لنصل إلى حقل زيتون غير بعيد عن النقطة التي انطلقْنا منها في المرّة السابقة، وجدْنا سيّارة نفعية من نوع Partner عالقةً في الوحل، وأمامها شخص ضخم ينتظرنا، حاولتُ الابتعاد عن الجميع، لأجد مكاناً أتبوّلُ فيه، وإذ بأحد المهرّبين الأتراك يأتي خلفي، ويسحبني بقوّة، ويطلب منّي أن أدفع معهم السّيّارة العالقة في الوحل، كنتُ أدفعُ معهم بِنِيَّة ناقصة، فقط أضع يَدَيّ على مؤخّرة السّيّارة نكاية في ذلك الوغد الذي حرمني من التّبوّل. هؤلاء المهرّبون الأوغاد والسَّفَلَة في معظمهم عدوانيون جدّاً خاصّة حين يكونون بكثرة، وتعجز عن الانفراد بأحدهم للتّبوّل في فمه، معظمهم مدمنو خمر وحبوب هلوسة، ويحملون معهم مسدّسات وأسلحة رشّاشة، قلوبهم معدنية، ومشاعرهم منحطّة، وسلوكهم وحشيٌّ وفَظٌّ، وطباعهم شرسة، يعدّون المهاجرين مجرّد أرقام لا أكثر، كل ما يهمّهم المال.

كانت السّيّارة تسير ببطء، والجميع يحاول دَفْعها إلى منطقة جافّة حتّى تنطلق وتسبقنا إلى طريق جبليّ، يتيحُ رؤية المركب، وتوجيهه، انطلقتْ أخيراً. وواصلْنا المسير بين أشجار الزيتون، والوحل يبتلع أرجلَنا، اللّيل

مُوحِشٌ، والصّمت قاتلٌ، وهدير بحر إيجة يأتي خافتاً حتّى ظهر لنا هادئاً، إنّه بحرٌ محتالٌ وماكر، يغريكَ هدوؤه على الشاطئ، لكنّه يُسلّط عليكَ أمواجه العاتية كلّما تقدّمتَ أكثر، اقتربْنا منه في انتظار مجيء المركب jet boat.

شرعت النفرات في ارتداء النّجّادات التي لم تكن معنا أنا ورفيقاي، فقد فضّلْنا توفير المال على اقتنائها، من أجل رحلة، قد تكون مخفقةً كسابقتها، ثمنها 10 يورو، ومتوفّرة في أغلب محلّات أزمير، وتباعُ بشكل عادي جدّاً، ومعظم المهاجرين يشترونها خاصّة مَنْ لا يجيدون السباحة، كما أنّنا وجدْناها بلا فائدة، فهي تعيقُ الحركة، وتُزعج أكثر ممّا تُنقذ. أشعلتُ سيجارة، وحاولت الحفاظ على توازني، ولم أتحمّس كثيراً، ورحتُ أتأمّل البحر بمنظره الفاتن، على يمينه جبلٌ، ويساره أشجارُ زيتونٍ كثيفة، وحركته هادئة تقريباً. جاء المركب يقوده شابٌّ، تبدو عليه ملامح الثمالة، يرافقه شابٌّ آخر، بدأت النساء والأطفال بالصعود، ثمّ جاء دورنا، كان مكاني في مقدّمة المركب، وخلفي الحاجّ بانغو وعائلته والعائلات السّوريّة والكهل والأوغندي ورفيقه الأريتيري، وذلك الشّابّ الذي يشتغلُ نادلاً في ملهى. انطلق المركب، وبدأ يمخر عباب البحر بسرعة كبيرة، حينها تحمّستُ لكون البحر كان هادئاً نسبياً، والمركب سريع، سألْنا مرافقَ قائد المركب إذا كان بيننا مَنْ يُتقن التّركيّة، تقدّم الشّابّ السّوريّ، وبعد حديث معه، أخبرَنا بأنه يريد منّا أن نلتزم الصمت، ونصبر، ونتوكّل على الله.

من سخرية القَدَر أن ذلك اليوم كان مزامناً لعيد ميلادي الـ31، لم أكن أدري فيما إذا كانت ستُكتَبُ لي حياةٌ جديدة، وعمرٌ آخر؟ أم أنّه سينتهي هنا؟ أخبرَنا مرافق قائد المركب عن طريق الشّابّ السّوريّ أنّنا على وشك الوصول، وحدّد وجهتَنا حين أشار بيده إلى نقطة ضوءٍ

بعيدة، بقيتُ أتابعها بتمعّن، تارة تبتعد، وتارة تختفي خاصّة مع تعاظم الموج الذي كان قاسياً وعالياً، يحاصرنا من الأمام والخلف، وعلى يميننا ويسارنا، حاول القائد ببراعة وهدوء تفاديها طيلة المسير الذي استغرق ثلاث ساعات، وكان يعتمد على الهاتف كثيراً للاتّصال بالكشّاف، ولم نكن ندري ما الذي يحدث، لكوننا نجهل التّركيّة والشّابّ الوحيد بيننا الذي يُتقنها كان بين نائم أو متوتّر غير مَعنيّ بحديث السّائق في الهاتف ومع مرافقه، الذي كان يوجّهه بعيداً عن التّيّار البَحْرِيّ، وبدوره القائد كان يعمد إلى تكسير الموج ومعاكسته، لكنْ، مع مرور الوقت، بات الوضع ميؤوساً منه، وخارجاً عن السيطرة خاصّة بعد أن تسلّلتْ إلى المركب أمواج عديدة. بدأ صراخ النسوة يتعالى مع اشتداد الموج العنيف، أمّا الأطفال، لم أسمع أصواتهم، في حين كان الحاجّ بانغو مع عائلته في حالة صمت وذهول، بقيتُ متماسكاً، لكن إصرار بحر إيجة على تسليط أمواجه النهمة علينا جعلني أرتعبُ وأفقدُ الأمل في النجاة خاصّة ارتفاع مستوى الموج، وتعطُّل المركب أحياناً، وسقوط المطر، ثمّ جاء سرب من الطيور، لم أتعرّف على نوعها، غربان أو نوارس، لكنّها كانت مخيفة جدّاً بحركة أجنحتها العريضة. تخيّلتُ نفسي مستلقياً على ظَهْري فوق سطح البحر، بطني منتفخٌ، وتلك الطيور الشّرّيرة تفقأ عينَيّ، وتنقر وجهي، والأمواج تتقاذفُني، فكّرتُ في مصيري، حاضري، والدتي، خُيِّل إليّ أن النهاية اقتربتْ، حتّى مهاراتي في السّباحة التي تعلّمتُها في الوادي في سنٍّ مبكّرة جدّاً مع الراحل عمّي العظيم يوسف لا يمكنها أن تنفعني. لم أتوقّف أيضاً عن تخيُّل بقية الرّكّاب خاصّة الأطفال والأمواج الشّرسة تعبث بهم، وتسحبهم إلى بطن بحر إيجة المجرم، وهم يصرخون ويستغيثون السّماء والأرض، ذلك الضّوء الذي أشار إليه مرافق القائد كان ثابتاً في مكانه، فقط نحن مَنْ يراقصنا الموج بساديّة مُريعة، عجز معها السائق رغم مهارته في التّحكّم بالوضع،

شعرتُ بعطش شديد، ولم أجد ماء، وجفّ حلقي، وبدأ الشّابّ السّوريّ في التّقيّؤ، وبصعوبة تمكّن بانغو من العثور في أمتعته التي غمرها الماء على قارورة مياه، بدّدتْ بعضاً من عطشي، تأكّدتُ أن الموت يفتح ذراعَيْه لنا، ويعزف لحن النهاية القريبة لهذه المحاولة المخفقة، لم يتوقّف رجل سوريّ يضع في حضنه ابنه المرعوب عن رَفْع يَدَيْه إلى السماء، فيما قائد المركب يحاول جاهداً التّحكّم في الموقف، وبقي بكاءٌ نسويٌّ خافتٌ، يأتي من الخلف، ويرتفع عند اضطراب البحر، لا أدري لمَ توقّف خوفي فجأة، ربّما ليقيني بالموت المؤكّد الذي ينتظرنا أم تفاؤلٌ مُفاجِئ نزل على روحي المتشظّية. تحدّثَ مرافق القائد مع الشّابّ السّوريّ، وأخبره بأنّه بقي لنا أقلّ من نصف ساعة للوصول، تضاعف تفاؤلي، وتجاهلتُ الخوف ووقاحة الموج وعنجهيّته المفرطة في حقّنا، كنتُ أتعقّب الضّوء البعيد ببصر محدود بعد أن تبلّلت نظّارتي، كانت أضواءُ الشاطئ تبدو بعيدة، والنقطة المضيئة الأخرى ثابتة في مكانها، وقائد المركب يطلب منّا الحفاظ على هدوئنا والصبر، لم أنتبه لاتّجاه المركب الذي كان يتّجه شمالاً وشرقاً، أحياناً لمعاكسة الموج، هذه المرّة بقي في اتّجاه الشرق، واستمرّ كذلك حتّى خرجْنا من منطقة الخطر التي أفزعتْنا لساعات، وبدأ البحر يتحرّر نسبياً من اضطرابه، كنّا نقترب من ضوء على الشاطئ، حاولتُ التّركيز على شيء مختلف عن أزمير، يوحي بأننا في التّراب اليوناني، لم أصادف إلّا أشجاراً كثيفة، وإنارة على طرف الطّريق.

اقترب المركب من الشاطئ، واتّضح المشهد، بنايةٌ عتيقة، وأشجارُ زيتونٍ، وغير بعيد منارةٌ. تأكّدتُ فيما بعد أنها لمسجد، وليس كنيسة كما توهّمتُ، وصلْنا أخيراً. ولم تعد تفصلنا عن اليابسة إلّا أمتار، طلب منّا القائد أن ننزل بسرعة قبل مجيء البَحْرِيّة، وتمّ الأمر كما طلب، قفزتُ في البحر من شدّة الفرح، ولم أبال بالبرد أو بثيابي التي تبلّلتْ ومعها الهاتف

وبعض المال، وهرولتُ سريعاً إلى الشاطئ، لأحتفل بوصولنا، كنتُ أردّد في أعماقي "أخيراً نجحتُ، وتحقّق الحُلم .. أخيراً أوروبا"، التفتُّ ورائي، ووجدتُ أن البقية لا تزال عالقة في البحر خاصّة النساء والأطفال، عدتُ إلى المركب، وساعدتُ ابنة بانغو على النزول وهي مضطربة جدّاً، وبقية الشباب تعاونوا على الأطفال والنسوة، وبدأ المركب في الانسحاب، ومرافق القائد يُلقي بالأمتعة في البحر، بعد وصولنا جميعاً إلى الشاطئ، بدأنا في الرقص والاحتفال ومعانقة بعضنا حتّى إن زوجة بانغو، تلك السّيّدة العظيمة الطّيّبة عانقتْني بشدّة، بدأنا بأخذ صور تذكارية، ولم نتوقّف عن الفرح الذي لم يدم طويلاً.

فتحتُ الهاتف، واتّصلتُ بالمهرّب، وأخبرتُهُ بوصولنا، هنّأني، وطلب منّي مَنْحه "الشيفرة" حتّى يسحب الأموال التي كانت في مكتب تأمين باسطنبول، ووعدتُهُ بأن أفعل بعد أن نُرتّب أمورنا هنا، ومن حسنِ حظّي أنّني لم أفعلْ، اتّخذَتْ العائلات السّوريّة مكاناً بالقرب من ذلك البيت العتيق الذي كنّا نراه قبل أن نصل إلى الشاطئ، وسمعْنا منهم فيما بعد بأنّنا في تركيا، وليس اليونان، جنّ جنون الكهل السّوريّ، وبدأ في الاتّصال بولده في أوروبا، ولم يتوقّف عن التدخين، وفَقَدَ صوابَهُ حين علم أنّنا لم نغادر بعد التراب التّركيّ، ودخل في صراع مع شابّة سوريّة علمت من Google maps أنّنا في نقطة تركية، عبدو الأوغندي صدمتُهُ كانت قوية جدّاً، وظلّ يردد بعناد إفريقي حازم "This Grèce not Türkiye"، أمّا نحن الثلاثة، بقيْنا مذهولين، لقد نجونا من موتٍ محقّق، وكدنا أن نكون وليمةً مجّانية أخرى لبحر إيجة المفترس، وفي النهاية لا نزال في تركيا! أيّ حظٍّ تعيس هذا! وأيّ أقدار منحوسة تُلاحقُنا؟ وكان بانغو يردّد بحسرة: c'est pas vrai". " كان الخبر كالصاعقة، حتّى إنّني شعرتُ بثقل الثياب المبلّلة على ظهري والبرد يخترق جسدي المنهك بعد أن غادرني هذا الشعور أوّل

ما وضعتُ قَدَمَيّ على الشاطئ. غير بعيد عنّا، دنوتُ من مزبلة باحثاً عن أيّ شيء يُثبت أنّنا في تركيا، وليس اليونان مع يقين راسخ يؤكّد أن هاتف تلك الشّابّة السّوريّة المصدومة مجنون أفقده بحر إيجة وعيه هو الآخر، وجدتُ في المزبلة أكياساً وقارورات كوكا كولا وزجاجاتِ نبيذٍ، كلّها مكتوبةٌ بالتّركيّة، حينها فقدتُ الأمل تماماً، واتّجهتُ مباشرة إلى ناحية معزولة، ونزعتُ ثيابي، وعصرتُها من الماء، وحاولتُ لَمْلَمَةَ خيبتي المستجدّة.

بدأ حسن في جمع الحطب لتدفئة أبنائه وزوجته، حسن شابّ حلبيّ يقيم في اسطنبول منذ خمس سنوات، حيث يشتغل خيّاطاً. قرّر أن يغادر إلى أوروبا، لتحسين ظروف معيشته رفقة شقيقه هو الآخر مع زوجته وطفلَيْهما. خرج من المنزل العتيق رجل بثياب النوم بعد أن بدأت زوجة حسن في الطَّرْق على الباب، لتسأله عن اسم المكان، ووسط هذه الزحمة الكلامية والاضطراب انتبه أحد منّا إلى العَلَم التّركيّ الذي كان مُعلَّقاً في جدار المنزل، ليُخبرنا صاحبه الذي كان مذهولاً أنّنا في منطقة تركية، كلامه كان آخر مسمار في نَعْش أحلامنا.

لم يكن علينا إلّا الابتعاد، والبحث عن طريقٍ عامّ، لنفكّر في العودة، ظهر طرّاد بَحْرِيّ تركي، يمرّ بسرعة في البحر جيئة وذهاباً، ربّما لاحظ طاقمه وصول مركب يحمل مهاجرين. يا إلهي! الخسارات تلاحقُنا منذ حَلَلْنا بهذه البلاد المتخمة بالبرد الفظيع القادم من شرق أوروبا، أيّ مهرّبين هؤلاء؟ أيّ قلوبٍ يملكون؟ لم أتوقّف عن شتمهم بأقذع الشتائم الجزائرية الموغِلَة في الإهانة والتحقير، بعد أن اتّصلنا بالمهرّب، أخبرنا أنّ الموج كان عالياً جدّاً، ولم يشأ قائد المركب المغامرة بنا فيما اتّصل البقية بسماسرتهم، وسمعوا منهم الهُرَاء نفسه والحجج السخيفة من قبيل أن البَحْرِيّة كانت بالقرب منّا، وقائد المركب ضاعف من تعاطي المخدّرات، وفَقَدَ التركيز. "كلّكم أولاد

عاهرات، جميعكم أيّها السماسرة والمهرّبون عديمو الإنسانية، الله ينتقم منكم، يا أولاد الكلب، الله لا يوفّقكم"، هكذا كان يردّد حسن الذي كان في قمّة الإحباط والضياع مع زوجته وابنه. اتّصلْنا مجدّداً بالمهرّب في أزمير كان متثاقلاً في الرّدّ ربّما كان ثملاً أو في حضن عاهرة، طلب منّا البقاء في مكان آمن ريثما يطلع النهار، لنعود إلى بسمانة "ينعدين باباك" هذا ما بقي في جعبتي أقوله لكَ، أيّها القذر، تهْنا في طُرُقات تؤدّي إلى مزارع وبنايات معزولة، وبعد بحث طويل في خرائط غوغل، وجدْنا أنّنا نبعد عن إزمير بـ250 كم، ونحتاج أكثر من 10 كم لنصل إلى أقرب محطّة مسافرين. الليل هادئ. توقّف المطر. ولم يكن هناك إلّا نباح الكلاب التي كانت تتعقّبنا ممّا أرعب النسوة. مشينا حتّى وصلْنا إلى طريق يؤدّي إلى تلّة، لا نعرف أين تنتهي، كنّا نسير عكس الاتّجاه المؤدّي ناحية أزمير، تلك المدينة التي وددتُ لو أطير إليها حالاً، لأتحرّر من البرد والضياع والخيبة، كان مغرياً جدّاً تخيُّلُ سرير الفندق الدافئ. عدْنا من الطّريق المؤدّي إلى التّلّة، لنتوقف عند منعرج قريب من مفترق طُرُق، إحداها ينتهي عند المدينة التي تبعد عن محطّة الحافلات فيها بـ 10 كم. كانت هناك عين ماءٍ، تشبه تلك الموجودة في الأرياف عندنا مع كأس، وحولها حقول أشجار الزيتون التي كانت ربّما تشخر أو مرعوبة من الغرباء الذين حلّوا فجأة، وأزعجوا هدوء نومها. شربْنا من العين اللذيذ ماؤها حدّ الارتواء من عطش الرحلة وحرّ الانفعال من الخيبة وتلاعب المهرّبين بمصائرنا، بادر حسن مجدّداً إلى جَمْع الحطب، وساعدْناه نحن والأبناء كذلك.

عجيبٌ أمر هؤلاء الأطفال، يذهبُ منهم الرعب بسرعة، ويندمجون بسهولة مع تقلّبات الحياة بين موت يتهدَّدهم وواقعٍ بائس يتمدّد إلى حين، تجد البراءة تسري في شغبهم ولامبالاتهم. اجتمعْنا حول النار، ونسيْنا أهوال الرحلة المميتة، قدّمتْ لنا زوجة حسن بعض الحلويات، وأطلقْنا

العنان لأنفسنا في التدخين، وتبادلْنا الحديث مع ذلك الكهل السّوريّ القادم من حمص وحسن رفقة الشّابّ النادل، كانت قصصهم مأساوية أكثر من مآسينا نحن الجزائريّيْن، دماءٌ ودموعٌ وحروب وقَتْلٌ على الهوية وتشريدٌ ومنافٍ وسجون ومفقودون وعائلات ممزّقة واستبداد وبراميل متفجّرة وشبّيحة ومعارضة مُختَرَقة ودواعش متوحّشون وجوارٌ لا يرحم وسَفَالةُ المهرّبين وجشع وانتهازية الأتراك، استحضرتُ حينها عبارة خالدة لعبد الله القصيمي "يا كلّ العالَم، لمَ أتيت؟".

كان بانغو قد غيَّر ثيابه، واختار مكاناً غير بعيدٍ عن النار رفقة زوجته وابنته، وفجأة بدؤوا في الشخير، والسّوريّون يتهامسون على قدرتهم العجيبة في النوم مع هذا الوضع. بقيْنا حول النار حتّى تسرّب إلينا بعض الدفء، وتناوبْنا على جَمْع الحطب، واستمرّ الحديث حتّى نسيْنا مأساة الرحلة، ليقرّر عبدو ورفيقه المغادرة، ليُرافقهما الكهل السّوريّ بعد أن تبادل المناوشات مع شابّة سورية حول ضرورة البقاء معاً أو المغادرة معاً، كانت شابّة أخرى تدخّن وغير مبالية بما يحدث، فيما النادل أغراه دفء النار بالنوم، قرّرْنا بعدها الذهاب نحن الثلاثة الجزائريّيْن بعد مغادرة عبدو الأوغندي ومرافقه الأريتيري والكهل السّوريّ بحوالي ساعة، وذلك خشية من الدرك التّركيّ، وحتّى نصل باكراً إلى محطّة الحافلات القريبة، كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً، ودّعْنا حسن وشقيقه وتلك السّيّدة مع ابنتها والشّابّة التي كانت معهنّ. بدأت النسوة في البكاء أو ربّما تظاهرنَ بذلك، وطلبنَ منّا البقاء معهنّ حتّى يطلع النهار خشية أن يعترضهنّ لصوص أو قطّاع طُرُق يغتصبونهنّ، ويأخذوا أموالهنّ، تأثّرتُ بدموعهنّ، وأشفقتُ على حالهنّ، لكن إصرارنا على المغادرة غلب العاطفة والحسّ الإنساني الذي داهمني، أخبرتُهنّ أنّه لن يكون هناك شيء، فالمنطقة تبدو آمنة، وطمأنتهنّ بوجود حسن وشقيقه معهم. ابتعدْنا عنهم قليلاً

حتّى سمعتُ بانغو يقول "mon frère, mon frère"، لا أدري كيف علم بمغادرتنا، ربمّا غريزة الانتماء إلى قارّة واحدة شجّعتْهُ على تقاسم مصيرنا، قرّرْنا أن ننتظره، ليرافقنا مع عائلته، وبدأنا في المسير على طريق غير بعيدٍ عن البحر، كان هديرُه مرعباً، كأنه يتوعّدنا أو يسخر منّا، "بحرُ إيجة، أيّها الجبان الذي يستقوي على المستضعفين في الأرض، ويبتلع أحلامهم، ويستعجلهم بالموت الذي هربوا منه، ولا يزال يطاردهم، كَقَدَر محتوم، لا مفرّ منه".

مشيْنا كثيراً، والطّريق طويل، كما أن عبدو ومرافقيه لم يظهروا لنا، ولم نكن نعلم ما الذي حلّ بهم. بدأ ضوء النهار في البروز، وبقي بحر إيجة وفيّاً لاضطرابه وعناده، كان بانغو خلفنا مع عائلته، يسيرون ببطء، معهم حقائب ضخمة رغم ما تخلّصوا منه في الفندق قبل المغادرة، أمّا أنا، فقد تخلّصتُ من حقيبتي بعد أن تبلّلتْ كثيراً، وتضاعف وزنها، وبسبب الطّريق الطّويل والشّاقّ، كم أنني لم أجد جدوى من اصطحاب حقيبة، كانت عبئاً عليّ لا أكثر مع تفاهة ما بداخلها مقارنة بضخامة الوضع، التفتُّ ورائي لأرى بانغو بعيداً عنّا، ثمّ اختفى، بعدها بقليل، توقّفتْ أمامنا حافلة نقل فارغة، وصعدْنا بدون تردّد، لنجد بانغو يجلس أمام السائق، ويتحدّث معه بمزيج من فرنسية وتركية ركيكة. كان السّائق محترماً ولطيفاً حتّى إنه بعد أن أوصلَنا إلى المدينة، لم يتقاضَ منّا مالاً. دخلْنا المدينة وهي "كوساداسي" نفسها التي شهدت خيبتنا الأولى قبل أسبوع. اتّجهْنا إلى محطّة الحافلات، وكان عند مدخلها رجل أمن، وفضّلْنا عدم المغامرة خاصّة أنّنا بلا جوازات، كما نصحَنا بانغو. مشيْنا بحثاً عن تاكسي أو محطّة أخرى، ولم نعثر على شيء، حاولْنا العثور على صرّاف بلا فائدة، جلسْنا داخل محطّة انتظار، تُزيّن واجهتها صورة للشّاعر التّركيّ "أورهان والي" مع سيرته وبعض أشعاره بدت لي فكرة حضارية جيّدة، هممتُ للذهاب إلى

تاكسي لسؤاله عن إمكانية توصيلنا إلى أزمير، وأنا أحاول قَطْع الطريق، سمعتُ مرافقي يناديني "أرواح لقينا ركبة"، صعدْنا الحافلة التي لم أكن أعلم إلى أين تتّجه، كان المهمّ هو الابتعاد من ذلك المكان تفادياً لسيّارات الدرك التي كانت تمرُّ من حولنا، داهمَني النّعاس، بمجرّد أن جلستُ على الكرسي. بعد فترة، تجاوزت الربع ساعة أو أكثر، توقّفتْ بنا الحافلة في مكان غير بعيد عن محطّة حافلات كبيرة، طلب منّا السّائق أن نتّجه إليها للوصول إلى أزمير، لكنْ، لم يكن ممكناً قَطْع التذاكر إلّا بجواز السفر. كنّا مع اتّصال بمساعد المهرّب ويُدعى "اللّورد"، وهو الذي استقبلَنا أوّل يوم في بسمانة، شابّ كردي حاذق من مدينة عفرين، لهجتُهُ السّوريّة بلكنتها الكرديّة لها إيقاع عذب على الروح، طيّب ومرح جدّاً، طلب منّا أن نُمرِّر الهاتف إلى أحد أصحاب الحافلات، ليتحدّث معهم عن وجهتنا، وكيفية قَطْع التذاكر، بعد أن تحدّث معه، طلب منّا السائق التّركيّ أن نمنحه مالاً ثمن التذاكر التي سيقطعُها لنا. استغرق بعضاً من الوقت حتّى ظننّا أنّه لن يعود، لكنّه عاد أخيراً وهو يحمل التذاكر وما تبقّى من مال، كما أنّه أخذ حقّه دون أن نتّفق على ذلك، ومع هذا، لم ننزعج، لأنّه في النهاية يستحقّه نظير ما قام به من أجلنا. اتّجهْنا إلى المحطّة، لننتظر الحافلة المتّجهة إلى بسمانة. جاءت أخيراً، لنجد على متنها الكهل السّوريّ وعبدو والإريتري مع العلم أنهم غادروا قبلنا، سألتُ الكهل السّوريّ عن البقية الذين تركناهم هناك، وردّ عليّ بلهجته "يصطفلو"، لم تكن لديّ فكرة عمّا حلّ بحسن وشقيقه وتلك السّيّدة وابنتها والشّابّة الأخرى مع الشّابّ السّوريّ النادل الذي تركناه نائماً بجوار النار.

تناولتُ حلوى مع شاي قدّمه لنا مضيفُ الحافلة، ونظرتُ إلى ثيابي، بدت شهباء، وتغيّر لونها بسبب الملح الذي علق فيها. بعدها نمتُ، ولم أستيقظ إلّا عندما توقّفت الحافلة أمام حاجز أمني، صعد دركي إلى

الحافلة، وبدأ في سحب الهويات من الرّكّاب، وطلب منّا النزول، لأنّنا بلا هويات، باستثناء الكهل السّوريّ الذي كان يملك إقامة تركية، وكالعادة صرّحْنا بأنّنا سوريون، لا نملك هويات، ودخلْنا قبل أسبوع إلى تركيا، ونحن نبحث عن عمل، باستثناء بانغو وعائلته وعبدو ورفيقه، لم أبالِ بما سيحدث لنا، أشعلتُ سيجارة، وبقيتُ أسمع الحوار الذي دار بين سائق الحافلة والدّركيّ، فهمتُ لاحقاً أن الرّكّاب احتجّوا على إيقافهم، واتّصل السائق بالمسؤول عن شركة النقل الخاصّة "mitro" بعد أن طلب منه رجل الدرك أن يغادر، ونبقى بحوزته، ليشير السّائق إلى تذاكرنا، فهمتُ من حركة اليَدَيْن ولغة الجسد أنه رفض تسليمنا له، لأنّنا دفعْنا ثمن التذاكر، وإذا أراد أن يأخذنا عليه أن ينتظرنا في أزمير، رضخ الدّركيّ في النهاية بعد أن أجرى اتّصالاً هو الآخر، صعدْنا إلى الحافلة، وجلسْنا في أماكننا، وبعض الرّكّاب ينظرون إلينا باستغراب فيما انفرد شابٌّ تركي بمداعبة خدّ جليسته الجميلة، وتقبيلها .

على سبيل التّهكّم والسخرية، سألني الكهل السّوريّ: "عرفوا أنكم جزائريّيْن؟"، قلتُ: "لا، أخبرناهم بأنّنا سوريون"، قال "حتّى السود قالوا معكم نحن سوريّيْن كمان"، لننفجر بالضحك رغم عبثية الموقف.

وصلْنا محطّة أزمير أخيراً، ودّعْنا الكهل السّوريّ، فيما لم أعرف أين اتّجه عبدو ورفيقه، أمّا بانغو وعائلته، جاؤوا معنا إلى الفندق، رحلة أخرى مخفقة، كل ما نفعله أنّنا نذهب إلى البحر، نتذوّق طعم الموت، ونبلّل ثيابنا، ثمّ نعود بركام من الخيبة، التبريرات نفسها قدّمها لنا المهرّب الذي لم أجد كلامه مُقنِعاً، زارَنا بانغو في غرفتنا، وتحدّثْنا عن محاولته المخفقة للعبور عبر مطار أتاتورك إلى فرنسا، وأيّامه في "اليابنجي" (سجن تركي)، كان مُصرّاً على المحاولة مجدّداً، وهو يتحدث عن مخاطر العيش في

الكونغو الدّيمقراطيّة مع فساد واستبداد الطاغية الابن جوزيف كابيلا. فكّرْنا لأوّل مرّة في التّخلّص بأيّ طريقة من المهرّب، والبحث عن آخر، اتّصلْنا بالمهرّب الرئيس في اسطنبول الذي بعثَنا إلى شريكه في أزمير، وقال إن السبب هو رداءة الجوّ، وبقية الحجج المضحكة، ووعدَنا بالنجاح في المحاولة القادمة، طبعاً الخروج عبر البحر ليس سهلاً، يكفي أنه تهريب مليء بالمخاطرة والمغامرة، وبه كثيرٌ من الثغرات والتّسيّب، ثمّ إن أغلب المهرّبين كانوا قبل هذا مشاريع مهاجرين، ومع مرور الوقت، اكتشفوا أن الأمر سهل ومربح رغم مخاطره التي يمكن تجاوُزها بدفع رشاوى للأمن التّركيّ، أقلّ شيء هو أن تُبادر إلى استدراج "النفرات" التائهة في مُدُن تركيا، وإغرائهم بوعود معسولة، تفتح شهيّتهم لركوب البحر، وتحقيق حلمهم.

التهريب في تركيا سواء كان برّاً أو بحراً، منظومةٌ قائمة بذاتها، لها مافياتها المتجذّرة منذ عقود في عمق المجتمع التّركيّ، تجني أرباحاً طائلة من المهاجرين، وهناك جنسيات عديدة تمارس التهريب، وفي مقدّمتهم أكراد تركيا، أفغان، عراقيون، سوريون، جزائريون وتونسيون وأفارقة بدرجة أقلّ، وهناك فئة من المهرّبين تشمل الروس والأوكرانيّيْن والجورجيّيْن متخصّصة في التهريب من الموانئ التّركيّة التي تغادر بواخرها إلى أوروبا، وعبر خطٌّ بَحْرِيّ طويل، يمتدّ من تركيا إلى إيطاليا، بواسطة مراكب سياحية سريعة، يدفع ركّابها وأغلبيتهم من شرق آسيا مبالغ تفوق 5 آلاف أورو بعد أن يحصلوا على هويات مزوّرة، والتي لها أيضاً مافيات متخصّصة في جَمْع الهويات والجوازات المسروقة غالباً من السّيّاح الذين يزورون تركيا بكثافة، أو تلك القادمة من أوروبا، لتُباع تحت الطلب في الأسواق السوداء، وعبر وسطاء، "القشقجية" الذين نتعامل معهم في أغلب الأحيان سماسرة لا أكثر عند كبار المهرّبين أصحاب النفوذ مع الدولة العميقة في تركيا، والأقوياء

منهم المخضرمون يشترون الطّريق برّاً كان أو بحراً "تسليمة"، بحيث لا تتعرّض السّيّارات التي تقِلّ المهاجرين أو القوارب البَحْريّة إلى أدنى إزعاج حتّى وصولها إلى النقطة المنشودة، لغة السلاح سائدة بقوّة في أوساط المهرّبين، أغلبيتهم مسلّحون، وكبار مافيات التهريب لديهم حراسة خاصّة، وطبيعي أن تحدث تصفيات واغتيالات بينهم بسبب المال الذي يُدفَع أحياناً ككفالة للعدالة التّركيّة، من أجل الإفراج عن أحد أعضاء المافيا بعد أن يُضبَط متلبّساً بالتهريب.

تعود بدايات الطّريق إلى أوروبا عبر تركيا، إلى الثّمانينيّات أو ربّما قبل ذلك حسب شهادات العديد من المهاجرين القدماء الذين التقيتُهم في تركيا وأماكن أخرى، كان يستعمله أساساً مافيات تهريب الآثار والمخدّرات والأعضاء البشرية، أوّل مَنْ سلكه بكثرة هم العراقيون والإيرانيون الفارّون من الحرب العراقية - الإيرانية بعد تصاعد المَدّ الشّوفينيّ بين صدّام وملالي إيران، بالإضافة إلى الفلسطينيّيْن والأفغان والباكستانيّيْن والهنود والمصريّيْن والسوريّيْن، وحتّى الأتراك لاحقاً خاصّة بعد الانقلاب العسكري على أردوغان صيف 2016. بالنسبة إلى الجزائريّيْن غالباً مَنْ كان يسلك هذا الطّريق هم العائدون من أوروبا الذين لا يملكون وثائق هناك أو المُرحَّلون بسبب قضايا جنائية، فضلاً عن الفارّين من جحيم العشرية الحمراء، ليشهد هذا الممرّ إلى أوروبا انتعاشاً مطلع الألفية مع دخول اليونان إلى الاتّحاد الأوروبي سنة 2001، ثمّ شرارة الربيع العربي التي جعلت من خطّ تركيا - اليونان محلّ إقبال كبير من طرف شعوب الشرق الأوسط والأدنى، بالإضافة إلى شمال إفريقيا، تحديداً الجزائريّيْن الذين ركبوا الموجة، ولهم أسبابهم الخاصّة، بحكم الوضع المزري في جزائر، يقول ساستها وإعلامها الرّسميّ البائد إنها أصبحت قوّة إقليمية، مع العلم أنها منذ سنوات بلا رئيس، وتسبح في مستنقعٍ من الفساد والشّعبويّة والعَبَث بمصير شعب

وبلدٍ، أغلبيته السّاحقة شباب، وغني بالثروات الطّبيعيّة مع رقعة جغرافية شاسعة، وموقع استراتيجي مهمّ، وتنوّع ثقافي واجتماعي بديع مذهل.

تجاوزْنا أسبوعاً من شهر فيفري في أزمير. وبعد أيّام سيمضي على وجودنا في تركيا شهرٌ كامل، كلّ ما قمنا به كان محاولاتٍ مخفقة، أكسبتْنا بعض الخبرة والتّعوّد على همجية بحر إيجة مصيدة الفارّين من آلهة الموت والدمار التي تطاردهم من مناطق عديدة في العالم. بعد أن ارتحنا لأيّام في الفندق مع جولات في أزمير على شاطئها الجميل، وفي مقاهيها المزدحمة التي تشبه مقاهي الجزائر بصخبها وغيوم دخان السجائر وهي تعانق السقف والشاي الأحمر بنكهته التّركيّة في كأس مميّز، بالإضافة إلى حاناتها وملاهيها الفخمة بخدماتها الجيّدة غالية الثمن طبعاً، أزمير تمنحكَ الكثير من البرد القارس، وتبخل عليك بالشمس التي تطلّ بخجل بعد منتصف النهار في أغلب الأحيان، مدينةٌ تجدِّد نفسها كل صباح، وتستعيد حيويتها، وتنتعش مساء كشابّة روسية، أنهكها الليل وعبث الزبائن ونزقهم الذي لا يمنعها من تجديد جمالها، لتستقبل أُمسيّة أخرى وزبائن جدداً.

لم أسمح لنفسي بالتّعلّق بأزمير، كان تفكيري منصبّاً حول كيفية تجاوُز بحر إيجة اللّعين، والسخرية من أمواجه حين أصل إلى اليونان الشقيقة أو يونانيستان، كما يُسمّيها بعض المهاجرين، أغلب مَنْ مرّ عبر هذا الطّريق حاول أكثر من مرّة، ومع أكثر من مهرّب، ومنهم مَنْ عاد إلى وطنه بعد أن خاب أمله في الوصول، ونفد منه المال، وتفادياً للبقاء متسكّعاً في شوارع تركيا ومُدُنها التي لا ترحم خاصّة ليلاً مع البرد بلفحاته الرّوسيّة المميتة.

تحصّلْنا، بواسطة واحد من السّماسرة على رَقْم هاتف مهرّب آخر، يُقيم في اسطنبول، قيل لنا إنه "محترف".

اتّصلْنا به صباحاً، لكنه لم يردّ على المكالمة. المهرّبون يفضّلون - في الغالب - النّشاط ليلاً. مساءً، اتّصل بنا. وبعد حديث معه، طلب منّا أن نتوجّه إلى واحد من معاونيه، في أحد شوارع أزمير. لم نتّفق معه، بسبب اعتماده، في تهريب المُهاجرين، على "البوطي"، رغم أنّه طلب منّا مبلغاً زهيداً .. "البوطي" قاربُ موتٍ بامتياز، النّجاة منه ضربةُ حظّ أو لا تحصل سوى بتدخّل البَحْرِيّة، هذا ما اقتنعتُ به بعد محاولتنا الأولى المخفقة.

موعدٌ مؤجّل مع البحر

"ناظم حكمت، أيّها النّبيّ الأحمر
تجلّى الوحش الذي قمعكَ وصادرَ حُرّيّتَكَ
وسلّطَ عليكَ جحيمَ السّجون والمنافي،
تمدّدتْ أذرعُهُ في الأرض
حَبَسَ الفراشاتِ في دهاليزِ النّسيان
بحر إيجة النَّهِمُ لم يقرأْ قصائدَكَ
وإلا اختارَ أن يكونَ جسراً خشبياً
تَعبرُ منه ملائكةُ الأرضِ الهاربة
من الجلّادين
أعداءِ الأجملِ الذي لم يأتِ بعدُ".

جاء المُهرّب إلى الفندق مرّة أخرى، كرديٌّ عراقيٌّ يقيم في تركيا منذ سنوات، أسمر بشارب قصير، وعينَيْن سوادوَيْن حادَّتَيْن، يتحدث لهجة عراقية بخفّة عجيبة، ولا يتوقّف عن الرّدّ على اتّصالات هاتفه بلغة تركية سليمة، طلبْنا من "الخال" كما يشتهي اللورد مناداته، أن يضع حدّاً لهذه المهزلة، خاصّة بعد أن علمْنا بنجاح بعض المهاجرين في الوصول إلى الجزر اليونانية، رغم رداءة الطّقس. حاول استرضاءَنا، ومنحَنا وعوداً بالوصول إلى وجهتنا.

أزمير كانت وفيّة لطقوس الشّتاء، سخيّة في توزيع الصقيع والبرد ليلاً، مع قليل من الشّمس والدّفء نهاراً. "أزمير، أيّتها القابعةُ في قلبي كمرض عضال، يستحقّ الاستئصال، لا أريد أن أُحبّكِ أو أن أتعلّق بكِ، أنا لستُ سائحاً مفتوناً بتفاصيل المُدُن وتعقّب ملامح الناس واللهو في الحانات الصّاخبة والتقاط الصّور، أريد أن أهرب منكِ، وأتحرّرَ من بردكِ الوقح، وأصل إلى حُلمي. أنتِ طريق لا أكثر، هل فهمتِ؟".

شوارع أزمير مكتظّة صباحاً بالمارّة، وعاهرات يقفنَ على ناصية شارع عامّ، بملامح كئيبة، يتحمّلنَ بَرْدَهَا الفظيعَ في انتظار زبون، يبحث عن دفء ما. مُهاجرون يحتسون شاياً، ويتناولون شوارمة، ويتطلّعون لغدٍ، ينقلهم إلى ضفّة الحُلم المنشود.

في الليل، اتّصل المهرّب "اللورد"، وحدّثَنا عن رحلة قريبة، وبعد انتهاء المكالمة، استحضرتُ بمرارة بعضاً من مشاهد مسلسل الإخفاق، الذي لا يريد أن ينتهي مع حراق تعيس، لم نرَ منه إلّا الإحباط. كان يتسرّب من غرفة مُجاورة عزفٌ على القيثار، مع كلمات تركية حزينة، يردّدها عامل كرديّ بصوت دافئ، يشجّع على الإسراف في الشّرب، لتجاوُز واقع، يراوح مكانه، ويكبّل الحُلم.

صباحاً، جاء اللّورد إلى الفندق مع تاكسي. غادرْنا نحن الثلاثة إلى شقّة من طابقَيْن، خارج بسمانة، ستكون نقطة التقاء للمهاجرين قبل التّوجّه إلى البحر. الشّقّة المهجورة مملوكة للتّركيّ شريك المهرّب. أثاثها منثور، وأغراضها كريهة، وحمّامها معطّل، وأكوام نفايات تتكدّس فيها، خلّفها مهاجرون، مرّوا بها. سبقَنا إلى هناك بانغو وعائلته، ومعهم شابٌّ كونغولي آخر رفقة امرأة، مع رضيع لم يتجاوز عمره الأسبوع الواحد، بالإضافة إلى عبدو الأوغندي ومرافقه الإريتري، والتحق بنا، في منتصف النهار، شابّان

سوريّان مع زوجَتَيْهما. شَيَّار ويردين، شقيقان كرديان من حلب السّوريّة، يشتغلان منذ سنوات في ورشات خيّاطة باسطنبول. زوجة يردين حامل في شهرها الأخير. قرّر أن يُهاجر إلى اليونان، لتُنجب زوجته هناك حتّى يضمن لجوءاً. كان الحديث قليلاً، وأحياناً يتدخّل بانغو أو الشّابّ الكونغولي بصوته الخافت وعفويته، صاحب الزيارات العديدة لدول إفريقية، أعجبتْهُ فيها مؤخّرات نسائها، خاصّة منهنّ الإيفواريات، فيما شَيَّار ويردين مع زوجَتَيْهما اكتفيا بالتّدخين والحديث بالكرديّة.

مرّ الوقت بسرعة حتّى اتّصل بنا اللّورد، حوالي السّادسة مساءً. طلب منّا الاستعداد، قبل مجيء الحافلة. في حدود السّابعة والنصف، جاء ذلك الهيكل الذي يشبه حافلة شحن. هيأتها مخيّبة جدّاً، جعلتْني أتشائم، خرجْنا من الشّقّة، وتمّ حشرنا داخلها، لم تتوقّف عن إصدار أصواتٍ مُزعِجة، وكان السّائق يقودها بطريقة مجنونة جدّاً ومنفعلة. استمرّ السَّيْر أكثر من ساعَتَيْن. كان البرد يتسرّب من ثقوب الحافلة، التي خُيِّل إليّ أنها تزحف على بطنها. توقّف السّائق، وراح يتحدّث في الهاتف بانفعال، لم نفهم منه شيئاً، لينطلق مجدّداً، حتّى داهمَنا صوت أبواق سيّارة شرطة. لم يكن على السّائق إلّا ركن الحافلة، على جانب الطريق، والتّظاهر بإصلاح عطب في المحرّك. توقّفت سيّارة الشّرطة وراءنا بعضاً من الوقت، والتزمْنا الصّمت. لو اقترب الشّرطيّ قليلاً منها، لانتبه لوجودنا، لكنْ - لحسن الحظّ - لم يحدث شيء. انطلقت الحافلة مجدّداً، بصعوبة شديدة، وسارت بنا أقلّ من ساعة، ثمّ توقّفت تماماً، غير بعيد عن الشاطئ ربمّا بثلاثين كيلومتر. بقيْنا داخلها، وبعد لحظات، جاءت شاحنة نقل المركبات، تمّ نقل الحافلة ونحن بداخلها فوق الشّاحنة، التي أقلعت إلى غاية توقُّفها على طرف الطّريق السّريع، وتمّ إنزال هذه العجوز الهرمة، لننزل منها تباعاً. طلب منّا السّائق أن ننزل بسرعة، ونبتعد عن الطريق، حتّى لا نلفت انتباه دوريات الدّرك التّركيّ.

غادر بعد أن جاءت شاحنة أخرى، أخذتْهُ مع حافلته المنكوبة. وجدْنا أنفسنا في البرّيّة، غير بعيدين عن غابة فيما الأرض محروثة ومبتلّة. كانت الساعة العاشرة ليلاً، درجة الحرارة تحت الصفر بأكثر من عشر درجات، اتّصلْنا باللّورد، ثمّ بالمهرّب، كل ما فهمتُهُ منهما أنه علينا أن ننتظر هناك، حتّى تأتي حافلة أخرى، تُوصِلنا إلى الشّاطئ أين ينتظرنا "jet boat"، مرّت ساعة وساعتان والبرد يتضاعف، ويخترق الجِلْد والعظم معاً. بالكاد كنّا نقوى على إشعال سيجارة. اتّصلْنا مجدّداً، وسمعْنا الموّال نفسه.

كان بانغو وعائلته مع الكونغولي الآخر، يحاولون تدفئة الرّضيع، قدر الإمكان. شَيَّار ظلّ صامتاً رفقة يردين وهما يحضنان زوجَتَيْهما، مع تدخين لا يتوقّف، ومع اقتراب الحادية عشر، علمْنا أننا سنبقى هناك، الغابة كانت المنقذ الوحيد بالنسبة إلينا نحن الثلاثة في حال مجيء الدرك، تفادياً لسيناريو المحاولة الأولى المُمِلّ والمُتعِب. ارتفعت حدّة اللهجة مع المهرّب، وهدّدْناه بالسَّيْر جماعة في الطّريق السّريع، مع الإفصاح عن هويته للأمن التّركيّ، كلَّمَنا بعدها اللّورد، ووعدَنا بمجيء حافلة تعيدنا إلى بسمانة، ليخطف شَيَّار الهاتف من مرافقي، ويكلّمه بلهجة عنيفة، ختمها بعبارة: "أنا دافع مصاري مو دافع حجر"، بعدها عاود اللّورد الاتّصال، ووعدنا بأنّه قادم مع حافلة، وطلب أن نحافظ على هدوئنا.

لم يقتنع بكلامه شَيَّار الذي كانت بجواره زوجته رفقة يردين وزوجته، وشرعا في المغادرة، فيما الأفارقة أيضاً فكّروا في المغادرة خاصّة عبدو والإريتري، أمّا بانغو، فبقي ينتظر معنا. اقترنْنا، في ذلك الصّقيع الذي لم أتعوّد عليه، من الغابة، في انتظار حافلة أو البحث عن مكان دافئ في عمق الغابة. اتّصل مجدّداً وقال بأنّه سيصل إلينا بعد أقلّ من عشرة دقائق. كان شَيَّار وخلفه يردين ومعهما زوجتاهما قد ابتعدوا عنّا

قليلاً، ليجري خلفهم مرافقي، بعد أن طلب اللّورد أن نبقى جماعة خاصّة وأن الحافلة اقتربت، وتفادياً لانتباه الدرك.

أخيراً، وصلت سيّارة سياحية، طلب منّي شريك المهرّب بلهجة هادئة أن نخرج إلى الطّريق، وننتظر الحافلة، وعاد ليستكشف الطّريق، لنرى حافلة نَفْعِيّة من نوع فولكسفاغن، مركونة جنب الطريق. هرولْنا، بسرعة نحوها، وكنتُ أوّل الواصلين، وأخذتُ مكاناً خلف السائق.

كانت السّاعة تشير إلى حدود منتصف اللّيل، تحرّرتُ نسبياً من البرد بعد أن داهمَني دفء الحافلة التي كان يقودها السائق بسرعة كبيرة. الطّريق كانت تبدو بلا حواجز أمنية، ممّا شجّع السّائق على مضاعفة السّرعة، أخذني النوم قليلاً، وبعد أن أفقتُ وجدتُ أنّنا نبتعد عن أزمير. الصّمت خيّم على الحافلة، باستثناء السّائق المنشغل بالرّدّ على مكالمات لا تتوقّف، وبقية الرّكاب بين نائم ومَنْ يتطلّع إلى أين نتّجه ..

دخلْنا مدينة غامضة بلا ملامح مألوفة، ثمّ توقّفْنا عند تجمُّع سكّانيّ معزول، لم نعلم أنه يقع قبالة البحر إلّا لاحقاً، نزلْنا بهدوء تفادياً للضّجيج خلف السّائق. كان بحر إيجة مضطرباً، يُصدر عزفاً مهيباً، المكان أشبه بمنتجعٍ فاخر، توجد به شقّة من غرفتَيْن، ستكون إقامة مؤقّتة لنا ريثما نرتاح ونغادر في الغد، كما أخبرَنا المهرّب.

كانت السّاعة الثّانية صباحاً، بردٌ ونعاس وجوع وليل مُبهَم بلا سجائر، الوقت يمرّ ثقيلاً، والأطراف ترتعش، نام شَيَّار وشقيقه مع زوجَتَيْهما، في غرفة وبانغو وعائلته، ومعهم الكونغولي، برفقة المرأة ورضيعها، وبقيت الرَّدْهَة الصغيرة من نصيب عبدو ومرافقه.

بقيْنا، نحن الثلاثة الجزائريّيْن، مع اللّورد فيما تبقّى من الرَّدْهَة، جلسْنا

وتقاسم معنا سجائره، تسلّلتُ إلى المطبخ، وحاولتُ النّوم، لكنْ، بلا فائدة، بسبب البرد. أشعلتُ الموقد للتّدفئة، رغم انزعاجي من رائحة الغاز، وكنتُ أُنصِت لضحكات اللّورد مع مرافقي كنوع من التّحايل على تواطؤ اللّيل ضدّنا.

قبل الفجر، نال منّي النّعاس، نزعتُ معطفي، وغطيّتُ به قَدَمَي، وتمدّدتُ لأصحوَ على صوت البقية، كان اللّورد يستعدّ للمغادرة، وبدأ يستلم من البقية أموالاً، يقتني لهم بها بعض الأغراض، طلبْنا منه رصيد هاتف مع إنترنت، بالإضافة إلى سجائر.

خلال منتصف النّهار، وصلَنا الطّعام الذي أحضره السّائق، وبعدها بساعات جاء اللّورد ومعه ما طلبْنا منه. تقاسمْنا الطعام، وحضّرْنا شاياً وقهوة، وكان يتردّد علينا شَيَّار، يحاول مقاسمتنا لحظات سخرية من الواقع. شَيَّار مُدخِّنٌ شَرِهٌ، قوي الشّخصيّة وذكيٌّ، شديد الدعابة والمرح، كان تاجراً في سورية، يملك مصنعاً للصابون، وأحياناً يستورد سيّارات من كوريا الجنوبية والصّين، ويملكُ بيتاً فخماً في حلب، لا يزال يحتفظ بصوره في هاتفه، تحوّل إلى حطام بعد أن طاله قصف طيران النظام السّوريّ، شَيَّار يحلم بالوصول إلى سويسرا، ليلتحق بأقاربه هناك.

اقترب المساء، ولم نكن نعلم كم سنبقى أو متى نغادر. ليلاً، وصلَنا العشاء، كنّا نسترق النظر من نافذة المطبخ، الحركة القليلة والباب مقفل، كما أمر المهرّب والسّائق.

ليلةٌ أخرى بجوار بحر إيجة. لا نحن هزمناه، ولا هو ظفر بنا وارتاح من هيجانه، قيل لنا إننا سنتّجه إلى جزيرة ساموس اليونانية، والمكان الذي نتواجد به نقطة الانطلاق المُفضّلة للمهرّبين. سمرٌ طويل مع بانغو وزوجته،

أظهر لنا من هاتفه صوره مع زوجته في الكونغو والمغرب واسطنبول، يحبّها كثيراً، ومتعلّق بها كما يبدو. بعدها جلستُ في كرسي، وقاسمتُ عبدو غطاءه، وحاولتُ النوم. استفقتُ عديد المرّات، بسبب البرد، وبسبب هدير البحر، وأخيرا استيقظتُ نهائياً على أصوات مرتفعة لبانغو وزوجته وابنتهما وسط دهشة الجميع، لم أفهم شيئاً، لأنهم كانوا يتكلّمون بلغتهم الإفريقية. استمرّ الوضع كذلك، وتطوّر إلى تهديد زوجته بالانتحار أو العودة إلى الكونغو، لم أعرف السبب، ولم أسأل بانغو. تدخّلْنا أكثر من مرّة لفَضّ الاشتباك بينهما، لأن أيّ ضجيج سيفضحنا. بهجة سمر اللّيلة الماضية اختفت، وعوّضها صراخ زوجة بانغو وكلامها الكثير المبهم وبكاؤها وهي تخاطب زوجها بلهجة عنيفة، حتّى تدخّل اللّورد، واتّصل بالسمسار الذي أرسل بانغو وعائلته من اسطنبول إلى أزمير.

ليلاً، جاء السّائق الذي أوصلَنا إلى المنتجع، وبلهجة حادّة، طلب من بانغو التزام الهدوء أو العودة إلى اسطنبول. تبادلْنا سمراً قصيراً مع شَيَّار، بعد أن غادرَنا اللّورد، حتّى فُتح الباب، ودخلت سيّدة مع طفلَيْن، برفقة شابّ إفريقي نحيل، بياض أسنانه يلمع، علمتُ لاحقاً أنه سودانيّ، ويُدعى صلاح. أخبرني أنه أستاذ جامعي مُعارض للرّئيس البشير، ومن أنصار الصّادق المهدي، كان متحفّظاً جدّاً في الحديث معنا، وأحياناً يسحب من حقيبته مصحفاً، ليُرتِّل بعضاً من القرآن. بالكاد حصل على زاوية ينام فيها، أمّا السّيدة الفلسطينية مع ابنَيْها، فالتحقت بغرفة شَيَّار ويردين مع زوجَتَيْهما.

في هذا الوقت، كنتُ أنتظرُ الصباح الذي توقّعتُ أنه سيكون الأخير، فقد شعرتُ باختناق شديد، المكان ضيّق ومكتظّ، وحمّام واحد لحوالي عشرين فرداً، وبعد ليلة صراع مع النوم استيقظتُ. تناولْنا الفطور مع

أحاديث عابرة مع شَيَّار، فيما أبناء الفلسطينية كانوا يُثيرون شَغَباً كبيراً، والدهما يقيم في الدانمارك، وينتظر وصولهما مع والدتهما إلى اليونان، ليقوم بترحيلهم إلى بلاد الفايكينغ. خفّ ضجيج عائلة بانغو وصراعهم قليلاً، وذلك الرّضيع تحتضنه أُمّه، وتُرضعه من صدرها، ويساعدها في ذلك الشّابّ الكونغولي النّهم، الذي أطلق عليه شَيَّار اسم "أبو أحمر". جاء اللّورد في منتصف النهار، وبعد حديث مع أحد الأفراد، طلب أن يرافقه إلى مركز تجاري قريب، لجَلْب بعض الأغراض، وكان هذا مخالفاً لأوامر المهرّب، الذي طلب تفادي الخروج والضجيج. وفي طريق العودة، اعترض طريقه مع مرافقه أفراد بالزّيّ المَدَنيّ، طلبوا منه هويته، وسألوه عن سبب مجيئه إلى هنا. بعد أن دخل البناية كان مرعوباً، وطلب من الجميع الصّمت. تسرّب إلى أعماقي شعور يوحي بأنّنا تحت المراقبة، أو أن هناك مَنْ قام بالتّبليغ عنّا، خاصّة الجيران بعد العراك الصّاخب الذي أحدثتْهُ عائلة بانغو. طَرَقَ أحدُهم البابَ، لم نفتح، ثمّ استمرّ الطَّرْق، ليقوم عبدو بفَتْح الباب، كان هناك رجل مع سيّدة طلبا من عبدو هويته، ولم يستجبْ لهم، وقام بإغلاق الباب، بعدها بأقلّ من عشر دقائق، رأيتُ من نافذة المطبخ أفراداً يحيطون بالبناية، وجيراناً، ورجال أمن بزيٍّ مَدَنيٍّ، لقد كُشف أمرنا، بعد أن طال بقاؤنا هنا لأيّام، دون أن يقرّر المهرّب الوغد أن نُحاول مجدّداً أو نُغيِّر المكان.

قام الجيران بالاتّصال بالدرك التّركيّ، الذي وصل بعد لحظات مدجّجاً بالسلاح، دون أن يتجرّأ أحد منهم على الاقتراب أو الدخول، بقوا في الخارج، كانوا يتحدّثون مع اللّورد الذي كان متوتّراً، مُحاوِلاً إيهامهم بحجج، قد تدفع عنه أيّ تهمة.

لن يحدث شيء كالعادة، سيتمّ أخذنا إلى مديرية الدرك، وتُدوَّن

أسماؤنا، ليُفرَح عنّا لاحقاً، هكذا أقنعتُ نفسي، كانت بحوزتنا نحن الثلاثة الجزائريّيْن هويات فرنسية، كنتُ أعلم أنّها ستُسبّب لنا حرجاً، لم نجد أين نُخفيها، كانت أيضاً برفقة اللّورد بطاقة إقامة تركية، ووجودها عنده سيكون دليلاً على أنه المهرّب، أو المتعاون معه، وهذا ما جعله يبحثُ عن مكان، ليُخفيها عن أنظار الدرك.

اقتربتُ من السّيّدة الفلسطينية، وطلبتُ منها أن تحتفظ بهويّتي لديها، لأن الدرك لن يقوم بتفتيشها. وافقَتْ، لكنّها تراجعتْ في النهاية. دخلتُ إلى الحمّام، وخبّأتُ الهوية في لباسي الدّاخليّ. تسلّل أفراد الدرك إلى البناية، طلبوا منّا هوياتنا، وسألونا عن أسمائنا، كان شَيَّار يُترجِم لنا ما يقولون، بحُكم إتقانه التّركيّة التي يتحدّثها بطلاقة، في الخارج، كانت تنتظر سيّارات الدرك مع مَدَنيّيْن يراقبون ما يحدث، فكّرتُ في الهرب، لكنْ، بلا فائدة، المكان مُراقَب جيّداً، وكأنّنا أفراد من عصابة إيسكوبار، خبّأ اللّورد هويته داخل علبة زيتون كبيرة حتّى لا يُفتَضَح أمره. صعدْنا سيّارات زرقاء رباعية الدَّفْع دون أن تُوضَع في أيدينا أصفاد، سارتْ بنا حتّى توقّفت عند فناء مديرية الدرك، وقفْنا في صفّ، كان المشهد هزلياً، وأمامنا البحر بأمواجه المتلاطمة وهي تسخر منّا، المطر يسقط بهدوء، ولم أمنع نفسي من تدخين سيجارة.

أفراد الدرك معظمهم شباب، لم نتلقّ منهم قسوة أو معاملة سيّئة، جاء أحدهم، وراح يُسجِّل أسماءنا، قلتُ لبانغو أن يقدّم لهم اسماً غير اسمه الحقيقي، كان الاسم الذي اختاره مثيراً للضّحك على صعوبته وغرابته، وبعد الانتهاء من تدوين أسمائنا، جِيءَ بمترجم كهل، حاول جاهداً معنا، لكي ندلّه على المهرّب، لكن الجميع أنكر. انسحب بعدها المترجم الذي كان مُصرّاً على معرفة الحقيقة أكثر من الدرك، ممّا جعلني أرغب في

البصق على وجهه الكريه، خُيّلَ إليّ أنه "حركي" قذر، يشبه حركى الجزائر زمن الاستعمار. جاء دور الدرك في التحقيق معنا، ووقع الاختيار على شَيَّار بحكم إتقانه التّركيّة، التي أثارت شكوك الدرك، وُضِعَتْ له أصفاد في يَدَيْه، وصعدوا به إلى طابق علوي للتحقيق، لتنفجر زوجته بالبكاء. بقيْنا خارجاً لفترة حتّى جِيء بشَيَّار مع دركي، وطلب من اللّورد أن يأتيَ معهما، تغيّرت ملامح اللّورد، وكان فزعاً، تمّ اقتيادهما إلى غرفة تحقيق مزوّدة بشاشات كاميرات، استعرضوا أمامهما صور اللّورد في المركز التّجاريّ، في محاولة لإدانته، حاول ابن عفرين التّنصّل بلا فائدة، الصوّر تفضحه في المركز التّجاريّ، مع الشخص الذي رافقه، والذي طلبوا منه هو الآخر الحضور، كان شَيَّار يتكلّم نيابة عنهم، في محاولة منه للإفلات وإقناع المحقّق، بأنّنا جميعاً مهاجرون، ولا يوجد مهرّب بيننا. سحبوا منّا الهواتف، وبحثوا فيها عن أرقام وصور، قد تدلّهم على رأس الخيط، لكنْ، بلا فائدة.

استغرق التّحقيق وقتاً طويلاً، واستعرضوا أمامهم صوراً لمُهرّبنا في ملهى مع شقراوات، لكنّهم أنكروا معرفتهم به، صعدْنا إلى قاعة كبيرة بتلفاز، بعد اشتداد المطر، أشفق رجال الدرك على أطفال الفلسطينية، ولم يجدوا مانعاً في التقاط صور مع رضيع تلك السّيّدة الكونغولية، فيما شَيَّار واللّورد يتردّدان على قاعة التحقيق بلا توقّف.

قدّم لنا أفراد الدرك لبناً وشاياً، وتبادلوا معنا الحديث، وانتهى التحقيق مع شَيَّار واللّورد بعد أن جِيء بدركيٍّ كرديٍّ، لم يفلح في الحصول على أيّ معلومة منهما. بانغو كان بارعاً في التمثيل حين اختار أن يضع الرضيع بين أحضانه، في محاولة لإثارة شفقة الدرك، ونجح في ذلك، وكان سعيداً بعد أن تصالح مع زوجته. كنتُ أراقبُ المطر، خلف زجاج النافذة، وبداخلي رغبة عارمة في الانقضاض على المهرّب، وتحطيم وجهه،

بسبب المهازل التي مرّت بنا، وأحياناً ألتفتُ للتلفاز الذي كان يبثّ نشرة إخبارية عن اعتقال أنصار فتح الله كولن المتّهم بتدبير الانقلاب المخفق على الرئيس أردوغان، وخبراً آخر عن المهاجرين وصورهم في البحر وهم يحتفلون بالوصول. لم أستوعبْ سياق الحَدَث، لكوني أجهل التّركيّة، لكن المشاهد شحنتْ رصيد أملي في الوصول إلى اليونان.

نعم، هناك مهاجرون يموتون في البحر شهرياً، وبالعشرات، لكنْ، في المقابل هناك مَنْ وصل، وأنا مقتنع بالوصول وعدم العودة إلى وطني. جِيء بمصوِّر، وتمّ التقاط صور لنا مرفقة بأرقام نحملها، وبعدها أخذوا بصمات اليَدَيْن معاً، جاء دوري، واستغرق رجل الدرك بزيّه المَدَنيّ كثيراً في النّظر إليّ حتّى أثار حفيظتي، وقال بالإنجليزية "you are a Turkish man"، تجاهلتُ كلامه، وتظاهرتُ بعدم فَهْمه، وشَيَّار الذي كان يقابلني يضحك، وأخبرني لاحقاً أنه شكّ في كوني تركياً ربّما بسبب ملامحي أو على سبيل الدعابة. بعد انتهاء التبصيم ذهبْنا للحمّام، من أجل إزالة آثار الحبر الأسود العالق في أصابعنا، في الخارج، كانت تنتظرنا حافلة، لم نعلم أين ستأخذنا، أمّا شَيَّار، كان مبتهجاً ربّما لأنه نجح في التحايل على المحقّقين، فيما اللّورد متوارٍ في الخلف غير مُصدِّق أنه نجا.

غادرْنا القاعة، مع لُطف غير متوقّع، من أفراد الدّرك التّركيّ خاصّة قائدهم..

في الطّريق إلى الحافلة التي كانت في انتظارنا بفناء مديرية الدّرك، كان يردين - شقيق شَيَّار - يحدِّثني بمرارة عن مأساته في اسطنبول، التي يكدح فيها بأجر زهيد، بالكاد يكفيه لضمان عيش محترم، وأَسَرَّ لي برغبته في العودة مع زوجته الحامل، إلى سورية، بعد أن ضاقت به تركيا.

أخذْنا أماكننا في المقاعد الخلفية للحافلة، وجلس بقُربي صلاح السّودانيّ الذي كان هدوؤه يُخفي خيبة وحزناً، أخبرني عن محاولته العبور برّاً إلى اليونان، من مدينة أدرنة شمال غرب تركيا، في ليلة شتوية قاسية، أكرمتْهم بالبرد والثّلج، تخلّلها إطلاق نار بين حَرَس الحدود الأتراك ومهرّبين أكراد، وكادت أن تتحوّل الرحلة إلى مجزرة.

الكلّ كان مبتهجاً، داخل الحافلة، اعتقدَنا أنه سيُفرَج عنّا. شَيَّار يمازح بانغو، واللّورد غادره الفزع، واستعاد هو الآخر مرحه وعفويته. الجوّ خارج الحافلة مظلمٌ وماطر وأزمير تظهر من بعيد كفتاة شبقةٍ، تستعدّ لطقوس اللّيل ومواعيد طويلة مع تجّار وسيّاح ومهرّبين ومهاجرين وسماسرة، يرغبون في نهش جسدها الأبيض النّاعم.

أزمير ليلاً يلفّها مزيجٌ عجيب من الأنس والدفء بنسيمٍ أوروبي بارد وأضواءٍ زاهية تُشرق من ملاهيها وحاناتِها المُغرية، ومقاهٍ عتيقة، تسهرُ طويلاً مع روّاد، يحتسون الشّاي، ويُدخِّنون ويلعبون النَّرْد والدّومينو.

الأتراك شعبٌ هادئ ومسالم، يقدّسون كثيراً زعيمهم الوطني "أتاتورك" الذي نُصبت له تماثيل في كل ناحية، ولا يخلو محلّ أو فندق تدخله من صوره بالزّيّ العسكري والمَدَنيّ بطربوش أحمر، وشارب قصير، ونظرات حازمة. يتعلّق الأتراك كثيراً بقوميّتهم، ونادراً ما يُخاطبكَ تركيٌّ بلغة غير التّركيّة، ولا يهمّه إن كنتَ تُتقنها أم لا، ربّما باستثناء عمّال الفنادق والمطارات وبعض رجال الأمن، يتكلّمون بهدوء، ويُدخّنون بشراهة.

لم تتوقّف الحافلة في بسمانة كما توقّعْنا، بل استمرّت في المسير إلى وجهة نجهلها، عبدو الأوغندي أخبر مرافقي أنّنا نتّجه إلى مركز احتجاز، يديره الأتراك بالتعاون مع الاتّحاد الأوروبي، وأضاف بأنه سيُفرَج عنّا نحن

"العرب"، ويُسجَن الأفارقة، المركز يقع خارج بسمانة في موقع جبلي، بعيد عن السّكّان.

كان المطر غزيراً، ولم يتوقّف عن الهطول، كانت الساعة حوالي منتصف الليل، تعاظم الإنهاك والتّعب والنعاس، ولم نكن ندري كيف سيكون مصيرنا في هذا المركز المخيف والمعزول المحاط بسور طويل ومرتفع، لا يختلف عن تلك الأسوار التي تحيط بسجون الجزائر التي ارتفع عددها وحجم استيعابها للمساجين في زمن "الحكم الراشد" و"المصالحة الوطنية" وشعارات "العزّة والكرامة" و"ارفعْ راسَك آبا" وبقية الهُراء الوطني الذي يجتهد الإعلام الرّسميّ في تعليبه وتقديمه لمَنْ تبقى من مشاهديه.

توقّفت الحافلة عند باب حديدي ضخم، اقترب الحارس بعد أن فتح الباب، واستلم من الدّركيّ الذي كان يجلس بجوار السائق قائمة، تضمّ أسماء الرّكّاب، انطلقت الحافلة مجدّداً، لتتوقّف عند بناية ضخمة، واجهتها زجاجية، تقدَّم رجل ضخم، يرتدي زيّ حرّاس السجن، تفحّص وجوهنا، وسلّمَنا قائمة طالباً منّا التوقيع بعبارة لم أفهم منها إلّا كلمَتَي "إمزاء أفنديم". بعد الإمضاء تمّتْ المناداة على الأفارقة، نزل بانغو مع عائلته، ثمّ عبدو الأوغندي ومرافقه الأريتيري، والتحق بهم الشّابّ الكونغولي "أبو أحمر" رفقة السّيّدة مع رضيعها، بقي فقط صلاح السّودانيّ الذي تظاهر بالنوم، وكان قد حدّثنا عن مهرّب سوداني "إنسان طيّب ابن حلال، ويشتغل كويس" على حدّ وصفه، ونصحَنا بالبحث عنه في بسمانة، طلب منه الحارس أن ينزل بعد أن قال له صلاح بأنّه من إريتريا. تعاطفتُ مع هؤلاء الأفارقة الذين تقاسمْنا معهم المعاناة وشقاء الرّحلة وحُلم الوصول إلى أوروبا، لا أدري لماذا شعرتُ بأن سلوك الأتراك معهم ينبع من عنصرية فاضحة ضدّهم، فيما نحن الذين تظاهرْنا بأننا سوريّيْن تمّ إخلاء سبيلنا.

بعد دخول الأفارقة إلى مركز الحجز، انطلقت الحافلة، وتنفّستُ ملء رئَتَي وأنا أستحضر دفء الفندق. توقّفْنا عند بوّابة الخروج، وصعد رجل بزيّ مَدَنيٍّ قصير، لحيته خفيفة، حاصرها الشَّيْب، وبعينَيْن خضراوَيْن تُرسلان نظرات قاسية، راحت تتفرّس وجوهنا، كنتُ في مقعد من المقاعد الخلفية للحافلة مع مرافقي واللّورد، ومرافقي الآخر يجلس خلف السّائق رفقة أبناء الفلسطينية، أشار الرجل بسبّابة يده إلينا نحن الثلاثة، وطلب منّا النزول. ماذا يريد منّا هذا الكائن العابس؟ نزلْنا وطلب منّا أن نرافقه إلى غرفة تقع بجوار خفارة المركز، كانت الحرارة بداخلها مرتفعة جدّاً، راح يتأمّلنا ويدقّق في وجوهنا مع نظرات لا تخلو من القسوة ..

لم يكن يجيد الحديث إلّا بالتّركيّة، مع إنجليزية ركيكة، ثمّ ارتدى قفّازات طبِّيَّة، وبدأ في تفتيشنا بشكلٍ دقيق، حتّى إنّه طلب منّا نزع الأحذية، ليقوم بالبحث عن شيء نجهله، سحبَ من الجيب الدّاخليّ لمعطفي مبلغاً من المال بالأورو، لتصل أنامله إلى مكان، كنتُ أُخبّئ فيه هوية فرنسية مع وثيقة يونانية "خرطية" تُتيحُ الخروج من الجزر اليونانية إلى أثينا، أمرني بسَحْبها من لباسي الدّاخليّ، تغيّرت ملامحه، ثمّ تأمّلني لفترة، واقترب من مرافقي، ليجد معه "الغنيمة" نفسها، باستثناء اللّورد الذي لم يجد معه شيئاً، نزع القفّازات، وأدخل أصابعه بمُعقِّم، وكأنه كان يفتّش كائناتٍ موبوءة ..

وضع الهويّات الفرنسية واليونانية بالإضافة إلى المال فوق مكتبه، وراح يتفحّص الوثائق، ويحاول التّأكّد منها، وعيناه لا تتوقّفان عن إرسال إشارات تهديد ووعيد، سألَنا عن جنسياتنا، وأخبرناه بأنّنا سوريون، وقد هربْنا من الحرب المدمِّرة هناك. سَحَبَ هاتفَهُ، وبدأ في الكتابة بالتّركيّة في "غوغل للترّجمة الفورية"، وهو يسأل عن طبيعة وجودنا في تركيا وتاريخ دخولنا

أراضيها، وكيف حصلْنا على الهويّات. إجاباتنا لم تكن مقنعةً بالنّسبة إليه، ولم يتوقّف عن النّظر إلى المال، فهمتُ أنّه يريد مساومتنا، وينتظر أن نتنازل له عن المبلغ مقابل أن يُفرِج عنّا، هكذا أخبرتْني عينا ابن العاهرة الذي يستحقّ السَّحْل عقاباً له على عنجهيته، ولولا جهلنا بمكان نهربُ إليه، لأشبعناه رفساً وضرباً.

لم يتوقّف عن الثرثرة في هاتفه، رغبته كانت واضحة وهي المال، وبعد أن عبّرنا له عن رفضْنا التنازل والاستسلام لابتزازه، كَتَبَ في هاتفه عبارة أخيرة، ترجمتُها كانت رديئة، فهمتُ منها أن السجن ينتظرنا بتهمة التّهريب وتزوير الوثائق وحيازة أموال غير مشروعة. شعرتُ بثقل هذه العبارة على رأسي رغم أنها تخويف لا أكثر، وكلّما ابتزَّنا أكثر نظير الإفراج عنّا وجد إصراراً على الرفض، وهذا ما دفعه إلى مضاعفة درجة حرارة الغرفة كأسلوب للتّشويش والتأثير على ثبات موقفنا. لكنْ، عبثاً فعل، لأنّنا لم نستسلم، وبقيْنا، بسبب ذلك، واقفين لأكثر من ساعَتَيْن دون أن يُقرِّر مصيرنا، بينما هو راح يدخّن ويحتسي شاياً، ورائحة الدخان تستفزّني، إلى أن دخل رجلٌ بِبِنْيَةٍ قوية مع شاربٍ كثيف، وملامح تبدو وديعة، يرافقه آخر أصلعٌ ونحيفٌ نسبياً، لكنه كان يبدو أكثر وداعة منه. تحدّثا مع الذي كان يحتجزنا لوقت طويل دون أن نفهم شيئاً، اطَّلع صاحب الشّارب على الوثائق، وقام بتصويرها، وفتَّشَنا، ولم يجد شيئاً آخر. كان اللّورد يُنصِت باهتمام لحديثهم دون أن يجد فرصة ليُترجم لنا ما كان يدور حوله حديثهم، بعدها غادر الرجلان، وفهمتُ من نظراتهما أن الأمر لا يستدعي هذا التحقيق الفارغ كلّه، لكن صاحبنا لم يتوقّف عن تأمّلنا، متلذِّذاً برؤيتنا نتعرَّق ونترنّح من التّعب دون أن يتوصّل معنا إلى نتيجة. شعرتُ باختناقٍ شديد، ونال منّي الإرهاق، وبدأ اليأس يتسلّل إلى أعماقي، واعتقدتُ أن الحُلم سيتوقّف، لأنّني كنتُ سأكون مقتاداً إلى السّجن أو الترحيل إلى الوطن الذي هربتُ

من جحيمه، واجتاحتْني رغبةٌ شديدةٌ في الهروب من هذا الموقف، والسَّيْر في اتّجاه الحُلم مهما كان الثمن.

بدأ اليأس يظهر على حضرة المحقّق، فهو لن يربح شيئاً، إذا استمرّ في الإبقاء علينا دون أن يحصل على ما يريد، وكأنّه أدرك ما يجول في ذهني، وبأنّني لن أُفرِّط في حُلمي. فجأة طلب من اللّورد مرافقته إلى خارج الغرفة، واستغرق معه للحظات، تساءلتُ فيها مع مرافقي عن مصير هذا الشّابّ الكرديّ البريء الذي قاسَمَنا معاناتنا، وانتهى محتجَزاً معنا.

عاد اللّورد، وأخبرني بأن المحقّق لا يرغب في التنازل عن المال، كان القرار صعباً، ففي النهاية هناك حلّ لهذا الموقف، وهذا أملٌ في الخروج سريعاً، لذلك تناقشتُ مع مرافقي الذي أقنعَني بقبول الصفقة بقوله "المال يُعوَّض"، فأجبتُ اللّورد بالموافقة شرط أن يأخذ بعضاً من المال، لا كلّه، ولم يُخفِ المحقّق امتعاضه، وعاد إلى مكتبه، وسلّمني المال، وقام بتمزيق الهويّات، وطلب منّا أن نرافقه إلى خارج مكتبه، كان الوقت يشير إلى اقتراب الفجر والمطر يهطل بهدوء، والمكان أكثر وحشةً ورهبة. غادرَني الإرهاق نسبيّاً، وتسرّبتْ إلى دواخلي زخّات من الأمل رغم نذالة المحقّق الكريه وخسّته، والذي لم أجد كيف أسحق وجهه بعد ساعات من الوقوف في حرارة شديدة. رافقْناه خارج المكتب، وطلب من مرافقي أن يبقى خلفَنا، فيما اللّورد اختار له زاوية غير بعيدة، ليراقب الوضع. لم يتوقّف عن مراقبة المكان جيّداً، وراح ينظر إلى كاميرات المراقبة المثبّتة بكثافة في كل مكان، بعد أن اختار مكاناً آمناً، طلب منّي المال، ورحتُ أتماطل في سحبه من جيبي، وأبتسمُ له بخبث، كان مرتبكاً، ويرغب بشدّة في الحصول عليه بأسرع وقت خوفاً من قدوم شخص ما، ويشاهد تفاصيل الصفقة بين مهاجرين ورجل أمن فاسد ومحتال، لم يجد حرجاً في ابتزازهم. شعر

بالضّيق، وراح يتأمّلني بحزم دون أن يُشعِرني ذلك بالفزع أو التّردّد. "أنتَ خارج مكتبكَ، أيّها النذل، وحركة طائشة منكَ، سترصدها الكاميرات"، لكن الإصرار في التلاعب معه قد يجعله يُغيِّر رأيه، ويلغي الصفقة، ونحن مَنْ سيخسر في النهاية.

دفعتُ له أقلّ ممّا اتّفقنا عليه بعد أن لعبتُ على عامل الوقت والوضع الذي كان فيه، خاصّة حين ظهر عليه التّردّد والخوف، طلب المزيد، ولم أُلبِّ رغبته، واكتفيتُ بشكره ومداعبة لحيته التي وددتُ اقتلاعها، وختمتُ أجواء الصفقة بعبارة "تشكرات ايديريم أفندم"، ليشعر بأنه خُدع أو تمّ التحايل عليه، ومع هذا لا يمكنه أن يتراجع بعد أن ضيّع ساعات معنا، كان نظيرها مالاً بالعملة الصعبة، يكفيه للعربدة في ملاهي أزمير اللذيذة لبضعة أيّام.

مشيْنا خلفه حتّى وصلْنا إلى بوّابة الخروج من المركز، طلب من الحارس أن يفتح لنا الباب، وأشار إلينا بحركة يده للهرولة بسرعة، وفعلْنا ما طلب دون أن نلتفت إلى الوراء. اجتاحتْني مشاعر الحُرّيّة، واخترقتْ قلبي نسائم الارتياح والتّحرّر من مصير آخر، انتهت فصوله بصعوبة، كان المال فيها هو سيّد الموقف .. تأمّلتُ من بعيد ذلك المركز المُوحِش القاسي الذي يختزل حجم الفساد والامتهان والتلاعب بمصائر الناس والربح من ورائهم، وتساءلتُ: كم من مهاجر تعرّض لمصيرنا نفسه؟! وكم من أموال أُخذت منهم، وذهبتْ إلى جيوب رجال الأمن الفاسدين؟! إنّه وجه آخر لتركيا، يناقض الصورة النّمطيّة التي يُروِّج لها بعض الإعلام العربي المُستَلَب ونُخَبٌ تتوهَّم عودة المجد العثماني المزيّف.

السّجن ورائي، والأمل أمامي، يبتسم لي، ويسخر من تركيا، أو هكذا أقنعتُ نفسي، بعد أن ابتعدْنا عن مركز الاحتجاز.

الحرقة، هروب من حكومات مُنافقة، تُحيلنا إلى مهرّبين سَفَلَة ومهاجرين بعقليات مختلفة، إلى رجال أمن، أغلبهم فاسد، وإلى حُلم يراوح مكانه.

كلّ ما تحمله من أفكار عن الهجرة يزول أمام ما تواجه على أرض الواقع .. إنكَ في حضرة عالم بلا رحمة، الخطأ معه موت مؤكّد، ومعاناة لا تريد أن تنتهي. عليكَ أن تتأقلم أو أن تعود من حيث أتيتَ .إنها طريق شاقّة، مع جبال ووديان وقطّاع طُرُق وحدود دولية، بحَرَس مُتوحَّش، لا يجد حرجاً في إطلاق النار، وأسلاك شائكة ومكهربة مزركشة بثياب مهاجرين، علقت هناك كدليل إدانة في جبين العالم "الحُرّ"، فضلاً عن البحر، ذلك الكائن الجشع بامتياز الذي لا يشبع من ابتلاع طرائد لذيذة، جاءت إليه بمحض إرادتها متوهّمة رحماته .. لكن ذلك كله لا يمنع من المغامرة..

المطر واللّيل لوحة نشاهدها دوماً في أزمير، هذه المدينة الملعونة التي ترفض مغادرتي لها، هي أشبه بنَحْس يحتاج سكرة تاريخية للتّحرّر من رِجْس هذه المدينة المُمِلَّة. كان اللّورد يضحك طوال الطّريق، يسخر من رجل الأمن، ومن المشهد الهزلي الذي عشناهُ لساعات. دخَّنتُ سيجارة للحُرّيّة، وأخرى للأمل.

عبرْنا وسط تجمّعات سكنية فاخرة ونظيفة، أهلها النيام غير مَعنيّيْن بما يحدث خارج غُرفهم الدّافئة. كنّا نبحث عن مسلك للوصول إلى الطّريق السريع المؤدّي إلى محطّة الحافلات في أزمير، المكان هادئ، والحركة شبه معدومة إلّا من شاحنات رفع القمامة وعمّال نظافة لم يتوقّفوا عن رَمْينا بنظرات استغراب ودهشة: "ماذا يفعل هؤلاء هنا؟"، "من أين جاؤوا؟" و"إلى أين يتّجهون؟".. وصلْنا إلى الطّريق السّريع، توقّفْنا قليلاً حتّى جاءت حافلة تقصد وجهتنا. جلس اللّورد إلى جانب السّائق التّركيّ، وتبادلا حديثاً خفيفاً. اتّصلتُ بمرافقي الآخر، كان قد وصل إلى الفندق، وينتظرُ قدومَنا.

المحطّة أو "الكاراج" كما يُسمّيها الأتراك، كانت تستقبل يوماً آخر حافلاً بالحركة. تناولْنا شاياً وبعض الحلويات على حساب اللّورد، واتّجهْنا إلى تاكسي، ليأخذَنا إلى بسمانة.

السّابعة صباحاً، ولا نملكُ مالاً بعُملة تركية، باستثناء الأورو، أصحاب سيّارات الأجرة أرادوا التحايل علينا، وهم يعرضون خدماتهم بأسعار خرافية. قرّرْنا الانتظار حتّى طلوع النهار.

تمدّد اللّورد في كرسي المحطّة، فيما بقيتُ أنا ومرافقي نُراقب حركة المسافرين، وفي معظمهم مشاريع مهاجرين، من جنسيات مختلفة: عرب وشرق آسيويّيْن، وأفارقة جاؤوا إلى بسمانة للمرور إلى أوروبا، وفي انتظارهم مهرّبون وسماسرة عرب وأكراد وأفارقة ..

أزمير تدير لهم ظَهْرها، وتُرحّب بهم على مضضٍ، فيما أصحاب سيّارات الأجرة يتهافتون عليهم، لإيصالهم إلى وجهاتهم.

عندما بزغتِ الشمس بشكل كامل، وجدنا تاكسي، يبدو محترماً، لا يسيل لعابه للعملة الصّعبة، على غرار بقية زملائه. أوصلَنا إلى بسمانة، لنتّجه إلى الفندق، هو مكان بسيط، لكنّه هادئ، والنّوم فيه ممتع، ويتوفّر على شبكة واي فاي، تتدفّق بغزارة، وصاحبه رجل طيّب متواضع، لا يتوقّف عن مناداتنا بـ "حبيبي".

بعد حمّامٍ ونومٍ طويل أفقتُ مساءً على صوت شَيَّار يتحدّث بصوت مرتفع في الغرفة، كان يسخر من رحلتنا المخفقة، وينصحنا بالبحث عن مهرّب آخر، لم أبالِ كثيراً بكلامه، كنتُ أفكّر في بيرات منعشة، تزيل بعضاً من خيبتي، وأنا أسمع موسيقى أرمينية قادمة من ملهى مجاور، تلامس الروح، ترحل بي بعيداً عن عالم المهرّبين والمهاجرين ولعنات أزمير.

زارَنا المهرّب في الفندق، وفاجَأنا بحديثه عن رحلة، ستكون في الغد، أدرك بأنّنا سنفلتُ منه، وفي كل مرّة كان يبرّر إخفاق الرحلة بغباء شركائه الأتراك.

بقية النفرات "السّود"، كما يسمّيهم في السّجن، ولا يملك إلّا أن يرسل مَنْ تبقّى من نفرات مع مهرّب آخر. لم أكن متحمّساً ورفاقي أيضاً حتّى شَيَّار توقّع إخفاقاً ذريعاً للرّحلة، ومع هذا قرّرْنا المحاولة أملاً في التّخلّص من النَّحْس الذي لم يكفّ عن مطاردتنا.

في اليوم التّالي مساءً، جاء المهرّب، وطلب منّا الاستعداد. والتقيْنا في الفندق المهرّب السّودانيّ، الذي حدّثَنا عنه صلاح، أطلق عليه شَيَّار اسم "الحوت الأسود"، كان بغاية الهدوء والأدب. لم نتحدّث كثيراً، لكنّه اكتفى بالدعاء.

منذ البداية، كانت العملية مفضوحة، النّفرات تسير في الشارع المزدحم، وتحمل أمتعة ونجّادات، وتتّجه إلى محطّة التاكسي، نحن الثلاثة والفلسطينية وأبناؤها وشَيَّار وشقيقه وزوجاتهما. على الرصيف كان بعض الأشخاص، ملامحهم غير عادية، يتظاهرون ببيع سجائر مهرَّبة وساعات وعطور، لكنّهم، في الحقيقة، مُخبِرون.

ركبْنا التاكسي، وسارت بنا لفترة خارج بسمانة، حيث يظهر تمثال ضخم لأتاتورك، تمّ نَحْتُهُ في الجبل ببراعة فنِّيَّة مُدهِشة، توقّفْنا على جنب الطريق وسط ازدحام كبير. كانت تنتظرنا حافلةٌ سوداء صغيرة من نوع فولكسفاغن، هي نفسها التي جاءت ليلاً قبل أسبوع، إلى المكان الذي تركَنا فيه سائق الحافلة البائسة سيِّئ الذِّكْر، بعد أن تعطّلت قبل وصولنا إلى الشاطئ، وهناك انتظرنا لساعات رفقة الجليد وتلكّؤ المهرّب.

كانت الحافلة تحمل عدداً كبيراً من الرّكّاب، تمّ شَحْنهم فوق طاقتها الاستيعابية، معظمهم من العراق، وكذلك شابٌّ وفتاة من الدومينيكان، بصعوبة حصلتُ على مكان أجلس فيه، اختناق شديد، والحافلة تترنّح، بالإضافة إلى ضجيج الأطفال، ركوبُنا بتلك الطّريقة وأمام المارّة لم يكن ليمرّ هكذا كما توقّعتُ.

سِرْنا، لأقلّ من ربع ساعة، ثمّ سمعْنا أبواق سيّارات الشّرطة خلفنا، ضاعف السّائق من سرعة الحافلة، لكنْ، بدون جدوى، حاول الإفلات وتغيير المسار، لكنْ، بلا فائدة، لم يبالِ بسلامة الرّكّاب الذين كان أغلبهم أطفالاً، فراح يناور ويبحث عن مخرج حتّى أدركتْهُ سيّارات الشّرطة الّتي اصطدمت به مباشرة، وتحطّم زجاج نافذة الباب، وكذلك المرآة، فلم يبقَ له إلّا التّوقّف والهرب بعد أن تعالت صيحات لأفراد الشّرطة مطالبين إيّاه بالتّوقّف، ورغم هذا الموقف، فتح الباب وهرب لبضعة أمتار حتّى أوقفتْهُ طلقة من مسدّس كهربائي، شلّت حركته. لم يصرخ أحد، الكلّ كان متعايشاً مع الوضع على خطورته.

اقتيد السّائق إلى سيّارة شرطة، أمّا الحافلة، فتولّى قيادتها رجل أمن بزيّ مَدَنيّ، كانت تسير بصعوبة، وكما يبدو، تتّجه إلى مديرية شرطة أزمير.

توقّفْنا أمام المديرية، نزلْنا، وضعنا أمتعتنا في ناحية معزولة، وقفْنا في صفٍّ، لنبدأ في الدخول، اللّيل يسخر من مشهدنا الهزلي، والبرد يتسلّل بهدوء، لم أكن مبالياً بما سيحدث لنا، سيمرّ كلّ شيء كما حدث من قبل، تحقيقٌ سخيف، وتوقيعٌ، ثمّ الإفراج عنّا، مزيجٌ من الإحباط والأمل كان عليّ تجاوزه. صعدْنا عدّة طوابق، لنصل إلى رَدْهَةٍ طويلة، على جانبها عددٌ من المكاتب.

لم يتوقّف أفراد الأمن عن تأمّل ملامحنا، والسّائق في مكتب التحقيق

يتعرّض لاستنطاق مصحوباً بأصواتٍ عالية، كانت إلى جانبي عائلة عراقية، سيّدتان وأطفال، وشابٌ لم يتجاوز العشرين، أنيق من السماوة جنوب العراق على ضفاف الفرات، يتحدّث لهجة عراقية فخمة، لم يكن مرعوباً، بل يتصرّف بمسؤولية، أخبرني بأن والده يقيم في بريطانيا، وقرّر الالتحاق به مع عائلته، ليطلب اللّجوء هناك بصفة "بدون".

خرج من مكتب التّحقيق شرطي بزيّ مَدَنيّ، كان يتحدّث بصوتٍ مرتفعٍ مُحاوِلاً زرع الخوف في قلوبنا، مُركِّزاً نَظَرَهُ على مُرافِقي الذي كان واقفاً، وبحوزته هويّة فرنسية، لم تُصادَر منه كما حدث معي ومرافقي الآخر. وقف وقال له: "I know. You are Algerian"، أنكر مرافقي ذلك تماماً، وقال له: "no, Im from Syria"، لم يقتنع الشّرطي بكلامه، وراح يفتّشه بشكل دقيق، ولم يعثر على شيء سوى على سجائر وهاتف.

كان هناك أيضاً شابٌّ عراقيٌّ آخر، اعتقدتُ للوهلة الأولى أنّه جزائريّ، من خلال ملامحه أيضاً، ضلّلني الوشاح الرّياضيّ الخاصّ بفريق شبيبة القبائل الذي كان حول عنقه. ابن مدينة بغداد، كما علمتُ لاحقاً هرب من الميليشيات الطّائفيّة وإرهاب داعش وفساد حكومة المزبلة الخضراء كما يصفها. تعرّض للتّفتيش أيضاً، وأخبرتُهُ بأنّي سوري حتّى لا يصل إلى سَمْع الشّرطيّ لفظ "جزائري" العزيز على قلوبهم كثيراً، ربّما إصرارهم على البحث عن جزائريّيْن بيننا، سببه قيام بعض المهاجرين من الجزائر بالاعتداء على رجال أمن أكثر من مرّة.

سمحوا لنا بالتّدخين في حمّام مجاور، تردّدْنا عليه كثيراً، وكان المكان المناسب لمُرافِقي، ليتخلّص من "الهوية الفرنسية"، بعد أن نصحتُهُ بذلك .. الرَّدْهَة كانت تضجّ بشَغَبِ أبناء الفلسطينية، ويردين منشغلٌ بزوجته التي داهمَها المخاض، كان مضطرباً، ولا يدري كيف يتصرّف بعد أن تجاهلَهُ

رجال الشرطة، ورفضوا الإفراج عنهما إلّا بعد استكمال تمثيليّة التّحقيق. جاؤوا بمترجم عراقيّ، شابٌّ ثلاثينيٌّ يُقيم في أزمير، يُرسِل ضحكات، توحي بأن المشهد برمّته عابر. بدأ التّحقيق معنا فرداً فرداً، لم يكن هناك شيء، باستثناء الإمضاء على محاضر تحقيق.

جاء دوري، واكتفيتُ بالتّوقيع، مع دردشةٍ قصيرة، بادر إليها المترجم، بعيداً عن آذان رجال الشرطة. قال مازحاً: "من وين أنت صراحة؟".. بعد أن تأكّد بأنّني لستُ كما أدّعي ربّما بحكم خبرته، ورحتُ أُخبره بأنّني سوري، لكنّه لم يقتنع، وأصرّ على كوني ليبياً بعد أن ذهبتْ شكوكه في أن أكون جزائرياً، وراح يسألني عن أمازيغ ليبيا. لم أخُضْ كثيراً في الحديث معه، وسألتُهُ عن مصيرنا هنا، وأكّد لي بأنه سيُفرَج عنّا.

في أثناء خروجي من مكتب التّحقيق، صادفتُ السّائق مُكبَّل اليَدَيْن، يجرّه رجل أمن ..

رجلُ أمنٍ آخر كان يحمل صندوق عَرَقٍ تركيّ، بزجاجات بيضاء شفّافة أنيقة، تُسيل اللُّعاب، عثروا عليه في الحافلة، تقاسمه فيما بعد أفراد الشرطة فيما بينهم، رأيتُ أحدَهم يحمل زجاجة منه، ورفيقه أحضر قارورة كوكا كولا، ليمزجها مع العَرَق، وقام بغَلْق باب المكتب، لتصلني بعد لحظات رائحة ذلك المشروب الفاخر .. إنها غنيمة أخرى، لا تختلف عن غنيمة السّائق الذي سيدفع كفالةً بعشرات آلاف الدولارات، ليُفرِج عنه كما يحدث دوماً.

بعد انتهاء التّحقيق، رافقَنا شرطيّ إلى طابقٍ أرضيٍّ، به قاعة انتظار بنصف إنارة، دون أن نعلم طبيعة الإجراء التالي، شَيَّار منشغلٌ بالحديث مع شرطيّة مُحاوِلاً إقناعها بضرورة نقل زوجة يردين إلى المستشفى، لكنْ،

بلا فائدة رغم قسوة الوضع الذي كانت فيه، وكذلك ملامحها الشّاحبة وأنين صوتها الذي آلمنا جميعاً دون أن نقوى على فعل شيء.

كان يجلسُ معنا الشّابّ الدّومانيكانيّ مع مواطنته الشّابّة السّمراء غير المبالية بما يحدث، تتشابكُ أياديهما، ويتبادلان الأحضان والقبلات في مشهد حميميّ، لفتَ انتباه الجميع، شَيَّار يغمزُني ويتأمّل المشهد الرّومانسيّ المُعاكِس لوضع زوجة شقيقه التي دخلت غرفة أخذ البصمات رفقة زوجها بعد تدهور وضعها الصّحّيّ، بحيث لم تعُد تقوى على المشي، ولا حتّى الجلوس على الكرسي، ومع هذا لم يُطلَق سراحها حتّى أُخِذت بصماتها دون مراعاة وضعها الخطير. بعد مرور يردين وزوجته، دخل البقية تباعاً، لتُأخذ بصماتهم، ويتمّ تصويرهم.

منتصف الليل، ولم ينتهِ مطبُّ التّبصيم والتّصوير، رغم ذلك شعرتُ بارتياح بعد أن سُمِحَ لزوجة يردين المسكينة بالمغادرة، مع زوجها إلى المستشفى، لتضع مولودها.

جاء دوري لأَخْذ بصمات اليد، دخلتُ زاوية صغيرة لالتقاط صور للوجه، أخذ المصوّر صوراً لي من الزوايا جميعها اليمين واليسار والأمام والخلف، وانتهى بأَخْذ صور كاملة، لم أرتحْ كثيراً لهذا الإجراء بداية الأمر، علمتُ لاحقاً بعد البحث في الإنترنت أن دوائر الشّرطة التّركيّة مع مكاتب الهجرة تأخذ بصمات "الغرباء" للتّأكّد من هويّتهم لاحقاً، مجرّد بصمةٍ جنائية لا أكثر تبقى في تركيا، ولا تُمنَح لأيّ جهة في الاتّحاد الأوروبي، ولا علاقة لها ببصمة دبلن التي يتجنّبها معظم المهاجرين.

تمّ تبصيم الجميع وتصويرهم، وزوجة يردين دخلت إلى المستشفى، كما أخبرني شَيَّار بعد أن اتّصل به .. خرجْنا من مديرية الشّرطة، لنجد حافلةً تنتظرنا، صعد الجميع دون معرفة وُجهتنا القادمة. بقيتُ خارجاً أُدخّن غير

مبالٍ بما يحدث، أتأمّل وجوه أطفال العراق وملامحهم التي اجتمع فيها النّعاس والتعب وعبارات تكاد تصرخ من أرواحهم التائهة: ملعونة أوطان الجريمة والفساد والتّخلّف، أوطان الزّور والتّزوير ومصادرة حياة الإنسان.

غادرتِ الحافلةُ، لتتوقّف عند مدخل مستشفى كبير، لم نستوعب هذا الإجراء بعد أن تسلّل طاقم طبّيٌّ إلى الحافلة، اقتصر وجوده على تفحُّص وجوه الرّكّاب دون سؤالهم عن وضعهم الصّحّيّ، خاصّة الأطفال الذين لم يتوقّف معظمهم عن السّعال. مجرّد تمثيلية لا أكثر، يجيدُها الأتراك جيّداً، حيث يتمّ تسجيل المهاجرين وتبصيمهم والتّظاهر بمرورهم على المستشفيات لمعاينة وضعهم الصّحّيّ، ثمّ تخييرهم بين الحجز أو إجبارهم عليه أحياناً، والإفراج عنهم أحياناً أخرى خاصّة السّوريّيْن الحقيقيّيْن أو المزيّفين مثلنا. إجراءات تتمّ بالتّنسيق مع الأوروبيّيْن، ويجتهد الأتراك في عدم الإنفاق كثيراً عليها.

غادرْنا المستشفى، لنعود إلى مديرية الشّرطة، استلم الجميع أمتعتهم، وساد حوارٌ بين أفراد الشّرطة، لم أفهم منه شيئاً. تقدّم أحدهم يحملُ رزماً من الأوراق، وصعد الحافلة بعد أن صعد البقية، الوجهة مجهولة دائماً، بعدها اتّضحت الرؤية عندما أخذت الحافلة مساراً آخر غير المؤدّي إلى بسمانة، لتتّجه مباشرة إلى مركز الاحتجاز الذي صادفْنا فيه قبل أيّام المحقّق الوغد الذي أخذ منّا المال، فقد أدركتُ معالم الطريق الذي كان مألوفاً بالنسبة إليّ. سارت الأمور بشكل عاديٍّ، وكأنّها حلقات من مسلسل تركي مُدبلَج طويل ومُملّ.

تقدّم منّا شابٌّ، يبدو من خلال هيئته ونظّارته الطِّبِّيَّة الواسعة مسؤولاً كبيراً، سأل عن شخصٍ يجيد التّركيّة، ليُترجم ما سيُتحفنا به، تقدّم شَيَّار كالعادة، أخبره المسؤول وعيناه تكادان تخرجان من زجاج نظّارته أنّه مهما

حاولْنا وحاولْنا العبور إلى الضّفّة الأخرى سينتهي بنا المطاف هنا في مركزه الفخم، يهدّدنا هذا الشّيء أم يريد العبث بعزيمتنا؟ تظاهرتُ أنّني لم أسمع هُراءَهُ، ورُحت أتأمّل بنايةً زجاجية متوقّعاً رؤية الحاجّ بانغو أو زوجته المعتقلَيْن هنا رفقة ابنتهما منذ أيّام، لم يظهر بانغو، حتّى هاتفه مغلَق منذ لحظة احتجازه.

بعد أن أنهى المسؤول خطابه البائس، لم يبقَ إلّا أن نغادر بعد أن أبقوا على الشّابّ الدّومينيكانيّ ورفيقته في المركز، لم يُخْفِ الأطفال العراقيون بهجتَهم فيما أبناء الفلسطينية استسلموا للنّوم. غادرْنا في الحافلة من ذلك المركز الكريه دون أن يعترض سبيلَنا أحد هذه المرّة كما حدث سابقاً.

لم يستمرّ بنا السائق إلى بسمانة كما توقّعتُ، توقّف عند محطّة صغيرة إلى جانب الطّريق السّريع، لا تبعد كثيراً عن "كاراج أزمير". الثانية صباحاً، بردٌ قارس، وكلاب ضالّة تجوب المكان. غادرتِ العائلة العراقية إلى فندق غير بعيد، وبعدها السّيّدة الفلسطينية التي اتّصلت بالمهرّب السّودانيّ الذي كان ينتظرها رفقة أبنائها في محطّة بسمانة، من أجل أن يدفع لها أجرة التاكسي بعد أن تظاهرتْ بأنّها لا تملك مالاً، ركبتْ معنا أنا ومُرافِقي، وبقي شَيَّار هناك مع زوجته ومُرافِقي الآخر في انتظار التاكسي. الطّريق إلى بسمانة شبه فارغ، لم يمنع السّائق الذي يُتقن الإنجليزية من تحدِّي ومناوشة سيّارة كانت أمامنا، لم يسمح له صاحبها بتجاوُزه "سلوك اعتقدتُ أنّه ماركة مسجّلة باسم الجزائريّيْن فقط".

فجرٌ آخر قادمٌ، لا أدري ما يحملُهُ لنا، إخفاقٌ يُحاصِرُنا، تركيا أصبحت ثقيلة جدّاً على قلبي، وكلّ ما فيها صار يثير اشمئزازي، والأهمّ أن المال كان في طريقه إلى النفاد. كان في حجري محمّد ابن الفلسطينية يشخر ويرتعش من البرد .. الأطفال وحدهم مَنْ يدفعون ثمن أخطاء العالم وقسوته ومخاطرة أوليائهم بهم.

وصلْنا بسمانة، استقبلَنا المهرّب السّودانيّ "عزيز"، بثياب النّوم، ورافقْناه إلى الفندق مع الفلسطينية، حملتُ محمّد وهو يرتعش غير آبه بما يحدث له إلى غاية وصولنا غرفة حجزها خليل مُسبّقاً في الطّابق العلوي للفندق، سلَّمتُ محمّداً لوالدته بعد أن قبّلتُهُ وداعبتُ شَعْره النّاعم الطّويل .. تحدّثتُ مع عزيز السّودانيّ خارج الفندق، وأعَابَ كثيراً على الأتراك إهمالهم الشّديد، وبدون مقدّمات، طلبتُ منه أن يمنحني هاتفه، لنتواصل لاحقاً ..

حين دخلتُ إلى الفندق، كان الوقت فجراً، تثاقل الكهل الأعرج في فتح الباب، بعد أن تمكّن منه النّوم، وأغراه الدّفء. طردتُ الأفكار كلّها، من رأسي، واستسلمتُ للنّوم كوسيلة للهروب من الإحباط، في انتظار غد آخر، قد يحمل جديداً، يُبعدني عن أزمير، تلك المدينة المزدهرة بالخيبات التي تُشبه الجزائر في جفائها، عدوانيّتها وساديّتها. بالمناسبة، كيف هي الجزائر؟ لم يعد يربطني بمسقط رأسي إلّا عينَي أُمّي.

عثرنا على مُهرّب آخر، لم يُقنعْنا عرضه رغم بساطة المبلغ المطلوب، أراد أن نعود إلى اسطنبول، لنجرِّب برّاً عبر مدينة أدرنة للدخول إلى البرّ اليوناني، لا يمكن العودة إلى اسطنبول بدون جواز سفر، خاصّة بوجود حواجز كثيفةٍ للدرك التّركيّ، كما أن الأخبار التي كانت تصلنا من هناك، لم تكن تُشجّع على المغامرة، بسبب تدهور الطقس وهمجيّة حَرَس الحدود الأتراك واليونانيّيْن، على حدٍّ سواء.

اتّصلتُ بمكتبِ تأمين الأموال في اسطنبول الذي وضعْنا فيه أموالنا بعد الاتّفاق مع المهرّب سيِّئ الذِّكْر، قبل توجُّهنا إلى أزمير مع احتفاظه بالجوازات.

تخلّيْنا نهائيّاً عن فكرة المحاولة معه مجدّداً، بعد أن رأيْنا منه مسلسل خيباتٍ وإخفاق، نجح السّمسار في الحصول منه على الجوازات، فيما المال حوّله المكتب إلى بسمانة مقابل عمولة مالية عبر وسيط سوري، وهكذا تخلّصْنا من الرداءة والنَّحْس المتواصل، ولم يبقَ أمامنا إلّا البحث عن مهرّب آخر، وطبعاً لا يوجد أفضل من عزيز السّودانيّ الذي نَصحَنا به مواطنه صلاح.

صباحاً، في الفندق، حجزتْ إلى جانبنا عائلات سورية، فزعٌ يصرخ من عيون الأطفال بثيابهم الرّثّة وملامحهم المثيرة للحزن .. ملائكةُ الله القادمون من الشّرق الأوسط الحافل بالخراب وصراع مجانين الرّبّ، هذا قَدَرها اللعين .. الطّفولة المعذّبة، المُستباحَة في فرحها، حياتها، حاضرها، مستقبلها، أطفال يمشون بتثاقل، بعضُهم ترك لعبته في فناء البيت، ويحنّ إلى محفظته، بعضهم ينقصه النوم وأحلام العيد، وآخر يسعل بشدّة، ويمسحُ أنفه بكُمّ قميصه، وبنتٌ جميلة في العاشرة من عمرها، يسكن عينَيْها رعبٌ، وترتعش يداها من الخوف والبرد، حدائق الشّام يابسة في شَفَتَيْها، نهر بردى يذرفُ دموعاً من عينَيْها السوداوَيْن الواسعَتَيْن، جيلُ الحروب والظّلم سيحاكمكَ، أيّها العالم في محكمة التّاريخ .. ماذا كان سيكتب الماغوط، ذلك الكئيب السّوداويّ، عن التغريبة السّوريّة؟

وصل إلينا شابٌّ جزائريٌّ، بوجهٍ شاحبٍ وثيابٍ شهباء، بسبب ملح البحر، كان يدخّن في رَدْهَة الفندق، ويتحدّث في الهاتف، ويشكو سوء الحظّ ونفاد ماله وقراره العودة إلى الجزائر بعد أن حاول كثيراً بلا فائدة، يسخرُ منه الوطن، ويستعدُّ لمنحه مزيداً من البؤس وإكرامه بطبق خيبة أكبر من الخيبة التي نالها في تركيا.

اتّصلْنا بالسّودانيّ من أجل أن يسحب لنا المال، لأن الجوازات لم تصلْ

بعد من اسطنبول، جاء رفقة رجل ستّينيٍّ سوريٍّ، يقيمُ في تركيا منذ عقود، بواسطة هويّته التّركيّة، سحب لنا المال من مكتب الوسيط السّوريّ. يقعُ المكتب في بناية شاهقة، أغلبها محجوز لتُجّار وسماسرة سوريّيْن، يتاجرون في كلّ شيء؛ عطور، معدّات إلكترونية، سيّارات، عقارات، إلخ. اتّجهْنا بعدها إلى مقهى مقابل مسجد بسمانة بعد أن دفعتُ للكهل السّوريّ 60 ليرة تركية نظير ما قام به، كان عزيز ببشرته السمراء وطول قامته المعتدل ولهجته السّودانيّة الجميلة، وديعاً جدّاً وهو يعرض خدماته، عرضَ مبلغاً معقولاً، وبعد مفاوضات قام بتخفيضه إلى 500 أورو، وهو مبلغٌ أقلّ من المبلغ الذي اتّفقْنا عليه مع مهرّبنا الأوّل الوغد، وغالباً ما يدفع السّوريّون وغيرهم ضعف المبلغ وأكثر .. عزيزٌ اقتنع بمعاناتنا ووضعِنا الحرج بعد مرور أكثر من شهر على وجودنا هنا، دفعتُ له المال مُسبَّقاً دون أن أضعَهُ في مكتبِ تأمين، كما نصحني بذلك، وجدتُ أنّه جديرٌ بالثّقة، وليس نصّاباً بتعبير السّوريّيْن.

في الفندق جاء مهرّبنا الأوّل، قابلناهُ برفضٍ قاطع رغم إغراءاتِه كلّها بدفع إيجار الفندق، بعدها اقتنع بأنّنا أفلتْنا منه، حتّى اللّورد لاحظ ذلك، وأدرك بأن أمرنا حُسِم لصالح مهرّب آخر، ومع هذا بقي بيننا وبين اللّورد محبّة وتقدير، يتجاوزان جشع المهرّبين وخسّتهم، ربّما باستثناء عزيز الذي بدا إنساناً صادقاً، لا يبعث على الريبة.

زارَنا شَيَّار، كان يبدو عليه الحزن بسبب وفاة جنين زوجة شقيقة يردين بسبب البرد الشّديد الذي ناله في ذلك اليوم الجليدي الذي تعطّلت فيه الحافلة، وبقيْنا في البرّيّة لساعات .. ما أبشع الحياة!

عاد يردين برفقة زوجته المفجوعة إلى اسطنبول بعد أن خاب أملُهُ في الوصول إلى اليونان، ونفاد ماله، فيما شَيَّار فضّل المحاولة مجدّداً مع زوجته، وكان قد اتّصل بمهرّب سوري، وطلب منّا المحاولة معه،

لأنّه لم يقتنع بالمحاولة مع عزيز، وتوقّع لنا إخفاقاً جديداً. ودّعتُهُ بعد أن تجوَّلْنا قليلاً في سوق بسمانة، وتمنّيتُ له حظّاً موفّقاً. هذا الكرديّ المرح بشخصيّته القويّة خلفه الرّكام، وأمامه حُلمٌ يهرب بالسّرعة التي ذهب فيها جنين زوجة يردين.

كان آخر غداء في أزمير التي أصبحت عقبةً أمام حُلمي، في مطعم صغيرٍ يقابل كاراج بسمانة، تملكه سيّدةٌ كرديّةٌ بارعةٌ في إعداد السّمك المشوي الذي تقدّمه مع بهارات وفلافل وحساءٍ لذيذ، وبأسعار منخفضة جدّاً، تدخّن وتحتسي شاياً، وببراءة الجدّات ترتدي نظّارة طبِّيَّة، وتتصفّح الفيسبوك من هاتفها الفاخر، شكرتُها على الوجبة اللذيذة "تشكراآآت ماما" بعد أن دفعتُ الحساب، تبتسمُ والصّفاء الكرديّ يصرخ من عينَيْها الخضراوَيْن الصّغيرتَيْن .. الأكراد شعبُ الله العاشق للحياة والفرح، البارع في البوح بالمآسي التّاريخيّة التي طالتْهُ من التّشرّد والقَمْع إلى مُصادرة الهويّة، عبر الغناء والمواويل بموسيقاهم المُوغِلَة في الحزن.

غير بعيد عن الفندق، كنّا نتردّد على محلٍّ لشرب قهوة سادة، يديره شابٌّ كرديٌّ، يتحدّث العربية بصعوبة، ويحفظ بعضاً من كلمات نابية للجزائريّيْن، ينطقها بمخارج، تبعث على الضّحك، عرض خدمتَه علينا مقابل سعرٍ زهيد، لكنّنا فضّلْنا عدم المغامرة.

وصل السّمسار، وبحوزته الجوازات في كيسٍ أسود صغير، دفعتُ له ثمن خدمته الجليلة، ولم يتوقّف صاحبُنا عن عرضِ خدماته، واكتفيتُ بشُكره .. هاتفَني عزيز، وطلب منّي الالتحاق به عند محلٍّ لبيع الهواتف وتصليحها، في سوق بسمانة الشّعبيّ، أخبرَنا بأنّنا سنُغادر إلى منزلٍ غير بعيد، وكان برفقته شابٌّ مصريٌّ تقريباً في العقد الرابع، أسمر يحمل حقيبة ظَهْر، ويدخّن كثيراً.

سوقُ بسمانة يشبه كثيراً أسواق الجزائريّيْن، مقاهٍ كثيرة، محلّات عتيقة، ومطاعمُ شواء وأطعمةٍ تقليدية، وفواكه معروضة على الرّصيف بأسعارٍ منخفضة .. مشيْنا خلف عزيز والشّابّ المصري، ثمّ خرجْنا من الطّريق السّريع إلى زقاقٍ شعبي، على يمينه ملاهٍ وكباريهات تظهرُ من زجاج، واجهاتها شقراواتٌ بثياب مثيرة، نهود بارزة، وسيقان بيضاء ناعمة ومكشوفة، ملامحهنّ توحي بأنّهنّ روسيات وأوكرانيات، يشتغلنَ كعاهرات وراقصات .. على الرّصيف ابتعْنا كمّيّة من السّجائر المهرّبة المَحشوّة داخل أكياس بلاستيكية صغيرة .. عزيز أمامنا يمشي بكلّ ثقة في النَّفْس غير آبه بأحد، ويتبادل حديثاً مع المصري، هذا الشّابّ السّودانيّ تتدفّق طيبته كنهر النيل، وعوده بالنجاح كانت تدفعني لتصديقه بكل حماس.

وصلْنا إلى بيتٍ عتيق، يقعُ على طرفِ طريقٍ عامٍّ في زاوية لا تلفتُ الانتباه، يتكوّن من مطبخ وحمّام وغرفَتَيْن ورَدْهَةٍ صغيرة، وبلا نوافذ باستثناء نافذة المطبخ، وجدْنا هناك شباباً من باكستان أو "البكْ بكْ" كم يشتهي الجزائريون تسميتهم، أحدهم يُتقِن العربية، رحّب بنا، وصافحَنا بابتسامة تكسر الحاجز بين الغرباء، شابٌّ من بيشاور خرّيج جامعة بملامح طفولية، وعينَيْن خضراوَيْن، وابتسامة لا تفارقُ حديثه، إلى جانبه كهلٌ ومراهقون، وشابٌّ آخر أنيق، كانوا يشاهدون فيلماً هندياً على هاتف، تمّ تثبيته في الجدار. في الغرفة الأخرى، شابٌّ كونغوليّ ضخم مع شابَّتَيْن وشابّ من الدومينيكان، يتبادلون النّكات بإنجليزية ركيكة مع مفردات إسبانية. خرج المصري لتناوُل الطعام، وبقيْنا هناك نعبثُ بالهواتف، ونحتسي شاياً، ونُدخّن.

في المساء، عاد المصري، كان مُتوجِّساً منّا نحن الجزائريّيْن، كان معنا شابٌّ سوريٌّ أشقر متردّد وخجول حتّى بادره المصري بالحديث ..

عبد الرحمان، طالب طبٍّ هرب إلى تركيا من حلب قبل سَنَتَيْن، بعد أن وصله استدعاء الخدمة العسكرية، والداه بقيا في حلب، وشقيقه يقيم في ألمانيا، كانت له تجربة في بحر إيجة، يرويها بحسرةٍ وألم، كانت فيها الضّفّة الأخرى على مَرمَى حجر (أقلّ من 300 متر)، لكن قائد القارب رفض الاستمرار خوفاً من البَحْرِيّة، وفضّل عبد الرحمان العودة من حيث أتى، لأنّه لا يُجيد السّباحة، وعند وصوله إلى الشّاطئ، وجد أفراد الجيش التّركيّ في انتظاره، أكرموه مع مرافِقِيْه، بالضّرب والإهانة، وأنقذتْهُ اللّغة التّركيّة التي يجيدها بعد أن حاول ضابط إدانته بتهمة التّهريب.

راح حازم المصري - بعد أن زالت رهبته منّا - يُحاضِر عن تقوى الله، وضرورة التّمسّك به، والإيمان بقدرته، ثمّ قام للصّلاة بعد أن أنهى سيجارته رفقة الباكستانيّيْن، ليُواصِل - بعد الانتهاء من الصلاة - حديثه عن مصر السّيسيّ، ذلك الزعيم كما يصفه الذي نجح في قَطْع دابر جماعة الإخوان، وأعاد الأمور لوضعها الطّبيعيّ إلى ما قبل ثورة 25 يناير التي يعدّها ابن المنصورة مؤامرة أمريكية صهيونية ضدّ مصر التي استغربتُ هروبه منها، ما دام يدافع عن نظامها الذي لم يُوفّر له حياة كريمة، تجنّبه أهوال الهجرة ومخاطرها، لم أناقشْهُ كثيراً، اكتفيتُ بالاستماع إليه، وتأمّله .. حازم أسمرٌ بعينَيْن بُنِّيَّتَيْن، أسفلهما ترهّلات، طويل تقريباً في عقده الرابع، عمل لسنوات بنَّاءً ودهّاناً في العراق الذي يترحّم كثيراً على زعيمه "القومي" صدّام، بالإضافة إلى سنوات أخرى في ليبيا، عجّلت الأحداث هناك بعودته إلى مصر، كما عاش لفترة في اليونان التي لم يتوقّف عن مدحها بقوله "أرض عيش وطيبة"، يحلم بالعودة إلى الجمهورية الهيلينية، ليعيل زوجته وأبناءه الثلاثة، حاول حازم أربع مرّات التّسلّل برّاً إلى التراب اليوناني، كلّها أخفقت، ليقرّر المحاولة بَحْراً.

في العاشرة ليلاً، اتّصل عزيز، وأخبرَنا بأن الجوّ مضطرب، لا يسمح بالمحاولة، وبعد إنهاء المكالمة معه، جاء المهرّب وهو شابٌّ عراقيٌّ كرديٌّ مهذّبٌ، هاجر والده إلى تركيا قبل عقود، يتحدّث العربية بلكنة، مزيجها من التّركيّة والكرديّة، كان وديعاً وكريماً مُلتزِماً، كما يظهر من خلال كلامه، التحق به شقيقه، شابٌّ عشرينيٌّ أسمر، يتحدّث العربية بصعوبة، يحمل معه طعاماً ومشروبات، ولدى مقابلة هذَيْن الشّقيقَيْن، اكتشفتُ وجهاً آخر للمهرّبين، كنتُ قد وجدتُهُ قبلهما في عزيز، كرمٌ وطيبة وإخلاص في العمل وتعاونٌ مع المهاجرين ومعاملتهم بلطف .. تحدّثْنا كثيراً ونحن نحتسي الشّاي والسّجائر عن أصول عائلته التي احترفتْ تاريخياً تهريب البشر والسّلاح من العراق إلى تركيا، ليرث عنهم هذه المهنة "قشقجي".

لن تكون هناك محاولة الليلة، كما أخبره شركاؤه الأتراك، غادر عبد الرحمن إلى فندق مجاور، الشباب الباكستاني ناموا في غرفة، ونحن الثلاثة والكونغولي والمصري في الغرفة الأخرى مع الدّومينيكانيّ الذي غادرت مواطنتاه إلى فندق آخر، تبادلْنا الحديث معه وكريستيان الكونغولي يُترجم له، كان amigo محاسباً في شركة بالعاصمة سانتو دومينغو، شابٌّ ثلاثينيٌّ طويل وخجول، يحلمُ بالوصول إلى إسبانيا ..

على ضِيْقها وقلّة الفراش، كانت الغرفة حُلماً شاسعاً يراقص قلوبنا، ودافئة بضحكات كريستيان البريئة، الذي حاول من مدينة أنطاليا جنوب تركيا الوصول إلى قبرص، استعرض لنا صوراً له هناك مع كهل تركي papo كما يُسمّيه، ولم يتوقّف عن مدح كرمه وإنسانيته.

استفقتُ قبل منتصف النّهار بعد سهر طويل مع الرفاق، خرجتُ إلى الشّارع لتناوُل الإفطار، واقتناء سجائر، وشحن رصيد الهاتف .. عند الظُّهر، أخبرَنا عزيز بأنّنا سنغادر إلى النقطة في الثامنة مساء، تحمّستُ

كثيراً، وانتظرتُ بفارغ الصبر قدوم المساء، في الخارج يقفُ المهرّب الكرديّ العراقي في زاوية يراقب الوضع. جلبْنا في وقت العصر جُبناً وخُبزاً سوريّاً ومشروبات، وأعددْنا وجبةً خفيفةً، تقاسمناها مع عبد الرحمن الحلبي وكريستيان وamigo، واعتذرتْ رفيقتاه عن مشاركتنا الطعام، وتحجّج هو بأنّهما غير اجتماعيَّتَيْن. ومرّ الوقت بين تدخين وشاي، من إعداد عبدو، ومراقبة الوضع من نافذة المطبخ.

عند السّادسة مساء توقّفتْ حافلة، نزلتْ منها عائلة سورية، يتقدّمها كهلٌ سوري، ملأ الشَّيب شَعْر رأسه، ترافقه زوجته البدينة، وولده الذي لم يتجاوز العشرين، وشقيقته التي تبدو أكبر منه، ومعها طفلة في العاشرة، وصبيّ في الخامسة من عمره حسب تخميناتي، ومعهم أيضاً شابٌّ سوريٌّ أشقر ثلاثينيّ، يُدعى "فهد" مع زوجته التّونسيّة الطّويلة السمراء التي تعرّف عليها في اسطنبول، وتزوّجها هناك قبل أشهر، بالإضافة إلى شابٍّ دمشقيٍّ، يُدعى "عمر" في العشرينيات من عمره، بوجه جميل، وبنية جسمانية لافتة، صَدَمَهُم الوضع داخل البيت، فظلّوا واقفين في الرَّدْهَة الصغيرة، حتّى تدخّل مُرافِقي، وأفرغ الغرفة التي كانت تتواجد بها "الخرمة" بتعبير الباكستاني "حرمة" ويقصد الدّومينيكانيّة ومُرافقتها.

بقيتُ في المطبخ أُراقب السّاعة، وأتردّد على المرحاض، لأتبوّل من فرط التّوتّر واستعجال المغادرة، سألَني عمر عن توقيت الرّحلة بعد أن طلب منّي ولّاعة، وأعقبه فهد بطلَب شاحن الهاتف، بابُ البيت كان مقفَلاً، ومُنِعْنا من الخروج. بقي فقط المصري، لا ندري أين كان، ثمّ طُرق الباب، كان شقيق المهرّب الذي طلب تفقُّد الأمتعة والاستعداد، ثمّ جاء حازم برفقة مصري آخر، بدا في الأربعينيات أيضاً بثياب رثّة، ووشاح فلسطيني، ووجهٍ يرتعد خوفاً. لم يتوقّف حازم عن الثّرثرة التي كانت أدعية وتساؤلات خارج السياق، فَقَدَ كريستيان نجّادتَهُ البَحْرِيّة، وقامت بينه وبين

باكستاني مناوشة، أنهاها المهرّب بعد أن وعده باقتناء أخرى له، كان منفعلاً جدّاً هذا الكونغولي الجموح.

بالنسبة إلينا نحن الثلاثة، استغنيْنا عن النّجّادات منذ المحاولة الأولى، كنوع من التّقشّف، اكتمل العدد، صرْنا 25 "نفراً" .. السابعة والنصف، القلبُ ينبض بشدّة، على غير عادته، ساد الصّمت بيننا، وبقي الباب مُقفَلاً، يتّكئ عليه شقيق المهرّب، رنّ هاتفه، تحدّث بالكرديّة، كريستيان يجلس على ركبَتَيْه، في زاوية الرَّدْهَة، ويردّد تعاويذ مسيحية، ويرفع يَدَيْه إلى مستوى صدره، ورأسه منحنٍ إلى أسفل، ليُنهي الصلاة بتقبيل صليبه الذّهبيّ مع علامة التثليث التي أدّاها بخفّة .. مكالمةٌ أخيرة مع عزيز قبل أن أُقفل الهاتف، سنغادر إلى الشاطئ بعد لحظات في اتّجاه نقطة قريبة، "الله يكون بعونكم" يقول عزيز وهو يُنهي المكالمة.

حزم الجميع أمتعتَهم، وجوهٌ مرتعشةٌ، وشفاهٌ تُتمتم، وهمسٌ خفيفٌ للأطفال، كسره توقّف شاحنةٍ عند مدخل البيت ..

الثامنة مساء، الجوّ خارجاً مُظلمٌ نسبيّاً، حركة الشارع خفيفة، دخل شقيق المهرّب، وطلب أن نخرج واحداً تلو الأخر تفادياً لجَلْب الانتباه، صعد مُرافِقيّ إلى جوار السّائق، فيما انكمشتُ أنا مع البقية في الخلف، شاحنة بضائع مغلقة اكتظّت بنا، جلس السّوريّ رفقة زوجته وأبنائه والتّونسيّة وزوجها، بقيتُ واقفاً مع البقية أتنفّس بصعوبة، وأتحرّك بصعوبة كذلك، مكيّفُ هواء الشاحنة يشتغلُ من حين لآخر لتبديد الاختناق.

انطلقنا، كانت الشاحنة تزحف من ثقل حمولتها التي تضمّ مشاريع مهاجرين تركوا خلفهم معاناةً وحروباً وذكرياتٍ وأوطاناً، لا تُنتِج إلّا المهازل والطُّغاة، الحديث كان قليلاً في الداخل، الشّابّة السّوريّة مُتّكئة على ذراع والدها، وتبتسم وهي متحمّسة، وتمازح شقيقها يوسف، المصري يتبادل

حديثاً مع فهد وعبد الرحمن وعمر الذين كانوا يُنصتون له، وفي المقابل ينظرون إليّ، شعرتُ أنّه يُحذّرهم منّا نحن الجزائريّيْن الثلاثة، وفجأة التفتُّ، ليجدني مركّزاً عينَيّ فيه، صمت بُرْهَة، وقال "كيفك أخوي؟"، تثاقلتُ في الرّدّ عليه، وتجاهلتُهُ، اكتظاظ داخل الشاحنة التي كانت تسير بسرعة، وأحياناً تنخفض سرعتها، ويحدثُ ارتطام وتدافُع بين الواقفين، تطوّر إلى مشادّة كلامية بين كريستيان وشابٍّ باكستاني، تدخّلتُ لوَقْفها.

لم نكن ندري إلى أين نتّجه، كنّا نعيش عزلةً تامّة عن العالم الخارجي، تُسرعُ الحافلة، ثمّ تتمهّل، ثمّ تُسرع مجدّداً، رغبتُ في تدخين سيجارة، مللتُ من النظر إلى وجوه الرّكّاب التي تحمل مأساتي نفسها، لا جديد يأتي من تلك الملامح، بمختلف ألوانها وقسماتها، توجّسٌ، انتظارُ، هلعٌ أيضاً، وطيفُ أمل، ارتعاشٌ، كيف يبدو البحر الآن؟ أتراه يشحذ سكاكينه؟ أم أنّه هادئ؟ صار لديّ رُهَاب من البحر، زال ذلك الوَلَع الكبير بعَظَمَتِه، وعزف أمواجه وإلهامه، ولم يعد مثيراً للاهتمام كما السابق، بات في نظري مفترساً لا يرحم، له وجه دمويٌّ، يكتشفه فقط "الحراقة".

انخفضتْ سرعة الشاحنة، ومن خلال اهتزازها المتواصل، تبيّن أنّنا نسير في مسلك خارج الطّريق السّريع، توقّفْنا والقلب يخفق بشدّة على غير عادته، ونزلْنا وسط مزرعة، تطلّ على البحر محاطة بأشجار الزيتون، الوقتُ يقترب من العاشرة ليلاً، طلب السائق أن ننزل بهدوء، وندخل إلى بيتٍ مهجور بلا إنارة، يشبه "الحوش" مع التزام الصّمت وتجنُّب استعمال الهواتف أو التّدخين، لأنّنا لم نكن بعيدين عن الطّريق السّريع، تقدّم منه عبد الرحمن بحُكْم تحكُّمه باللّغة التّركيّة، وفهم منه أن الطّريق المؤدّي إلى الشاطئ مُراقَب، كما أنّه هناك دوريات للبَحْرِيّة، كان السّائق بلباسه الرّياضيّ، ووجهه الأسمر العريض مرعوباً جدّاً، يداه ترتعشان، ويتحدّث بصوت منخفض، بقيْنا في تلك الغرفة المظلمة، ننتظر لحظة التّوجّه إلى

الشاطئ، تسلّلتُ خارجاً، لأُدخِّن خلف الإسطبلات، كما تبدو من خلال هندستها وعمرانها العتيق. استغرقْنا هناك ساعة من الزمن تقريباً، صمتٌ وترقُّبٌ وأبخرةُ سجائر، تشقّ رهبة المكان، وكلاب تنبح بشدّة في الجوار، وثرثرة لا تنتهي من عبدو والمصري، اتّصل مُرافقي بعزيز السّودانيّ، وأكّد له أن بقاءَنا سببه وجود دورية درك في الطريق المؤدّي إلى الشاطئ ستغادر بعد لحظات، وأن كلّ شيء مُرتَّب، ولن يكون هناك ما يبعث على القلق.

ابتعدتُ قليلاً عن الجميع خلف الإسطبل، وكنتُ أُنصِتُ لهدير البحر الخافت متجاهلاً وضعَنا، كان يبدو وديعاً من مكان مرتفع، وأشعّة القمر تنعكس على سطحه، ورقص موجه الفتي البديع يشبهُ دلافين، ترتدي البياض، وهي ثملة، تتقلّب على ظَهْرها، وتبتسم، مشهدٌ شاعريٌّ حقّاً، يستنفر حواسّ الشّعراء، لكنّه مخادع بالنسبة إليّ على الأقلّ، كَوني اكتشفتُ تقلُّبه ومراوغاته.

جاء السّائق بعد أن غاب عنّا ونحن لا ندري إلى أين نتّجه، اختفى توتّره نسبياً، طلب من مرافقيْ أن يعيره هاتفه، ليتواصل مع الكشّاف والمهرّب بعد نفاد رصيده، وبعد مكالمة خاطفة، أَمرَنا بالصّعود إلى الشاحنة. سرْنا لفترة وجيزة حتّى دخلْنا الطّريق السّريع، ضاعف السّرعة بشكل لافت، ثمّ أَخْفَضَهَا، وبدا لي أنّها تصعد جبلاً مع مسالك متعرّجة مصحوبة باهتزاز شديد. استمرّ الأمر كذلك، إلى أن توقّفْنا، وفتح السّائقُ البابَ، وطلب أن ننزل بصمت، كان المكان عبارة عن منتجعٍ فاخر مُسيّج، ويضمّ بناياتٍ أنيقةً، تبدو مهجورة، أرضيّتُه نظيفة جدّاً، وأعمدة إنارة تلامس خَدَّ البحر الذي كان بريئاً جدّاً. وجدْنا هناك كهلاً ممتلئاً قليلاً أشيبَ، وشَعْره قصير، وجهه أبيض مستدير، وعيناه بارزتان، يرتدي معطفاً جِلْدِيّاً أسود، وسروال جينزٍ أزرقَ، كان مرتبكاً جدّاً وهو يطلبُ أن نسير بسرعة، ونتفادى الضجيج،

غادر السّائق بعد انتهاء مهمّته، كنتُ الأخير في طابور المتّجهين إلى البحر، سمحتُ لنفسي بالتّمتّع بالمنظر الخرافي، ولو للحظات، أشجار أنيقة تتمايل، وإنارةٌ ملوّنة، وصمتٌ يُغري بالسّباحة إلى المجهول، ربّما يزداد جمال الأماكن التي نعبرها صدفة فقط حين ندرك أنّنا لن نمكث فيها إلّا من خلال تلك الدّقائق التي نكتشفها خلسة وبلا ترتيب، شعرتُ بالأُنس ومتعة البقاء واشتهاء النّبيذ والتفرّغ للتّأمّل في ذلك المكان، حيث تفتح الأرض رجلَيْها للبحر ..

قَطَعَ الكشّاف لحظاتِ أُنسي، وطلب منّي الإسراع واللّحاق بالبقية، كانوا متتابعين واحداً خلف الآخر، الكهل السّوريّ رفقة عائلته وبقية السّوريّيْن، خلفهم الباكستانيون، ثمّ المصريون والدّومينيكانيّ وبنتا بلده وكريستيان، بالإضافة إلى رفيقَي، وددتُ لو أسحب هاتفي الخردة، وألتقط صورةً لهذا المشهد الخرافي، رملُ الشاطئ ناعم، وعلى يميني بحر إيجة هادئ، وأمامي أضواءٌ مزدحمة، تنعكس على وجه تلك الفتاة السّوريّة البريئة، وشقيقها يوسف الذي كان نصف مستيقظ.

كان ينتظرنا على الشاطئ مركب jet boat سريع، اعتقدتُ للوهلة الأولى أنه بلم، صعد الجميع، وبقيْنا نحن الثلاثة، تغوص أقدامنا في البحر، ماؤه دافئ نسبياً، لم نجد مكاناً نجلس فيه بعد أن تدافع رفاق الرحلة على المركب، وتكدّسوا فيه دون أن يتركوا مكاناً لنا.

بوّابةُ العذراء

"أيّها السّوريّون الهلاكيون، السّوريّون المرتجفون على السواحل، السّوريّون الهائمون في كلّ أرض، لا تملؤوا جيوبكم بتراب ميت. اهجروا الأرضَ تلك، ولا تمُوتُوا. مُوتُوا في المجاز، ولا تمُوتُوا في الحقيقة".

قارب إلى ليسبوس/ نوري الجرّاح

حاول السّائق التّركيّ الشّابّ العشرينيّ الأنيق تشغيل المحرّك، لكنْ، بلا فائدة، فالحمولة ثقيلة، وقد لامستْ مروحتُهُ رملَ البحر، حاولْنا سَحْبَ المركب، وتعديلَ وضعِه حتّى يتحرّر المحرّك من الرّمل، لم ينجح الأمر، ما جعل الكشّاف يضطرب أكثر، ويفقد توازنه، ثمّ بدأ في البكاء أو تظاهر بذلك، وراح يردّد كلمات، فهمتُ منها ضرورة التّحرّك بسرعة قبل أن ينتبهَ لنا الأمن، وقفز حيث كان يجلس الباكستانيون، وحاول إنزالهم عنوة لمساعدتنا، لكنّهم رفضوا، ولم يستجيبوا له، والرفض ذاته لاقاه من قبَل المصريّيْن وكريستيان، وعندما طلب من علي السّوريّ أن ينزل للمساعدة، بدأ هذا الأخير بالصراخ عليه، وهو يقول "ما بعرف أسبح أنا صغير"، في حين والدته لم تتوقّف عن سَحْبه إليها.

نجحنا نحن الثلاثة رفقة الكشّاف في دفع المركب إلى الأمام حتّى تحرّر

المحرّك، وبدأ في العمل، فقفزْنا بين الرّكّاب، وددتُ أن أُلقي بهؤلاء الذُّكُور الجبناء في البحر، بسبب تخاذُلهم وأنانيّتهم بالتّمسّك بأماكنهم في المركب، على حساب مساعدتنا، بشكل استفزّنا كثيراً، ورغم أن مصيرنا واحد.

انطلقَ المركب بسرعة كبيرة، ساعده في ذلك هدوء البحر، كان يُشبهُ أرضيةً مَرمريّة في قصرٍ فرنسيٍّ باذخ، يعود لحقبٍ قديمة، تبلّلتُ قليلاً، لكنّني شعرتُ أنّنا سننجحُ هذه المرّة، الدقائق التي صاحبت الإقلاع كانت يسيرة، جلستُ بصعوبةٍ إلى جانب السّيّدة السّوريّة، كانت تبكي وتُعاتب زوجها على "البهدلة"، وتوسّلني بأدب أن أُخفِّف عنها.

يقفزُ المركب لأمتار عديدة، يتطاير الماء على وجوهنا عند كلّ تعرّج أو قفزة جنونية من السّائق المحترف، معظم الوجوه مُنحنيةٌ، والمصري حازم كعادته، وَفيٌّ لثرثرته التي طالت هذه المرّة رفيقي الذي صرخ في وجهه بشدّة، ليصمتَ نهائياً. كانت الأجواء مُنعِشَة، قمرٌ مُكتمِلٌ ليلة الفاتح من مارس، وبحرٌ هادئٌ خاضع لرغبتنا في العبور، وأملٌ كبير في الوصول، تحرّكتُ كثيراً مُحاوِلاً الجلوس بشكل مريح، لكنّني لم أجد الوضعية المناسبة، بسبب الضِّيق، فأشعر بالحرج، وأضطرّ للاعتذار خاصّة من التّونسيّة، "زي أختك، لا تعتذرْ، عادي، يا بني"، يقول أبو علي.

يتواصل مسيرنا، جبالٌ تظهر، وأخرى تختفي، الثّابت الوحيد انضباط البحر، وجنون المركب الذي كان سريعاً جدّاً .. تقاسمتُ سيجارةً مع رفيقي، وظهر جبل من بعيد، وكان يزداد ضخامة وارتفاعاً كلّما اقترنْنا، انخفضتْ سرعة المركب قليلاً، توقّفَ بالقرب من الجبل، أسفله تظهر كوّة صغيرة، بإنارة خافتة، وسطها منحوتةٌ بيضاء لمريم العذراء منهمكةٌ وخجولة، تأمّلتُ المشهد الفريد قليلاً، وأدركتُ بأنّنا في اليونان أخيراً، غيمة فرحٍ أمطرت على قلبي، ونشوة انتصار كبيرةٍ غمرتْني، أدار السّائق مركبه غير بعيد

عن المنحدر الجبلي، وطلب منّا أن نقفز في أسرع وقتٍ ممكن، ومن شدّة الفرح، قفز عليّ في البحر، وصاحت والدته "لوين رايح، ارجعْ، يا بني"، فكّرتُ أيضاً في القفز أنا ورفيقاي، كانت السّاعة تشير إلى حوالي الحادية عشر ليلاً، اضطرابٌ داخل المركب، وبلبلةٌ بين الرّكّاب، الكلّ يرغبُ في أن يكون أوّل مَنْ يلامس خَدَّ جزيرة "ساموس" التي كانت تُرحّبُ بالوافدين الجُدُد، شعرتُ أنّني في مكان أبحثُ عنه منذ مدّة طويلة. وكان المصري حازم وزميله وبقية الباكستانيّيْن أوّل مَنْ قفزوا متجاهلين الأطفال والنساء، لم أكن لأتعجّب من تصرّفهم بعد رفضهم المساعدة منذ البداية، لكن رفيقي نهرهم بشدّة، وطلب من السّائق أن يتقدّم قليلاً من المنحدر حتّى يسهل نزول عائلة أبو علي والتّونسيّة والشّابّة الدّومينيكانيّة ومواطنتها، قفزتُ في البحر، وبدأتُ في سَحْبِ المركب من مقدّمته ورفيقي يدفعُه من الوراء حتّى أوشك على ملامسة الصخور الحادّة، تقدّمَ أبو علي، وسار خلفي باحثاً عن مسلكٍ، فواجهة الجبل كانت عبارة عن طبقةٍ صخريةٍ بممرٍّ ضيّقٍ، يؤدّي إلى الأعلى، وأيّ خطأ يتسبّب في جروحٍ مميتةٍ أو الوقوع في البحر، سلّمني مرافقي الصّبيّ يوسف الذي كان مصدوماً بعد أن أيقظَتْهُ والدته، وبدوري سلّمتُهُ إلى والده، ثمّ لحقتْ به أُمُّهُ، وساعدتُها على الخروج من المركب، حتّى وضعتْ قَدَمَيْها على الصخر، وعبرت إلى المسلك الضَّيِّق، حيث يتواجد زوجها ويوسف، مرافقي الآخر تكفّل بالصّبيّة ابنة أبو علي، ليأتي دور التّونسيّة، ثمّ زوجها والبقية. استدار قائد المركب بخفّة، وأقلع مسرعاً، ليكسر هدوء البحر بعد أن انتهت مهمّتُهُ بنجاحٍ كبير.

صعدْنا إلى الأعلى بصَعوبة، كنتُ أحمل يوسف مجدّداً، ووالده يُعين زوجته على المشي، تلك السّيّدة الطّيّبة بملامح الأمومة لم تتوقّف عن الدعاء لي "ربّنا يوفقك ويسترك"، كانت تمشي بصعوبة، بسبب حملها ومرض السّكّريّ. وصلْنا إلى القمّة، كان المنظرُ ساحراً جدّاً، بحر إيجة

أسفلي يشعرُ بالانكسار أو ربّما بالسعادة لأجلنا، لم أرغبْ في معرفة شعوره، كلّ ما في الأمر أنّني هزمتُهُ هذه المرّة .. أزمير بعيدةٌ، هذه المدينة الغريبة الغامضة العريقة دخلتُها ليلاً، وخرجتُها ليلاً، ورغم كل شيء لا يزال بعضٌ منها بداخلي، تسكُنني المُدُن، ولا أسكنها ..

وداعاً، تركيا.

وداعاً، أزمير.

وداعاً، أيّها الفندقُ الدافئ.

شكراً، عزيز السّودانيّ ..

أشعلتُ سيجارةَ النصر، وفتحتُ هاتفي للاتّصال بعزيز، لنُخبره بوصولنا؛

- أهلاً خليل.

- مرحبا، حبيبي، قبل شوي وصلنا، والظّاهر أننا في ساموس.

- نعم. هي بالضّبط، الحمد لله على سلامتكم، وربّي يوفّقكم.

- تسلم، عزيزي، ربّنا يخلّيك، مرافقي نسي هاتفه عند سائق الحافلة، لا تنسَ تأخذه من عنده، وتحتفظ به لديكَ، عُدَّهُ هدية منّا على كرمِكَ وصِدقِكَ.

- تأمر حبيبي، الله معك، ربّنا يكرمك، لا تنسوا تتّصلوا بي، وتخبروني بكل جديد، وابقوا مع بعض.

- شكراً.

- مع السلامة.

بعد إنهاء المكالمة مع عزيز، دنوتُ من شابٍّ باكستانيٍّ، كان يبحثُ في تطبيق Google maps عن موقعنا، لمحتُ اسم "ساموس"، وتسرّب إلى أعماقي فرحٌ عارم، لم أشعرْ به منذ عقود، وأشعلتُ سيجارة أخرى احتفالاً بالجلوس على ظَهْر هذه الجزيرة العظيمة متأمّلاً بحر إيجة وأزمير. "بصحّتنا" يقول مرافقي، "وين الطريق؟" أردّ عليه، "نحن في نقطة بعيدة عن مركز الجزيرة، في جنوبها تحديداً، يعني متعلّقين في مؤخّرتها" يقول مازحاً "مؤخّرة ساموس وطني، هي أعظم وأهمّ من "الزيڤو " الذي هربتُ منه"، يبتسم مرافقي، ويطلب أن نتوكّل على الله.

بدأ الباكستانيون في المشي، ودليلهم خرائط غوغل، فيما السّوريّون كانوا رفقة كريستيان الكونغولي وأميغو ومواطنتَيْه، ظلّوا هناك جالسين في انتظار مرور سفن إنقاذ تابعةٍ للوكالة الأوروبية لمراقبة وحماية الحدود frontex لتقلّهم إلى مدينة "ساموس"، تقدّمتُ من أبو علي وعائلته، وتمنّيتُ لهم حظّاً موفّقاً، قام من مكانه، وبيدِه سيجارة، وقال:"والله حرام، ابقوا معنا، نشعل نار، وناكل حلويات حتّى يطلع الصبح وندبّر حالنا"، "مشكور جدّاً، يا عمّ، ضروري نغادر، أنتَ مع عائلتكَ أقلّ تقدير تأتي سفن الفورنتاكس تنقلكم إلى مركز المدينة البعيد من هنا كما يبدو، أمّا نحن، سنواصل المشي حتّى نصل، لا نريد أن نصادف الشرطة، وسنُقدّم أنفسنا كسُوريّيْن حتّى نحصل على تسهيلات"، "طيّب، ربّنا يوفقكو". ودّعتُ أبو علي، ووعدني بأنّه سيكون لنا لقاءٌ هناك.

أبو علي خمسينيٌّ من مدينة القامشلي شمال شرق سورية على الحدود مع تركيا، أخبرني أنّه عملَ كمستخدم مَدَنيّ في المخابرات السّوريّة لأكثر من عشرين سنة، شَعْره الناعم طاله الشَّيب، ملامحه السمراء مُتعَبةٌ، يكسرها بابتسامة لا تفارقه، هرب مع عائلته من سورية قبل سَنَتَيْن، دفع

مالاً لمهرّبٍ، أوصَلَهُ ليلاً إلى منطقة حدودية مع تركيا "إعزاز"، يقول أبو علي إن المهرّب يتعامل مع الجيش السّوريّ الحُرّ المشرف على معظم المعابر الحدودية بين سورية وتركيا، وفرّ بعد أن تركهم وسط غابة دون أن يُوصِلَهم إلى النقطة المتّفق عليها، بقي وحده هناك يصارع الخوف والليل والكلاب، وبصعوبة شديدة، نجح في التّسلّل من السياج الحدودي الذي ترك خرائط دامية، لا تزال تُطرّز ظَهْره وسط بكاء الأطفال والزوجة ورعبهم، وبعد الابتعاد عن النقطة الحدودية، نجا من دورية حَرَس الحدود الأتراك الذين يُطلقون الرصاص الحَيّ على كل مُتسلّل مهما كانت طبيعته وظروفه، وصل إلى بيت ريفي، بعد الطَّرْق على الباب، خرجت له سيّدة، كانت قد فرغت لتوّها من صلاة الفجر، ومن محاسن الصدف أنها سورية متزوّجة بتركي، أكرمَتْهم جدّاً، وتأثّرت لمعاناتهم، غادر بعدها ابن القامشلي مع أسرته إلى اسطنبول التي مكث فيها حوالي سَنَتَيْن، تعرّض خلالها لتهديدات عديدة من "شَبِّيح" يُدعى "أبو بشّار"، آخرها كانت وعيداً بخطف ابنته، ولا يزال يحتفظ في هاتفه بنصّ رسالة التهديد، فجاء قرار مغادرة تركيا نهائياً حفاظاً على أمن عائلته. لا يتوقّفُ عن ذِكْر مدينته، الجيران، سيّاراته، منزِله الفخم، وعيشه الرغيد هناك قبل مجيء الخراب، قضى سَنَتَيْن في السّجن بتهمة التحريض ضدّ النظام، لديه ابن آخر يقيم في بريطانيا، وشقيقة في ألمانيا.

نحن الآن جنوب جزيرة "ساموس" التي لا تبعد كثيراً عن تركيا، استغرقْنا 12 دقيقة للوصول إليها، هي جزيرة من مجموع الجزر العديدة التي تتكوّن منها الجمهورية اليونانية، موطن عالم الرّياضيّات الشهير "فيثاغورس"، وأيضاً مسقط رأس الفلكي المشهور "أرسطارخوس" الذي تحمل اسمه، تمتدّ على مساحة تصل إلى حوالي 500 كم، وبطول 27 كم مع عرض يبلغ 8 كم، وتعدادها السّكّانيّ يتجاوز 35 ألف نسمة، خضعت لاحتلال بيزنطي، وآخر تركي، كان الأطول، استغرق حوالي ثلاثة قرون، وانتهى سنة 1832.

تبلّلتْ ثيابي بعد القفز في البحر، جواز السفر غمرتْهُ المياه، واخترقَهُ الملح، أصبح مثل الخرقة المثقوبة بلا ملامح، واختفت بعض صفحاته، وتفادياً لأيِّ شبهة، قد تصادفني مع الأمن اليوناني عندما أُخبرهم بأنّني سوري، مزّقتُ ما تبقّى من الجواز، ورميتُهُ في البحر، ليحتفل بتحرّري من وَهْم الانتماء الورقي لوطني المسكين، شعرتُ بنحيبه لعبوري إلى الضّفّة الأخرى، وتساءلتُ أتراه مسروراً لأجلي؟ أم يعدّني مجرّد رَقْم لا أكثر غير جدير بهذا الاهتمام كله؟

بعد التّحرّر من الوثيقة التي تربطني بالوطن، أخذتُ نَفَساً عميقاً، وتأمّلتُ سطح الجزيرة. تخيّلتُ "ساموس" شقراء هيلينة ناعمة مستلقيةً على جنبها الأيمن، وتتهيّأ للنوم، ونحن نتسلّقُها ونمشي على جغرافيا جسدها حتّى نبلغ لون عينَيْها اللامعَتَيْن، منحدراتٌ جبلية قاسية بأعشابٍ شوكيةٍ وأشجار قصيرة وأرضية بصخور صلبة مغطّاة بفطرياتٍ وحشائش مبتلّة ولزجة. لم نَخَفْ، ولم نشعر بالرَّهْبَة، تقدّمَ مرافقي، واستعان بإنارة الهاتف، ولم يُنصِت لنصائح حازم المصري الذي رضخ في النهاية، وتبعنا، كانت المسالك ضيِّقةً جدّاً، والمنحدرات تتضاعف، ويزداد طولها، لا مَعْلَم واضح يلوحُ في الأفق، ارتفاع ثمّ انخفاض، البحر يظهر لنا على اليمين، كنّا نمشي وعلى الأرض صادفتْنا بقايا ملابس، سراويل، أقمصة، لعبة أطفال من القماش، حذاء امرأة، قارورات مياه ... بعدها وجدْنا مسلكاً، به شارات من القماش الأبيض مُثبّتةٌ على الأغصان، وضعها مَنْ مرّوا قبلنا، لتسهيل عبور مَنْ يأتي بعدهم، جحافلُ بشريةٌ رهيبةٌ مرّتْ من هنا، أزعجتْ سباتَ هذا الجبل الذي تحدّى أعماق بحر إيجة، واختار البقاء شامخاً ومُعانِقاً دفء الشمس، وتدوين أنين الإنسانية المعذّبة.

استمرّينا في المشي، كانت الواحدة صباحاً، وكلّما ارتفعْنا فوق سطح الجزيرة اشتدّت الريح، وخفّ هدير البحر، تلبّدَ وجه السماء مُعلِنةً المطر،

كنتُ أمشي، وألتفتُ ورائي، وأفكّرُ في مصير أبو علي وعائلته، ربّما كان من الأفضل لو بقيتُ معهم، اقترح رفيقي العودة إلى حيث تركناهم، رفض البقية العودة، حازم - طبعاً - أصرّ على مواصلة المسير مع مرافقه والباكستانيّيْن. ابتعدتُ عنهم قليلاً، لأستقصي وضع السّوريّيْن، لا يظهر شيء، اقتربتُ أكثر، فلمحتُ ضوءاً قوياً، ينعكس على المكان الذي توقّفَ فيه المركب، كانت ناقلةً بَحْرِيّةً، تستطلع المكان، وانتبه طاقمها لوجود مهاجرين هناك، وأغلب الظّنّ أنّهم سيتكفّلون بنقلهم إلى مخيّم اللجوء في "ساموس". في تلك الأثناء، سبقنا حازم ومَنْ معه، لكنْ، بعد أقلّ من ربع ساعة أدركناهم، كانوا بصدد جَمْعِ الحطب لإشعال النار وتجفيف ثيابهم، نار كثيفةٌ دفعت حازم لتغيير ثيابه، واكتفى أهل الباكستان بالتقاط الصور، وتخليد اللحظة الدافئة. أطفَأْنا النارَ حتّى لا تعبثَ بها الريح، وتحدث كارثة، ثمّ واصلْنا المسير، بلغْنا المنحدر الذي كان يزداد علوّاً، جلسْنا لفترة، دخَّنَّا، ثمّ واصلْنا المشي، سمعْنا صفيراً يأتي من بعيد، أشعلْنا أنوارَ الهاتف حتّى نحدِّد مَنْ كان يُصفّر لنا، لم يكن سوى كريستيان الكونغولي وأميغو الدّومينيكانيّ، عرفناهما من صوتَيْهما، كنتُ قد اعتقدتُ أنهم غادروا مع السّوريّيْن، كانوا بعيدين جدّاً علينا، وسَيْرهم بطيء.

كلّما توقّفنا للاستراحة، يتسرّبُ النعاس الذي أغراه دفء النار، مشيْنا حوالي عشرة كيلومترات، وبقي من المسافة نصفها تقريباً حسبما أوضحه لي الشّابّ الباكستاني. توقّفْنا مجدّداً أمام إسطبل مهجور ومهترئ بلا سقف، جدرانه قِطَعٌ من الصخر الأبيض، وُضعَتْ فوق بعضها البعض، مَنْ تراه وصل إلى هنا؟ أهو مَعلَمٌ أثريٌّ غاب عن أنظار عشّاق الآثار القديمة؟ تساءل سالم مرافق حازم "هي الحجارة جابها هنا مين؟ ".

ظهر ضوءٌ بعيد، اتّجهْنا صوبه، أحراشٌ وصخور وحشية وأشجار كثيفة،

لم يبقَ لنا الكثير حتّى نصله، الضوء الذي كان يظهر من بعيد اقترب كثيراً، منحدرٌ آخر انتهى بنا إلى غابةٍ كثيفةٍ بأشجارٍ شاهقةٍ، تتوسّطها ساحة، توجد خلفها سارية عَلَم، جلسْنا لفترة، نال منّي العطش. تقاسمتُ رشفات ماء مع باكستاني. الساعة الواحدة صباحاً مرّة أخرى، حبّاتُ مطرٍ تسقط مع ليلٍ داكن، "يلاّ، يا رجّالة" قال حازم، بعد الخروج من الغابة، وجدْنا طريقاً مُحاطاً بأشجارٍ قصيرة، تبعْناه إلى أن انتهى عند بوّابة كبيرة، كانت ثكنةً عسكرية، من حسن حظّنا أن أفرادها لم ينتبهوا لنا، عُدْنا من الطريق المتعرّج ذاته، نالت حقيبة سالم الثقيلة منه، حملها بين صدره، وضعها على كتفه الأيمن، ثمّ الأيسر، وتارة بين أكتافه، لم يُخفِ تعبه، كان يتناوب عليها مع حازم، اتّضح الطريق جيّداً. بدأت تظهر أنوار بعيدة نسبياً، تلمع على سطح البحر. غير بعيدٍ تظهر أزمير، فاتنةً كعادتها هذه المدلَّلة، وكأنّها تراقبني بقلبها أو تريد أن تطمئنّ عليّ، أصبحتْ ورائي الآن، مجرّد ذكرى لذيذة تستقرّ في الذاكرة.

اشتدّ المطر، بقيْنا نسيرُ على طرف الطريق، حيث الأشجار تفرشُ أغصانها الكثيفة حتّى لا نتبلَّل، طريقٌ جبليٌّ، أسفله هاوية مخيفة، صادفْنا لافتة، حروفها باليونانية، اجتهد حازم في قراءتها "هي المدينة لسه بعيدة، يا رجال"، "أوك، نجلس قليلاً، ربّما يتوقّف المطر" قال مرافقي. كانت كنيسة تظهر لنا من الأسفل، تصميمها جميلٌ، ولونها الخارجيّ أبيضُ ناصع، ضوء يلمعُ في بابها البُنّيِّ مع ساحة واسعة ونظيفة، بدأتُ أشعر بالتعب، مضى على مسيرنا أكثر من أربع ساعات، عطشٌ وإرهاقٌ ونُعاس، الطريق مُبهَم، متابعتُهُ قد تنتهي إلى البحر غير البعيدِ عنّا، كنتُ أراه من أعلى وهو يترنّح بموجه الطُّفُوليّ، أخذْنا مسلكاً آخر بعيداً عن الطريق وسط الغابة، كان مُوحِلاً، وغير مُزفّت.

اقترَبْنا من منطقة سكّانيّة، استقبلتْنا بصياحِ الديوك، وبدأت "ساموس" الغارقة في نومها تظهر لنا، وبدأ الطّريق في وضوح أكثر من أيّ وقت، لم يتوقّف المطر، وتضاعف عطشي، نشبتْ مشادّة كلامية بين حازم وسالم بسبب الحقيبة التي أنهكت هذا الأخير. "عايز منّي إيه، يا ولا" قال حازم، وردّ عليه سالم "استنّى نريّح شوي"، "طلباتك أوامر، يا باشا" قال حازم متأفّفاً. ثنائيٌّ أربعينيٌّ هاربٌ من الفقر والبطالة، أشفقتُ على سالم، وحملتُ عنه حقيبته، ما أثقلَ مصر بين أكتافي! حزنٌ وخوفٌ. تخلَّصتُ قبل فترة من حقيبتي المزعجة، بسبب هذه المواقف، لا أحتاج أغراض تُرافِقني، كل ما أريده سلامٌ لخرابِ قلبي المنهَك وحقيبة فرح وأملٍ وجنون ترافق رحلتي.

"هو المشوار خلص، يا جماعة" قال حازم الذي سبقَنا رفقة سالم، وكان ظاهراً أنهما يفكّران في الابتعاد عنّا، وتماماً كما توقّع مرافقي، لم يهمّني أمرهما، في النهاية، نحن خرجْنا من الجزائر غير معتمدين على أحد، وأكملتُ المشي وأنا أبحث على ضفَّتَي الطّريق عن قارورات مياه، نال العطش منّي تماماً، ونفدت السجائر، آخر واحدة دخَّنتُها مع حازم.

كانت الخامسة صباحاً تقريباً، ملامح "ساموس" بدأت تتجلّى كثيراً، فيلّات جميلة على يمين الطّريق ويساره، مغطّاةٌ بالقرميد الأحمر، طلاؤها أبيضُ، ونوافذها باللون الأزرق، تحيط بها قوارب وسيّارات ودرَّاجات نارية. بساطٌ أخضر يقابلُنا، نظيفٌ ومتناسقٌ، وعند خيوط الفجر الأولى، واصلت السماء نَثْر حبّاتِ مطرٍ تنهمر كسنفونية عذبة، كنّا في الخلف، سبقَنا الباكستانيون وحازم وسالم، من حين لآخر تمرّ سيّارات، بمجرّد أن تصل عندنا تنخفض سرعتها قليلاً، ربمّا كوننا جماعة كبيرة في ذلك الوقت المتأخّر، أثار حفيظة المارّة، لم يتوقّف أحد من أصحاب السّيّارات،

ولم يتحدّث إلينا أحد، كانوا يواصلون طريقهم، لأنّهم اعتادوا على هبوط مهاجرين من الجبل، في طريقهم إلى المدينة، تقدّم سالم من سيّارة مركونةٍ قرب أحد المنازل، وطلب من حازم أن ينطلق بها، لم يردّ عليه حازم، ثمّ غادرا في طريق جانبيٍّ عكس طريقنا، لم نرافقْهما، وتوقَّفْنا قليلاً، بعدها واصلْنا المشي، الباكستانيون اختاروا الاستراحة في قبوٍ جنب الطّريق بعد أن نال منهم التعب.

وصلْنا عند مفترق طُرُق، لافتتُهُ تُوضح اتّجاهات الطريق (ميناء، مستشفى، مركز المدينة)، بعد استراحةٍ قصيرة، أكملْنا المشي، هناك طريق يؤدّي إلى مخيّم اللّاجئين غير بعيد عنّا، لم ننتبه له، على يميننا مقبرة، الورد يحيط بها من كل ناحية، قبورٌ بيضاء، وصناديق زجاجيةٌ تلمع، وداخلها صلبان، وغير بعيد عن المقبرة هناك كنيسة، أسفلها مقرّ حماية مدنية. المدينة نائمة تماماً، كل شيء مغلَق، بسبب عطلة نهاية الأسبوع، حيث تظهر ساموس بكل فتنتها.

تضاعف المطر، والحركة شبه منعدمة، عثرْنا على محلٍّ صغير، صاحبُهُ شيخ في السبعين من عمره، متجهّم، ردّ على تحيّتنا بنوعٍ من التجاهل، اقتنيْنا من عنده علبة سجائر وشوكولاطة، ثيابنا مُبلَّلة، يكسوها الوحل، ظهرت لنا من بعيد باخرة ضخمة، هديرها قويٌّ جدّاً، وأضواؤها كثيفةٌ، كانت تستعدّ للمغادرة، بدت لي "ساموس" غامضة، لا يوجد هناك مَنْ نسأله، وحتّى المخيّم نجهل موقعه، تابعْنا طريقنا بلا وجهةٍ محدّدة، كان الطّريق يرتفعُ، بحيث تظهر "ساموس" جيّداً، يلفّها ضباب خفيفٌ وحبّاتُ مطرٍ تنقرُ وجه البحر، بناياتٌ جميلة تطلّ على البحر، ملاهٍ وفنادق وبنوك وساحة بكراسيَ بُنِّيَّة، يتوسّطها تمثال أسد، ويقابلها الميناء، وخلفه جبلٌ، وعلى اليسار محطّةُ الحافلات ومحلّات، ونحن نمشي، ظهر لنا دَيْرٌ صغيرٌ

بلون أخضرَ فاتح على يميننا، اقتربْنا منه، أرضيتُهُ صخرية، تشعر أنّها كتلة واحدة، تظهر العذراء من خلفِ زجاج نافذة صغيرة، الباب مُقفل، عينُ ماء مثبّتة في السور، أسفلها بركة ماء صافٍ جدّاً، وإلى الأعلى قليلاً حنفيةٌ، فتحتُها لأُطفئ عطشي، كان الماءُ عذباً جدّاً، شربتُ كثيراً، وغسلتُ وجهي، وشكرْنا السّيّدة العذراء على كَرَمِهَا.

أكملْنا المشي بلا دليل واضح، ضيَّعْنا الوقت، وابتلَلْنا أكثر فأكثر بفعل المطر، لذلك جلسْنا قليلاً في حديقة، تقع في مكان مرتفع، ثمّ عدْنا من الطّريق نفسه، حيث صادفْنا ثلاثة شبّان أوحى لنا لباسُهُم وطريقةُ مشيتهم بأنهم جزائريون، كانوا يمشون بسرعة، تمنع من التفكير في المبادرة إلى سؤالهم، ثمّ صادفْنا سيّدة، بدت في عقدها الرابع، وجهٌ ببشرة قمحية، وعينَيْن عسليَّتَيْن واسعَتَيْن، وشَعْر قصير، كانت قد أفاقت لتوّها من خلال عينَيْها الناعسَتَيْن، ترتدي معطفاً أصفر، وتحته فستان أسود، يصلُ تحت ركبَتَيْها، فتحةٌ واسعة عند صدرها المتدلّي، سألْناها عن مخيّم اللّاجئين، قالت إنّها تشتغل هناك، ومكانه غير بعيد، ثمّ نصحتْنا بالتّوجّه إلى محطّة التاكسي لِأَخْذ سيّارة أجرة، تُوصِلنا إليه بسرعة.

الساعة السابعة صباحاً، "ساموس" تتقلّب في فراشها غير مبالية بنا، سألْنا سائقَ التاكسي الضخم الذي كان بلباس رياضي، ونظّارة طبِّيَّة واسعة عن المخيّم، وبلطف طلب منّا الصعود، لم نتبادل الحديث طيلة الطريق، وصلتْ بعد دقائق سيّارة المرسيدس عند بوّابة المخيّم، دفعتُ له ثمن الأجرة، وتمنّى لنا حظّاً موفّقاً.

دخلْنا من باب المخيّم، لمحَنا شرطيٌّ ببزّةٍ زرقاء داكنة، من داخل نقطة الحراسة، تحدّث باليونانية التي سمعتُها أوّل مرّة، لم يُجبْهُ أحد، تأمّلتُ المخيّم، كان خلف مدينة ساموس في منحدر جبلي، لديه مدخلان،

المدخل الرئيس الذي دخلْنا منه، والآخر يقع في الأسفل، وهو بلا حراسة، يفصلُهُ عن المقبرة التي مررْنا بها طريقٌ بثلاث اتّجاهات، يؤدّي أحدها إلى وسط المدينة، هناك كارافانات "شاليهات" عند كلّ مربّع، ويفصل سياج مرتفعٌ بين كل مربّع، القُصَّر في ناحية، ثمّ العائلات، توجد خمسة كرافانات محاطةٍ بسياج، وباب على يساره حنفياتٌ، وحاوية نفاياتٍ خضراء مثبّتة عند كل كرفانة، وسط المخيّم يوجد مقرّ الشرطة، مسيّجٌ بأسلاك كثيفة ومرتفعة، خلف مقرّ الشرطة توجد كرافانات أخرى، تضمّ مكاتب للمُفوّضيّة السامية لشؤون اللّاجئين التابعة للأمم المتّحدة، وأخرى تابعة للجيش اليوناني، بالإضافة إلى الفرونتاكس والعيادة الطِّبِّيَّة، ومكتبُ العلاج النَّفْسيّ وكرافانة عبارة عن روضة أطفال.

وراء هذه المكاتب يوجدُ المطعم، على يمينه قاعة تابعةٌ لمنظّمة خيرية نرويجية، وخلفه قاعة تُوزِّع الملابس وموادّ التنظيف والشاي، خلف المطعم توجد خيمةٌ كبيرة ومرتفعة، داخلها غرف عديدة، وراء الخيمة شاليهاتٌ أخرى ملتصقة بالجبل، المخيّم محاطٌ بأسلاك عالية مع كاميرات مراقبة مُثبَّتة في كل مكان، دخلْنا إلى مقرّ الشرطة، على يمينه، يوجد شاليه، يضمُّ مكتبَ محاماةٍ، وغرفة تبثُّ نشرات الشرطة والمُفوّضيّة السامية لشؤون اللّاجئين عبر مكبِّرات الصوت، دخلْنا من باب آخر، سرْنا يمينه، حيث رواق طويلٌ، يفصله سياج عن مكاتب المُفوّضيّة الأممية، وغير مكشوف للمارّة (وجدْنا هناك الشباب الباكستاني) تتدلّى من سقف الرواق المغطّى بالزنك مسخّنات كهربائية عديدة، كانت الساعة تشير إلى حوالي الثامنة صباحاً، تقدّم منّا شرطيٌّ يونانيٌّ أشقر طويل، ببزّةٍ زرقاء فاتحة، وعينَيْن خضراوَيْن، وملامح هادئة، قام بتفتيشنا، وسألَنا بإنجليزية سليمة عن أسمائنا، أعمارنا، بلداننا، أجبْنا بأنّنا سوريون، لم يردّ بشيء، جلسْنا فوق كرسي، والحرارة تتسرّب من السَّخَّان الكهربائي، شعرتُ بالنعاس والإجهاد بعد حوالي عشر ساعات من المشي.

عاد الشّرطيّ الأنيق الذي فتّشَنا بعد لحظات، ومعه علب عصير مع قِطَع كرواسون وحبّات برتقال وقارورات مياه، استعدتُ بعضاً منّي. بعد إنهاء الإفطار، زارَنا أكثر من شرطي، بعضهم يسألنا عن المهرِّب، وهل هناك غيرنا؟ وبعضهم كان يكتفي بتأمّلنا، كنتُ أرى لاجئين، عائلات، نسوة بوجوهٍ شاحبة، وأطفالاً شبه عراة. ضجيجٌ خلف الرواق، لم يسمحوا لنا بالجلوس مع بعض نحن والباكستانيّيْن، بقيْنا معزولين. بعد مرور ساعة، وصلت العائلة السّوريّة أبو علي وعائلته، فهد وزوجته وعمر وعبد الرحمن، جلسوا بقُربنا، أخبرَنا أبو علي بأنّ سفينةً ألمانية جلبتْهم من المكان الذي تركْناهم فيه في جنوب الجزيرة، وسلّمَتْهم إلى الشرطة اليونانية، وقضوا ليلتهم هناك.

جاء رجل أمنٍ أصلع، بلحية سوداءَ كثيفة، وجسد رياضي متناسق، ملامحه حازمة، يرتدي ثياباً مَدَنيّة، يدخِّنُ سيجارة إلكترونية، ولم يتوقّف عن تأمّلنا نحن الثلاثة، كان معه موظّفون يرتدون "سترات" زرقاء، بها شارات الأمم المتّحدة un، أحدهم عربي من لكنته، بدا مغربيّاً، لكنه، أحياناً، يتحدّث لهجةً عراقية سليمة، لا أدري لمَ احتقرتُهُ عندما تفحّصتُهُ مليّاً، وراقبتُ ملامحه ومشيته، شعرتُ أنه وغد، كانت ترافقه سيِّدة بشَعْر أشقر قصير، ووشاح كبير مزركش، يلفّ صدرها، وآخر إيرلندي، كما يظهر من البطاقة التّعريفيّة التي تظهر يسار صدره. العائلة السّوريّة أخذوها إلى داخل المقرّ، لكونها كانت تملك جوازات سفر، حقّقوا معهم، وسحبوا جوازاتهم، ومرّوا للجلوس أمام طاولة، تفصلهم عن موظّفي المُفوّضيّة السامية رفقة الأصلع رجل الأمن والمترجم العربي، مرّوا كلهم، وأجابوا عن أسئلة لجنة التحقيق، بعد الانتهاء من التحقيق معهم، جاء دور الباكستانيّيْن، وقد جِيء بمترجم، يُتقن لهجة الأوردو والبشتون، ليُترجم شهادتهم للجنة التحقيق. لم يتوقّف رجل الأمن الأصلع عن مراقبتنا بنظرات غير بريئة حتّى اقترب منّا.

- من أيّ بلد أنتُم ؟

- سوريون.

- هل لديكم جوازات سفر؟

- ضاعت في البحر.

لم يثقْ في كلامنا، وطلب أن نبقى معزولين عن السّوريّيْن، بعد أن ابتعد عنّا، كانت هناك جلبة خارج المقرّ، أصواتٌ في معظمها تتحدّث لهجةً جزائرية، اقترب أحدهم، لم أُحدّد ملامحه، وقال "مرحبا بيكم يالخاوة، واش les algériens"، ممّا استفزّ رجل الأمن الذي انفعل، وحاول معرفة هوية مَنْ يُحدّثنا، وطلب من شرطي أن يُبعِدَهم عن المكان، كلمات ذلك الجزائري زادت في شكوك "ستافروس" كما يناديه رجال الأمن. بقيْنا معزولين عن البقية.

بعد مرور الباكستانيّيْن على لجنة التحقيق، جاء دورنا، تقدّم مُرافقي الأوّل، استغرق التحقيق معه حوالي ربع ساعة، أصرّ على أنّه سوري، والأمر نفسه حدث مع مُرافقي الآخر، حيث أخبر اللجنة بأنه هرب من الحرب في سورية، وهو لا يملك وثائق، إجابات غير مقنعة في نظر اللجنة خاصّة المترجم الذي سجّلهما كمغربيّيْن، ثمّ نبَّها عليّ أن أتمسّك بكوني سوريّاً، تقاسمْنا سيجارة، إلى أن نودي عليّ "فادي حسن، تعال".

جلستُ قبالِة اللجنة حول طاولة الإيرلندي، وعلى يساره تلك الشقراء بنظراتها الحادّة، وإلى جوارها المترجم، وعلى يساري أنا، يقف الضّابط الأصلع ستافروس، سألَني المترجم إن كنتُ أُتقن الإنجليزية أو الفرنسية، وأجبتُ بالنّفي حتّى لا يُطلق ذلك الإيرلندي العنان لأسئلة طويلة، لم يكن ليتحمّلها وضعي النَّفْسيّ والجسدي، وبدأ المترجم استجوابه.

- ما اسمكَ؟

- فادي حسن من حلب، سورية.

- أين في حلب؟

- شارع العروبة، قرب مصنع الحليب.

- أين أهلكَ؟

- قُتلوا جميعاً بعد قصف لطيران النظام.

- هل تملك وثائق هوية؟

- ضاعت في البيت بعد القصف.

- أين كنتَ لحظة القصف؟

كنتُ مختبئاً في ريف المدينة.

- عند مَنْ؟

-عند أقاربي.

- ماذا كنتَ تعمل في حلب؟

- أعمل مع والدي في مقهى خاصّ بنا.

- هل سافرتَ خارج سورية؟

- أجل، إلى لبنان.

- كيف خرجتَ من سورية؟

- تهريب عبر غازي عنتاب.

- هل تعرف المهرّب الذي أوصلكم إلى الجزيرة؟

- لا أعرفه.

- سوري أم تركي؟

- لا أعرفه.

- لديكَ هاتفه؟

- لا، تخلّصتُ منه بعد وصولي إلى الجزيرة.

- كم دفعتَ للمهرّب؟

- 200 أورو.

- ما نوع المركب؟

- قارب قديم.

بعد إنهاء أسئلته سمعتُ من الإيرلندي يطلبُ من المترجم أن أذكر له 14 محافظة سورية، قبل أن يسألني المترجم، كنتُ أستحضر أسماء محافظات سورية: دمشق، درعا، دَيْر الزور، حمص، حلب، طرطوس، اللاّذقية، إدلب، البوكمال، القامشلي، الرّقّة، حماة، الحسكة، السويداء.

هزّ المترجمُ الوغدُ رأسَهُ استغراباً، ثمّ طلب منه ستافروس أن أذكر أسماء كل من الرئيس الحالي لسورية والده وزوجته وشقيقه ووزير الخارجية ورئيس الحكومة ووزير الدفاع، ذكرتُ معظم الأسماء، باستثناء وزير الدفاع الذي نسيتُ اسمه، اندهش المترجم مرَّة أخرى، والتفتَ إليه الموظّف الإيرلندي،

وقال له "what do u think?". ردّ عليه المترجم "مثل الشّابَّيْن اللّذَيْن مرّا قبله". ثمّ وجّه لي الموظف الأممي سؤالاً آخر عن الدول المجاورة لسورية، كانت في ذهني قبل أن يُتم سؤاله. وبعد إجابتي من خلال المترجم، طلب الموظف رأيه بخصوص ردي، فكانت إجابة المترجم هذه المرّة "إنّه مثل البقية، مغربيّ".

بعد إنهاء الأسئلة، قدّم لي مَطويّة مَحشوّة داخل غلاف بلاستيكي من عدّة صفحات، توجد فيها طوابع بريدية لدول عديدة، طلب منّي أن أُحدِّد عُملة سوريّة، لم تكن موجودة، وأخبرتُهُ بذلك، هذا جعل الإيرلندي يفكّر ثانية، وكان يبدو مقتنعاً بأنّني سوري بعد أن تأمّلني مطوّلاً. لكن ذلك الكائن التّافه المحسوب على الترجمة كان يُصرّ على أني مغربيّ. وطيلة التحقيق لم تنبس تلك الشقراء بكلمة، ولم تكفّ عن مراقبتي بعينَيْها الخضراوَيْن الصّغيرتَيْن.

اقترب منّي الضّابط ستافروس لتفتيشي، سحب من جيبي هاتفاً وبعض المال وعلبة سجائر، راح يدقِّق في سِعْر علبة السّجائر عبر المترجم "فين لقيتيها هاد لباكية ديال الدخان" قوّاد برتبة مترجم، ظنّ حضرة الضّابط أنّني سرقتُ علبة السجائر، وبدأ في استجوابي على لسان المترجم الكريه.

- هل كنتَ مع النظام؟ أم في صفّ المعارضة؟

- لم أكن مع أيّ طرف.

- لماذا لم تدافع عن وطنكَ!

- إنها حرب بالوكالة لصالح دول إقليمية، نحن الأبرياء ندفع ثمنها.

صمت بُرْهَة، ثمّ واصل: ما رأيكَ في الجيش الحُرّ؟

- تنظيم لا أثق فيه.

- ما رأيكَ في داعش؟

- تنظيم إرهابي.

- هل كنتَ ستحملُ السلاح مع النّظام؟

- أبدا، إنّها حربٌ قذرة بين الأشقَّاء "فتنة"، لا يوجد فيها عدوّ واضح.

إجاباتي كانت تدفعُ الضّابط للبحث عن أسئلة أخرى، تجعله يحدِّد توجّهي، ولم يقتنع بإجابتي بتحريض من المترجم.

كنتُ أتحدّث بلهجةٍ سوريّة حتّى لا ينتبه لي هذا النّكرة، وبعد انتهاء التحقيق، قُدِّمَتْ لي ورقة، وطلب منّي الإيرلندي التّوقيع عليها، المعلومات المتعلّقة بي نفسُها التي قدّمتُها، فقط تمّ استبدال سورية بالمغرب، لا أدري لمَ أصرّ على مغربيّتنا، ربّما بسبب ملامحِنا. وكما توقّعتُ سمعتُ الضّابط ستافروس يتحدّث مع تلك الأربعينية الشّقراء بعد أن طلب منّي سحبَ مقتنياتي، ومغادرة الطاولة، أخبرها بأنّ الأمر يتطلّب تحقيقاً آخر مكثّفاً لكشف هويتنا الحقيقية، لم يُرهبْني كلامه، ولم يُخفني. عدتُ إلى رفيقَي، ناولَني قارورة ماء، وتقاسمْنا سيجارة مرّة أخرى، كانت إلى يميني العائلة السّوريّة، تقدّم منّي أبو علي، وناولَني سيجارة من نوع مالبورو.

- شو صار معكن؟ ما عرفوا إنّكم جزائريّينْ؟

- لحدّ الآن نحن سوريون، لاحقاً لا ندري.

- الله يستركن، يا ربّ.

- تسلم أبو علي.

كانت التّونسيّة بطولها الفارع تتحدّث مع مرافقي، وتدخّن سيجارة

لايت، أخبرتْهُ عن معاناتها في تركيا، ووضعها البائس في تونس، وحُلمها في الوصول إلى أوروبا، يوسف كان يشاغب، ويجري غير مبالٍ بما يحدث، زوجة أبو علي مرتاحة، بادرت إلى تحيّتي، عمر هو الآخر كان كريماً معي، تركتُ لديه وعاء إلكترونياً، فيه وثائق تتعلّق بي، اتّفقْنا أن يبقى معه حتّى نستكملَ التّحقيق، عبد الرحمن كان يتوهّم أن لديه أفضليّة، لكونه يملك جوازاً، قد يُسرِّع خروجه من الجزيرة إلى أثينا.

الجميع في انتظار الالتحاق بقاعة التبصيم والتصوير، باستثنائنا نحن الثّلاثة المشكوك في أمرنا، دخلتُ إلى الحمّام، غسلتُ وجهي، وأزلتُ بقايا الوحل من سروالي، أحسستُ ببعض الانتعاش. قدّم لي عمر سيجارة أخرى، لم أتطلّع لمعرفة القادم، كلّ ما كنتُ أبحث عنه مكان أرتاح فيه بعد أن أستحمّ.

نُودي على رفيقي، وجاء شرطيّ، أخذه إلى مكتب تحقيق، دون أن أدري ما الذي حدث معه. تمّ عزلُنا عن بعض حتّى يسهل عليهم التحقيق معنا، ورفيقي الآخر أغلق عليه ستافروس في مكتب مجاور، أمّا أنا، بقيتُ في رواق المقرّ المطلّ على المخيّم، ملابسٌ معلّقة على السّياج، وضجيج الأطفال، وأحاديثٌ بلغات ولهجات عديدة بين المهاجرين.

دخل المترجم إلى الغرفة، وأغلق الباب خلفه، سحبتُ سيجارة، وكنتُ أراقب ما يحدث مع رفيقي، رآني ستافروس أحمل السيجارة، ومنعني من إشعالها، أسدل السّتار على النافذة حتّى لا أشاهد ما يحدث. كان الضّابط متوتّراً جدّاً، لم يتوقّف عن التّدخين، تارة يدخّن سيجارة إلكترونية، يسحبُ منها أنفاساً عميقة، وتارة يستبدل بها المالبورو، شعر أنّنا نتحايلُ عليه، وفَقَدَ صوابَهُ تماماً، وراح يصرخ في وجه مُرافقي مهدِّداً إيّاه بإدخاله إلى السجن، كنتُ أسمع بعضاً من حوارهما، المترجم انفرد بمرافقي، وحاول

استمالته "فقط اعترفْ بأنّكَ لستَ سوريّاً، ولن يحصل معكَ شيء". إصرار مرافقي على موقفه جعل ستافروس يفقد صوابه، وقام بتفتيشه مجدّداً، وطلب منه نزع ثيابه كلها، مرافقي الآخر لم يعثروا عنده على شيء يُذكَر، بقي دوري، خرج المترجم وملامحه شاحبة، وجلبَ معه منفضة السّجائر لسيّده الضّابط المنفعل بعد أن طلب منه ذلك، يا له من سافل!

تمّ جَمعُنا في الغرفة نفسها، وتعرّضْنا لتفتيش آخر، وسُحبَت منّا هواتفنا، عبثوا بها كثيراً، كانت لدي ذاكرة إلكترونية في الهاتف، بها صورٌ لي في تركيا، وصورٌ أخرى لجواز سفري، عثر عليها المترجم، وأظهرها لرئيسه، الشيء نفسه حدث مع مرافقي الآخر، عثروا أيضاً على صورة لجوازه، اندهش المترجم الذي كان يراهن على أنّنا مغاربة، ليتفاجأ بأنّنا جزائريون، تغيّرت نبرة تعامُله معنا، حتّى ستافروس ظهر عليه الارتياح، لكنه شعر أيضاً بأنّه خُدع لساعات، وتمّ التحايل عليه.

- لماذا لم تخبروني من البداية بأنّكم جزائريون؟ أجبتُهُ بأنّنا قدَّمنا أنفسنا كسوريّيْن حتّى نحصل على وثيقة، تُسهّل خروجنا من الجزيرة إلى أثينا، تدخّل المترجم، وأزعجه حديثي مع سيّده دون أن يُترجِم حديثنا. طلب منّي ستافروس مواصلة الحديث، وتجاهل مزايدات المترجم، وقال: أنتَ مسلم، لماذا تكذب؟

- عذراً، سيّدي، كذبتُ كما أخبرتُكَ من أجل الوثائق، أنا أحترم وطنكَ، أرض الفلسفة والحضارة وبلاد سقراط وأفلاطون.

قال ستافروس: لو كان الأمر كذلك، لكشفتَ هويّتكَ الحقيقية من البداية، وليس بعد ساعات طويلة، إنّها السادسة مساء، يا صديقي. تأخّرتُ كثيراً بسببكم، هناك مخاطر أمنية عديدة تهدّد بلادنا، ونحاول أن نمنعها.

- أُقدِّرُ حرصكَ على أمن وطنكَ، أرفض الإرهاب، ووجودي هنا للعبور إلى أوروبا، لا أكثر.

تقدّم منّي، وصافحني، ربمّا لأنّه شعر بأنّنا صادقون معه، "عدُّوني صديقكم من اليوم، وإن احتجتُم أيّ شيء أنا هنا، سوف أساعدكم بما أقدر عليه، وتقبّلوا اعتذاري"، ظلّ المترجم يتابع الحديث دون أن يتجرّأ على التّدخّل حتّى إنّني لم أشعر بوجوده. سجّل شابٌّ أنيق معلوماتنا في الحاسوب، وطلب منّا الإمضاء على أوراق.

بعد إنهاء التّحقيق معنا، قدّم لنا ذلك الشّابّ الذي دوّن معلوماتنا في الحاسوب وثيقةً تتعلّق بالإطعام، وأخرى فيها معلوماتنا paper police، ودّعَنا الضّابط المحترم ستافروس، كان بإمكانه أن يزجّ بنا في السجن، لكونه المسؤول عن أمن المخيّم، لكنّه عاملَنا بطريقة خاصّة بعد أن عرف بأنّنا حَمَلَة شهادات جامعية، هربْنا من أوطاننا بحثاً عن حياة كريمة. "if u need any thing, Im here" ردّد العبارة نفسها وهو يبتسم بعد أن التقيْنا مجدّداً في رواق مقرّ الشرطة، صافحني ثانية، وطلب منّي أن أتوجّه إلى غرفة أخذ البصمات، قبل قليل، كان مضطرباً، كيف انقلب فجأة؟! أدرك أن إخفاء هويّتنا الحقيقيّة حيلةٌ يقوم بها مهاجرو شمال إفريقيا، ليسهل عليهم مغادرة الجزيرة، ولا خلفية سيِّئة من ذلك، ثمّ بدا لنا أنّه احترم شهاداتنا الجامعية، وكيف كنّا نجيب على أسئلته المتعلّقة بسورية بكل سهولة.

خارج مكتب غرفة التبصيم، وجدتُ أبو علي وعائلته؛ خير، يا ربّ، شو صار معكن؟

- كله خير، يا أبو علي.

- والله قلقت عليكن أنا وأمّ علي.

- اعترفنا بأنّنا جزائريون،

- ااه، وشو ردّ عليكن الضّابط؟

- ولا شيء، فقط انزعج من إصرارنا على سوريّتنا كل هذا الوقت.

- الحمد لله، يا ابني، ربّك ستّار.

جاء شرطيٌّ وخلفه امرأةٌ بدينة من تركيا، وجهها أبيض، شَعْرها أسود طويل، ومعها شقراء جميلة، ترتدي صدرية سوداء، عليها اسم مؤسّسة ترجمة، بدت لنا عربية. "هل بينكم مَنْ يتحدّث التّركيّة؟" ترجمت الشقراء كلام تلك البدينة، ثمّ قالت: "أنا عربية مثلكم، وسأترجم كلام الموظّفة الأمنية التي ستُحدِّثكم عن بعض الإجراءات، وإن لم تستوعبوا شيئاً أخبروني حتّى تشرح لكم أكثر". ثمّ استرسلت الموظّفة البدينة في الحديث عن جملة من المراسيم والقوانين الأمنية السّخيفة، والمترجمة الجميلة تشرح لنا ما تقول؛ "أنتم هنا في مكان آمن، لن يحدث معكم شيء، ستخضعون لفَحْص طبِّيٍّ، وتحصلون على فراشٍ وأغطيةٍ، وسوف نبحثُ لكم عن أماكن للنّوم، وجودكم هنا غير شَرعيّ، كما تعلمون، كلّ ما عليكم فعله أن تطلبوا اللّجوء حتّى تحصلوا على الحماية، مَنْ يرفض تقديم اللجوء سيتمّ إرجاعه إلى تركيا بمقتضى الاتّفاقية الموقّعة بين الاتّحاد الأوروبي وتركيا في مارس 2016، وستُفعّل بعد 15 مارس الجاري، ممنوع عليكم الخروج من المخيّم إلّا بعد مرور 25 يومٍ على وجودكم هنا". طلبتُ من فهد سيجارة، لأُحلِّق بها بعيداً عن هذا الهُرَاء ، وبعد إنهاء خطبتها الطّويلة المملّة، غادرت الموظّفة ومعها المترجمة.

لمحتُ كريستيان وأميغو، وصلا قبل قليل، كان مشيهم بطيئاً كما

توقّعتُ، وتوقّفا عند تلك الكنيسة التي مَرَرْنا بها قبل وصولنا إلى المدينة، استقبلهما كاهنٌ، وسمح لهما بالدخول والمبيت حسب ما أخبرَنا به كريستيان.

مضى على وجودنا هنا أكثر من نصف يوم، إنّها الخامسة مساء، تضاعف تعبي، وفي المقابل كان قلبي يرقص أملاً. بدأ السّوريّون في أخذ البصمات، ونحن في الخارج ننتظر دورنا، جاء موظّف أمميٌّ آخر، بدا صينيّاً أو كوريّاً من خلال ملامحه الآسيوية رفقة أوروبية، ومعهما علبٌ وأكياس، قدّم لنا الشّابّ مناشف وملابس داخلية وموادّ تنظيف "أنا لستُ منكوباً، ولا أحتاج هذا كله".

أخذ الموظّف بصمات أصابعي، ثمّ قام آخر بتصويري بعد أن حملتُ لوحةً على صدري، بها رَقْم من ستة أعداد، اقتربتُ من الشّابّ الذي أخذ بصماتي، وكان يُتقن الفرنسية.

- ممكن أسألكَ؟

- عادي، تفضّلْ.

- شكراً .. هل تظهرُ هذه البصمة في أوروبا؟

- اعذرني، لا أدري، لكنّه عملكَ، أليس كذلك؟

- نعم، لكنّني لا أعرف.

- شكراً لكَ.

لم أُصدِّق إجابته، وتمنّيتُ لو تجنّبتُ سؤال هذا المتحفّظ. خرجْنا بعد أن أُخِذَتْ صور الجميع وبصماتهم، لا نتحرّك إلّا بأمرٍ ومرافقة من الأمن اليوناني خارج مقرّ الشرطة.

جاء فريق آخر، وزّعوا علينا بطّانيّات وأغطية، ثمّ سرْنا خلف شرطيٍّ يتّجه بنا إلى عيادة المخيّم، كان هناك عددٌ كبير من اللّاجئين، منهم مرضى، وآخرون يتظاهرون بذلك. على يمين العيادة، كرافانة خُصّصت للأطفال، ويشرف عليها طاقمٌ هولنديٌّ، أغلبهم نساءٌ متطوّعات، ويساراً كرافانة أخرى، صيدليةٌ، وبجوارها قاعةٌ للعلاج النَّفْسيّ، وقفْنا قليلاً، كان من بين مَنْ ينتظرون دورهم جزائريٌّ بدا ثملاً، يترنّحُ ويحاولُ السّقوط، ويتحدّث بتثاقل، كان قصيراً، ملابسه من الجينز، وأمام الباب شابٌّ آخر يتألّم بشدّة، ويُمسكُ ببطنه، من خلال ملامحه الداكنة بدا هندياً.

عندما فتحتِ الممرّضةُ البابَ، حاول الجميع اقتحامَهُ والدخول دفعةً واحدة، لكنّها أغلقتْهُ، وفتحتْهُ مجدّداً، لكنْ، بوجود شرطيٍّ جاء ليضع حدّاً لتدافُع المرضى، قدّمْنا له هويّاتنا التي استلمْناها من الشّرطة. وبعد لحظات نُودي عليّ. كان داخل العيادة مترجمٌ مصريٌّ شابٌّ، وطبيبةٌ في عقدها الخامس، ومعها الممرّضة، سألتْني الطبيبة عن طريق المترجم إن كنتُ أعاني من أمراض ما أو لديّ مشاكلُ صحّيّة، أجبتُ بالنفي، تمدّدتُ على السرير، فحصتْ نبضاتَ قلبي ودرجة الحمّى والضّغط، دوّنتْ اسمي في سجلّ، لتأذن لي بالانصراف، الإجراء نفسه تمّ مع رفيقَي.

بعد المرور على العيادة، رافقَنا رجلٌ يرتدي معطفاً جِلْدِيّاً رثّاً، وسروالَ جينزٍ أبيضَ، وشَعْره الأسود إلى الخلف، بالإنجليزية سأل إن كنّا جزائريّيْن، مشيْنا معه في الطّريق المؤدّي إلى المخيّم أسفل مقرّ الشرطة ناحية اليمين، حيث يقيم الجزائريون والمغاربة.

المخيّمُ الجحيمُ

"أنا الهائمُ في براري العَدَم
وطني الحُلم
وجنسيّتي الهروب
انتمائي الوحيدُ لزرقةِ البحر
ونشيدِ النوارس".

كانت الثامنة ليلاً، بردٌ وتعبٌ وإرهاق، مررْنا على الكرافانات، معظمها مُخصّصٌ للعائلات، خارجها خِيَمٌ صغيرةٌ من القماش، تلامس الأرض، غير بعيدٍ عنها توجد خِيَمٌ أخرى كبيرة باللّون الأبيض، تنبعثُ منها أغانٍ جزائرية للشّابّ حسني وخالد. الطّريق مُوحِل. خِيَمٌ أخرى، سقفُها معدنيٌّ مغطّى ببلاستيك سميك، أغلبُها مهجورٌ، وبلا إنارة، كانت قد نُصبتْ حديثاً، اقتربْنا من الخيمة، مظلمةٌ جدّاً وفارغة، أرضيّتها من الخشب، لديها بابٌ أماميّ، وآخر خلفيّ، تطلّ على غابة كثيفة، أسفلنا خيامٌ أخرى. "يلا نجيبو العشاء" قال رفيقي.

ذهبْنا إلى المطعم، كان على وشكِ الإغلاق، استلمْنا علبةً بلاستيكيةً سوداء، بها بطاطا مهروسة رديئة جدّاً وبلا نكهة مع قطعة خبز وجبن. لم أرغبْ في تناول الطّعام، فقط احتجتُ لكثير من النّوم والدفء، كان لمرافقي أحد الأقارب الذي وصل قبل شهرَيْن إلى ساموس، شابٌّ عشرينيٌّ

من نواحي العاصمة يُدعى "صدّام"، خرجْنا إلى فناءٍ صغير، يفصل المطعم عن مقرّ الشّرطة، وعلى يمينه مكاتبُ المُفوّضيّة السّامية لشؤون اللاّجئين والعيادة، توجد فيه طاولة، فوقها مُوزِّع كهربائيّ، يستعمله المهاجرون لشَحْن هواتفهم، عثر مرافقي هناك على شابٍّ جزائريّ، أرشده على مكان صدّام، بعد التّحيّة والعناق، سأله صدّام عن مكان إقامتنا، وطلب منه أن نأتي ونقيم معه في الكرافانة، حيث ينام هناك مع بعض الجزائريّيْن.

بسرعةٍ غيَّرنا مكاننا، كانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً، لم نتحدّث كثيراً، كنتُ بلا سجائر، وبحاجة لقهوة ثقيلة تُبدّد بعضاً من صداع رأسي وتعبي. وبعد أن اخترْنا أماكننا في غرفة الكرافانة، جاء صدّام، شابٌّ طموح، مندفع، قصير قليلاً "وش يخصكم راني هنا لخاوة" صِدقاً كان كريماً معنا جدّاً. تضمّ الكرافانة غرفتَيْن ومطبخاً ومرحاضاً وحمّاماً دافئاً أغلب الوقت، أخذ رفيقي حمّاماً، ثمّ تبعتُهُ، منحَنا صدّام بعضاً من ثيابه، وجلب لنا قهوةً وسجائر من كرافانة مجاورة، يسكنها جزائريون أيضاً، وجاء بعد لحظات "الحراڨة" رحّبوا بنا كثيراً، وأكرمونا كما تتطلّبه الشهامة أو كما نقول النيف الجزائري في هكذا مواقف، شبابٌ معظمهم في العشرينيات من العاصمة وبوفاريك وبومرداس وتيارت وغليزان، مضى على وجودهم أكثر من ثلاثة أشهر، كلّهم يشتكون من جحيم المخيّم، وقسوة الأمن اليوناني، وجُبنِ المُفوّضيّة السّامية لشؤون اللاّجئين، وصعوبة الخروج من الجزيرة. "مزالنا في تركيا ياخو، ما درنا والو هنا في ساموس نتع ...." يقول عبد النور البومرداسي الذي حاول برّاً عبر أدرنة للوصول إلى اليونان، ليُمسكَ به حَرَس الحدود الأتراك، حيث مكث في السّجن لمدّة شهرَيْن.

شابٌّ آخر من الرغاية يُدعى يوسف، كان ثملاً جدّاً، وتحت تأثير "ليريكا" أو الصاروخ كما يشتهون تسميتها، لم يتوقّف عن لعن ساموس

واليونان. جرّب كثيراً من خلال الشّاحنات المتّجهة إلى أثينا عبر الباخرة بلا فائدة، آخر محاولةٍ له تعرّض فيها للضرب من قبَل أفراد الجيش، وكُسرت رجله. أمّا صدّام، فقد قدّم نفسه للشّرطة كقاصر بعد وصوله للجزيرة، له بعض الامتيازات، لكنّه مشاغب، أخبرَنا عن ستافروس الذي لا يحبّه بعد أن حبسه لأيّام، بسبب معركةٍ طاحنة بين الجزائريّيْن والأفغان، انتهت بفقدان أفغاني أُذنه، وكان ينتظر الانتقال إلى منزلٍ في المدينة خاصّ بالقُصَّر، لم يحتمل البقاء أكثر.

شبابٌ تهشّم بهم قارب الوطن، وألقى بهم بحر الضّياع في هذه الجزيرة التي ضاقت بأحلامهم. ودَّعونا، وذهبوا لمواصلة سهرتهم في كارافانةٍ مجاورة، يقيمُ فيها شبابٌ من براقي (العاصمة) وتيارت. وبعد الدردشة مع الشباب، نال منّي النوم.

أوّلُ ليلةٍ في ساموس التي لا تشبهُ كثيراً أزمير، هادئةٌ جدّاً حدّ الملل، تنام كثيراً، وتستيقظ متأخّراً. ليلة نومٍ واحدةٍ لم تُبدِّد تعبي، استيقظتُ بآلامٍ في الظَّهْر، وأخرى على مستوى الرِّجْل.

بعد أن جلبتُ وجبةَ الإفطار، عدتُ إلى النّوم مجدّداً. مساء نزلْنا إلى المدينة، اشتريتُ شريحة فودافون وعلب سجائر، التقيتُ حازماً وسالماً، فضّلا التواري عن الشّرطة، ويتطلّعان لمغادرة الجزيرة، كانا يتسلّلان ليلاً إلى المخيّم، من أجل المبيت حتّى لا يُفتَضح أمرهما، بسبب بصمةٍ قديمة لهما في اليونان.

تُشبه ساموس - في المساء - غجريةً رومانيةً خجولة، وصلت لتوّها من أثينا، وتستعدّ لليالي حُبٍّ طويلة، تعجُّ بالعشّاق والسّيّاح والمهاجرين، والنبيذُ الإغريقي المعتّق يضيفُ للَّيلِ عمراً آخر. جزيرةٌ أصغر من تطلّعاتي

وأحلامي، الخروجُ منها شبه مستحيل بالنّسبة إلى مَنْ لا يملكون وثيقة لجوء "أوزفايس" أو "خرطية"، عددٌ كبيرٌ من المهاجرين الجزائريّينْ في الجزيرة، يجلسون قبالة الشاطئ، يراقبون رقص النوارس، يتطلّعون إلى خطوة أخرى، يُدخّنون، يحتسون بيرة ونبيذ "الكرازي" (الروج في نسخته اليونانية)، يسمعون موسيقى من هواتفهم، هناك مَنْ مضى على وجوده أكثر من سبعة أشهر دون أن يُوفَّقَ في الخروج.

كان ستافروس قد طلبَ منّا أن نزورَه حين يطلبنا. ذات صباح في الساعة العاشرة سمعْنا أسماءنا نحن الثلاثة يُنادَى عليها من مكبّرات الصوت الموجودة في المخيّم. مكتبُ الشّرطة يطلبُنا، دخلْنا، ووجدْنا ستافروس، رحّب بنا، وصافحَنا، كان بغاية الأدب واللّطف.

- مرحبا، أصدقائي، أموركم بخير؟

- بخير، شكراً لكَ.

- عذراً، فقط طلبناكم من أجل استلام وثيقة التّجوّل في ساموس، مدّتها ستّة أشهر.

- آه، جميل.

- أوك، وقِّعوا هنا، لو سمحتُم؟

بعد التوقيع، استلمْنا الوثائق، وودّعنا ستافروس. التقيْنا أبو علي خارج مقرّ الشرطة، سلَّم علينا:

- شو، وينكن، يا شباب، والله اشتقتلكن.

- تسلم أبو علي، نحن هنا في كارافانة جزائرية.

- آه، حلو.

- وينك أنت أبو علي والبقية؟

- أنا كمان عطوني كرافانة، التّونسيّة معنا، والشباب فوق في خيمة مع السّوريّيْن، الله يلعنهم أولاد الكلب، هاي عيشة حيوانات، يا زلمي، الأطفال ما عم ياكلو أكل المخيّم بعد ما نسحبو مباشرة نكبو بالزبالة، اخخخ، يا عالم.

- معليش أبو علي، كلّها أيام وتعدّي.

- إن شاء الله، يا رب، بس راح أعمل لجوء، التقيت بمحامية كنت مع الأبناء وحكيتلها عن وضعي أنا والعائلة، قالت ما في إشكال رح يسمعوكن، وتفوتو على العيادة والطبيب النَّفْسي ولجان من المُفوّضيّة.

- موفّق أبو علي.

- تسلم حبيبي، بس حرام، هدا سجن والله، الأطفال ما رضيو يبقو هون، راح أطلب من المحامية يخبروهن أنو بدي أسكن في المدينة على حسابي، بس يرتاح الأولاد، وكمان أُمّهن حامل.

- سيكون أفضل لو تنتقل خارج المخيّم أبو علي.

- ياريت، والله.

أبو علي زادت خيبته أكثر بعد أن اكتشف مهزلة المخيّم ورداءة الخدمات وصعوبة الخروج من الجزيرة والمشاكل الدائمة بين المهاجرين.

- وين عمر وفهد أبو علي.

- هما بالسجن.

- يا لطيف! خير؟

- آه، نعم، يا بني، قال شو إن الأولاد يعرفو المهرّبين وعم يحقّقوا معاهم، وبلكي أيّام ويطلعو.

- إن شاء الله، يا ربّ.

تمّ الحجز على فهد وعمر بعد أن تحدّثا عن معرفتهما بالمهرّبين في تركيا، ممّا أثار شكوك رجال الأمن.

مساء كنّا قبالة الشاطئ، رأيتُ أبو علي قادماً من بعيد مع عائلته والتّونسيّة، بعد أن اقترب منّا، قال بأنّه متّجه لزيارة عمر وفهد في السجن، كان قلقاً جدّاً عليهما. "العايلة معكن يا شباب". جلست العائلة قرب ملعب تنس في انتظار عودة أبو علي. "ما قدرت أشوفهن قالو أنهم بخير يا حرام، قال الحارس أيّام بيطلعو"، سمحوا له فقط بترك السجائر وبعض الأطعمة التي جلبها معه، كان حزيناً عليهما، لكنْ، بعد أيّام التقيتُ عمراً، أُفرج عنه، وبقي فهد هناك، كانت زوجته التّونسيّة تعيسة جدّاً، وحزينة لأجله.

مضى على وجودنا بالمخيّم أسبوعان، لم يتغيّر شيء، الأيّام في ساموس بلا جديد، مهاجرون جُدُد بثياب مبلّلة، ووجوه كئيبة داخل مقرّ الشرطة، حتّى فرصة الخروج عبر الشاحنات باتت شبه مستحيلة، كلّ مَنْ يتّجه إلى موقف الشاحنات يرجع إمّا مكسوراً أو يجرّ أذيال الخيبة. مكبّرات الصّوت تنادي على أسماء مَنْ لهم مواعيد ومقابلات مع المحامين ومكتب اللجوء.

آخر أسبوعٍ من شهر مارس، ماطرٌ جدّاً بلا أدنى أُفق، لم أرغب في التّقدّم بطلب لجوء، لصعوبة الحصول عليه، كوننا من بلد آمن عكس السّوريّيْن والعراقيّيْن حتّى مَنْ هربوا من الحروب لا يحصل جميعهم على لجوء، بسبب بيروقراطية الأمم المتّحدة التي لا تملك موقفاً مستقلاً أمام

سطوة الأمن اليوناني، لم أصادفْ جزائرياً حصل على لجوء، كانتْ تزورنا دوماً دوريات أُمنيّة، تحثّنا على تقديم طلبات اللجوء، أبو علي رُفض طلبه، ووجدتُهُ مُحبَطاً جدّاً، فهد أُفرج عنه، ويستعدّ للتّقدّم بطلب لجوء. تمرُّ الأيّام والليالي بدون جديد يُعتمد عليه.

ساموس اللذيذة، الشبقة، المغرورة، الحُلم والنبيذ والجنون وبركات هيرا. مطالعةُ كُتُبٍ من الهاتف، والنّزول مساء لمغازلة البحر، ساموس شبه مهجورة، معظمُ المنازل فارغة، تزدهر صيفاً مع قدوم قوافل السّيّاح، شوارعها نظيفةٌ دوماً، مَلَاهٍ وحانات قليلة وأنيقة، وتقدّمُ خدماتٍ جيّدةٍ بأسعار معقولة، أغلبُ سكّانها متقاعدون وموظّفون، من جُزُرٍ ومُدُن يونانية أخرى. توجد بها كنيسةٌ ضخمة قرب دار البلدية، مراكز تجارية قليلة وفنادق، معظمُها يطلّ على البحر، تتوسّطها حديقةٌ عذراء متناسقة، يرتادها المهاجرون، توجد أيضاً ثكناتٌ عسكريةٌ منتشرة في نواحي عديدة، جزيرةٌ هادئة ومسالمة، تصلح للاستجمام والتّفرّغ للكتابة، قواربُ صيدٍ عديدة على الشاطئ، يشتغلُ فيها بعض الأفغان.

علاقةُ المهاجرين بسكّان الجزيرة، لا تخلو من الاحترام، الناس هناك غير عنصريّيْن، يتعاطفون مع المهاجرين، ويُنصتون لآمالهم وآلامهم، لم يحدث وأن تعرّضتُ لموقفٍ عنصري أو سمعتُ أحداً من المهاجرين، في حدود ما أعلم، يتحدّثُ عن عنصرية سكّان الجزيرة، شعبٌ لطيفٌ ومسالم وطيّب جدّاً، سمعتُ من عبد النور أن هناك مدرسةً يديرها متطوّعون من أوروبا وكندا، تُقدّمُ دروساً في تعلُّم اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليونانية، استحسنتُ الفكرة، وشاورتُ رفاقي الذين رحّبوا بالفكرة.

أبو علي سينتقل إلى منزل في المدينة، وجدتُهُ صباحاً عند المطعم، برفقة يوسف ابنه، كان سعيداً بمغادرته المخيّم.

- العيشة هون مو كويسة، الأولاد عم يسعلوا، والعيادة عاطلة، وما عم ياكلو حتّى سجايرهم زي الخرا، مشتاق طبخ زوجتي، وراح أعزمكن على عشاء سوري، لا تنسو.

- طيّب وكريم، أبو علي.

كنّا نتحدّث ليلاً مع الشباب الجزائري، يُفرّطون في كل شيء إلّا الأناقة وشكل التسريحة والعطور، كل يوم يطلّ علينا وجهٌ جديد، نتبادل الحديث عن كيفية الخروج من أزمير، وعن عدد محاولاتنا. موح الشلفي يتحدّثُ عن أزمير التي أغرتْهُ بالبقاء، ليعمل كحراق، ثمّ قرّر التّوجّه إلى ساموس، وكيف تعطّل بهم المركب الذي كان يقوده شابٌّ جزائريّ، تعاطى جرعاتٍ عالية من الحشيش، ضيّعَ البوصلة، واجتمع عليهم المطر والموج لساعاتٍ طويلة حتّى تدخّلت البَحْرِيّة اليونانية، وأنقذتْهم، وعاقبهم طاقمها، بسبب تدافُعهم للوصول إلى سطح السفينة. حاول الخروج من موقف الشاحنات بلا فائدة "تزيرت بزاف، يا ولد عمّي"، "ربّي يجيب الخير"، "رانا هنا في حبس جاي في جبل". يتبادل هؤلاء الشباب الحديث مع أهاليهم وأقاربهم في أوروبا ورفاقهم في جزر أخرى عبر هاتفٍ، يتناوبون على استعماله، "قالك في ميتيلني راه اللي ينزل من البحر مباشرة للحبس" حسب عبد النور. زارنا ليلاً عبدو من بوفاريك، شابٌّ أسمر ومرح، كان ثملاً ومُفرِطاً في السّخرية، سيد علي من بئر توتة شابٌّ طويل، يقترب من الثّلاثينيّات، بمعطف جِلْدِيٍّ بُنِّيٍّ، تعرّفنا على بعض، ولم يتوقّف عن ترديد "فيها خير يالخاوة".

كان متفائلاً جدّاً، وهو يداعب هاتفه، وبصوته الجهوري أخبرَنا عن كيفية التّسلّل داخل الشاحنات "الطريق نتع صربيا راهي مغلوقة"، يقول إلياس ابن مدينة الرغاية شرق العاصمة بعد أن أنهى مكالمة له مع جاره

في جزيرة ميتيلني التي تعجّ بالجزائريّيْن. أحاديثنا في الكارفانة كانت كلّها تدور حول كيفية الخروج من الجزيرة.

ذات صباح اتّجهْنا إلى مدرسة اللّغات، بنايةٌ من طابقَيْن، الطابق الأرضي عبارة عن قاعةٍ لتعلُّم الموسيقى، وجناح مخصّص لألعاب الأطفال، استقبلتْنا متطوّعات من هولندا والنّرويج وإيطاليا، شابّاتٌ يافعاتٌ وطيّباتٌ، يتدفّقنَ إنسانيةً وحناناً. لا يتوقّفنَ عن رسم ابتسامات بريئة. الطّابق العلوي مخصّصٌ لتعلُّم اللّغات، رحَّب بنا "مستر روبرت" كنديٌّ ستيني، ودودٌ جدّاً، ولطيف، جسده الرّياضيّ لا يُوافِق عمره، وجدْنا هناك مهاجرة إيرانية مع شبابٍ من المغرب، وعددٍ قليلٍ من الجزائريّيْن، كان الدَّرْس عبارة عن عمومياتٍ في الإنجليزية خاصّة بالمبتدئين، طريقةُ تدريس مستر روبرت جميلة ومُحبَّبة ومتطوِّرة جدّاً، تساعد على الفَهْم، كان برفقته شابٌّ بريطانيٌّ يُدعى "جورج" بلحيةٍ شقراء خفيفة، وعينَيْن زرقاوَيْن وقرط في أُذنه، مرّ الوقتُ بسرعةٍ كبيرة، تعرّفتُ على أسلوب جديد في التدريس، لم يسبِقْ وأن حدث معي في مراحل دراستي كلّها، طرائق متنوّعة في الإقناع، يستعمل فيها الحركات والصور والتّشبيه، وكذلك حلّ التمرينات، ولا ينتقلُ إلى فكرة جديدة في الدَّرْس إلّا بعد أن يتأكّد من أن شرحه لما سبقها قد تمّ فَهْمه من قِبَل الجميع. يقومون بهذا كله مجّاناً لفائدة المهاجرين، قطعوا بحاراً ومحيطاتٍ تاركين وراءهم عائلاتٍ، من أجل خدمتنا؛ يا لها من إنسانية عظيمة ونُبل نادر!

عشقتُ ساموس رغم أُفقها المحدود، عشقتُ هواءها، نوارسها، هدوءها، طيبةَ سكّانها، دلالَ شقرواتها الخجولات وتمنُّعهنّ، مطرَها، ضبابَها، صيّاديها بثيابهم العتيقة وشواربهم الصّفراء من أثر التّدخين، وأصواتهم المبحوحة، وترنّحهم الدّائم. مازلنا نتسلّق ظَهْر ساموس، ننبشُ خَدَّها بحثاً عن بركات الآلهة، كلّ ما كنتُ أريده من اليونان قبسات من نورِ آلهة الحُبّ والمطر والجمال والشّمس.

في هذه الفترة، لم أحاول الخروج من الجزيرة، ولم أفكّرْ بالأمر، إشاعاتٌ كثيرة تفيد بقُرب مَنْحنا خرطيات، نغادر بها إلى أثينا، وأخرى تزرع الخوف فينا حول ترحيلٍ مُفاجِئ إلى تركيا، لكوننا لم نتقدّم بطلب لجوء. سئمتُ الذهاب إلى مقرّات المُفوّضيّة السّامية، لا تَعدُ بشيء، ولا تَفي بشيء.

يقع المخيّم على ظَهْرِ الجبل، لم أرغبْ في اكتشاف عوالِمه، عند مدخله أفرادٌ يحملون مَطويّاتٍ، تُبشِّر بالمسيحية، وأناجيلَ بلغات عديدة، "لم آتِ إلى هنا بحثاً عن دِيْن آخر، الأديان لم تحلّ مشاكلي، دِيْني الوحيد الرّفض وتأمّل عيون النساء"، هكذا كنتُ أُحدّثُ نفسي. تعدّدت الجنسيات والقوميات والأديان بين النزلاء، لكن جحيمَهم واحد، للمعاناة لغةٌ واحدة، تصرخُ من العيون الذابلة لكبارٍ حزانى وأطفالٍ عبروا حدوداً وبحاراً، ونالهم قبحُ المهرّبين وجحيم البحر وهَلَعه وقسوة البرد. المخيّمات أوطانٌ مؤقّتة أو سجون من نوع آخر، تخنقُ أحلام المهاجرين، ففي النّهاية، لا تقدّم لكَ شيئاً، بقدر ما تأخذ من وقتك، وتستنزفُ مالَك.

أخبرني صدّام أن الحلّاق الغليزاني يحيى الذي حَلَقَ شعورنا قبلَ أسبوع قد غادر الجزيرة، تسلّل إلى الباخرة المتّجهة إلى أثينا بعد أن اقتطع له عراقيٌّ تذكرةً، شابٌّ جامعيٌّ، لم يجد أملا في الجزائر، واختار الهروب. "جرب تيكي لعربي، تبان يوناني خو، اضرب حطّة علابالي تجوز ما يدوهاش فيك"، قال لي صدّام. في تلك الفترة التي كنتُ فيها في المخيّم، كان معنا سوريون وعراقيون وفلسطينيون ومصريون وأفارقة، كان قد مضى على وجودهم حوالي سنة دون أن يحصلوا على لجوء، البقاء في المكان طويلاً يعبثُ بالروح، وقد تكرّرت كثيراً محاولات الانتحار، أحدهم تسلّق عموداً كهربائياً، ليتخلّص من معاناته وآخر شرب ماء جافيل.

وجباتُ المطعم، في معظمها، رديئة جدّاً، فاصوليا وبازلاء وأرز وعدس

وعجائن، وأحياناً دجاج، والمضحك أنّنا كنّا نسمع تساؤلات تبعثُ على الضحك في تلك الظّروف، من قبيل حلال أم حرام أم تراه جيفة. يشرفُ على المطعم رجل ألباني، بلحية بيضاء، مغرور، وله عداوة مع الجزائريّيْن؛ "شكام" هكذا كانوا يصفونه، المطعمُ به غرفة بنافذة واسعة، تُسلَّم منها الوجبات، يقوم بتوزيعها متطوّعون أفغان وباكستانيون، الطعام يأتي من الخارج رفقة المياه والفواكه، أسفل النافذة طاولةٌ يتعاقب على الجلوس عليها شابٌّ نيجيري، مضى على وجوده عام، رفقة آخر أفغاني، يختمون على ورقةِ الإطعام حتّى لا يأخذ المهاجرُ الوجبة مرّة أخرى، معظمُ الجزائريّيْن كانوا يطبخون بمفردهم في الكارافانات والخيام، يشترون الخضروات من المدينة، والخبز من سيّدةٍ يونانية طيّبة جدّاً، ينادونها "ماميتا"، تمنحُهم الكثير من الخبز والحلويات، زرتُها مرّات عديدة، تفيضُ حناناً وأمومة، تتحدّثُ اليونانية فقط، تتعاطف كثيراً مع المهاجرين، ويحبّها الجزائريون كثيراً، ويُقبّلون رأسها ويدها تقديراً منهم على كرمها وإنسانيّتها النّادرة. ضحكتُها الخالدة راسخةٌ في الذاكرة.

الجزائريون المتواجدون بالمخيّم، في معظمهم، يتمتّعون بمزاج حادٍّ ونرفزة، يستفزّون الشرطة، وتحدثُ بينهم مناوشاتٌ لأسباب تافهة. لم أحتمل هذا المخيّم بضجيجه والعراك بين نزلائه ورؤيةِ وجوه الأطفالِ وتلكَ الخيام البائسة المثبّتة في الوحل والمنتشرةِ أسفل المطعم، السّعال بالمكان معزوفةٌ يردّدها الجميع، والعيادة لا تفي بالغرض مقارنةً بعدد المهاجرين الذي يتجاوز الألف؛ مهاجرُون من جنسياتٍ وأديان وأعراق مختلفة، أهازيجُ وموسيقى متنوّعة، الأكراد لا يتوقّفون عن تنظيم حلقات رقص مع موسيقى كردية صاخبة، وكان كل مرّة يتضاعف عدد الوافدين من جنسيات مختلفة، لم يرهبهم غَرَق قاربٍ في بحر إيجة، قبل أسبوع راح ضحيّته 15 فرداً، أغلبهم أطفالٌ ونساء.

كنتُ قد تعلّمتُ بعض المفردات اليونانية ككلمة "داكسي"، وتعني "أوك" أو موافق، بالإضافة إلى عبارات التّحيّة والتّرحيب، ومفردة "مالغا"، لديها معانٍ كثيرة، أغلبُها تحقيري، لغةٌ صعبةٌ جداً، لديها أكثر من 46 حرفاً، وحروفها معقّدة.

اتّصلتُ بعزيز، وتحدّثْنا عن الوضع في الجزيرة، أخبرني عن مهرّبٍ سودانيٍّ يقيمُ في أثينا، أخرج الفلسطينية وأبناءها من جزيرة ميتيلني بمبلغ 1500 دولار، وهو مبلغٌ كبيرٌ جداً، لكنّه وعد بأن يردّ عليّ بعد أن يتفاوض مع "محسن" في أثينا حول تخفيض السعر.

اكتظّ المخيّم بعدد المهاجرين، طلبت الشّرطة من صدّام أن يستقبل شابّاً إيرانيّاً، وآخر جزائريّاً من تيبازة، المترجم المصري المرافق للشّرطة يُصرُّ على استبعاد غير القُصَّر، وكان يقصدنا.

كانت كرافانة صدّام مفتوحةً للجميع، يتردّد عليها معظمُ الجزائريّيْن للاستحمام وغسلِ ملابسهم، فكّرْنا في تغيير مكان إقامتنا، خيامٌ عديدة جنوب المخيّم، لكنْ، بلا كهرباء، وأغلبُ مَنْ يقطنها في شجارٍ دائمٍ لا يتوقّف حتّى تتدخّل الشّرطة. فذات مساء بعد عودتي من المدينة، وفي مدخل كارافانات القُصَّر، كانت تقف عناصر الشّرطة، كان هناك شرطيٌّ بياضُ صلعتِه يلمع، يتحدّثُ بصوتٍ مرتفعٍ، ويرافقه مترجمٌ مصريٌّ، كان أكثر عدوانيّة منه، مهمّتهم إفراغ المكان ممّنْ يتجاوز سنّهم العشرين، وتركها للقُصَّر والعائلات فقط، كان معهم عمّال نظافة، يُخرِجون أغراضاً وأفرشة من داخل الكارفانات، ومنها التي كنّا نقيم فيها، وبصعوبة تحايلْنا على رجال الشرطة، وسحبْنا أغراضنا، ووقعت مناوشةٌ بين جزائريّيْن والمترجم المصري، ختموها بعبارات "قيييييييو". ساعدنا سيد علي على نقلِ أغراضنا إلى خيمة عمّار الطلياني وإلياس القبائلي جنوب المخيّم.

وقعت مناوشةٌ عنيفةٌ جدّاً بين جزائريّيْن وأكراد عراقيّيْن، لأسباب أجهلها، حجارةٌ تتطاير في السماء، ونسوةٌ يصرخنَ، ومهاجرون يحملون عصيّاً وسكاكين، جلبوا معهم من الأوطان التي هربوا منها عصبياتهم وأمراضهم، تدخّلت الشّرطة، وأخذتْ معها مجموعة من الشباب.

هدوءٌ نسبيٌّ، حيثُ انتقلْنا للإقامة، أغلب المقيمين سوريون وأفارقة وبعض الجزائريّيْن، استقبلَنا عمّار الطلياني بحفاوة، ورحّب بنا، عمّار (47 سنة) من باب الزوار "الجزائر العاصمة"، دخل ساموس صيف سنة 2016، عاش في إيطاليا لفترة تتجاوز 12 سنة، ليرحل إلى الجزائر سنة 2008، لم يعثرْ على وظيفةٍ تُناسبه، اشتغل عامل نظافة في المطار، ثمّ في بيزيريا، ليُغيِّر النشاط إلى بيع الفواكه قبالة أحد مساجد باب الزوار، يحلمُ بالعودة إلى إيطاليا التي يشتاقها كثيراً، ويتحدّث لغتها بطلاقة، ثمّ تاجر في الثياب، حاول الخروج بلا فائدة، ملامحُه بريئةٌ وطيّبة، يتحدّثُ لهجةً عاصميةً دافئةً، يدخِّن قليلاً، ويحبّ القهوة، يرتدي ثياباً رياضيةً أغلب الوقت، ويعتني كثيراً بنفسه. في الخيمة نفسها، ينام معه إلياس، شابٌّ ثلاثينيٌّ من تيزي وزو، يأتي ليلاً في الغالب، في شهر ماي الذي كان سيدخل علينا، تكون قد مضت على وجوده سنة في ساموس، عانى كثيراً للوصول إلى الجزيرة، جرّب أربع مرّاتٍ برّاً لدخولِ التّراب اليوناني، كلّها أخفقتْ، آخرها تعرّض لضربٍ شديدٍ من حَرَس الحدود الأتراك، طرحوه أرضاً، وداسوا بأحذيتهم على وجهه وصدره وكامل جسده، اعتقدوا أنّه المهرّب، قضى شهرَيْن في سجن "اليابنجي" باسطنبول. بعد خروجه منه اتّجه إلى أزمير، بقي هناك أشهر عديدة، إلى أن غادر إلى ساموس في المركب نفسه الذي نقل سيد علي وصدّام وعبدو، قدّم طلب لجوءٍ بصفة مسيحي مضطهَد في بلاده، يضع بمحاذاة سريره إنجيلاً، يُتقن الفرنسية جيّداً، رحّب بنا هو الآخر، وَفيٌّ للخمرة، ومُدخِّنٌ شَرِهٌ، لا يتوقّف عن مكالمة زوجته الفرنسية،

ولا يمرّ وقت إلّا وترى سمّاعات في أُذنيه، يضحك، يصرخ ينفعل تارة حدَّ كسر الهاتف، متعلّقٌ جدّاً بزوجته، ويحلم بالوصول إليها، إلياس اقتطع تذكرة عبورٍ إلى أثينا، لكن شابّاً جزائريّاً أفسد عبوره، حيث طلب منه أن يُدخِّن معه "رني تما خو" بعد أن تسلّل وسط الرّكّاب في الميناء، ولم يبقَ له الكثير على مدخل الباخرة، انتبه لهما رجل الأمن بعد أن سمع لهجتهما التي توحي بأنهما مهاجرَيْن، طلب منهما العودة إلى المخيّم. يحكي إلياس هذه الواقعة بمرارةٍ شديدة، جعلتْهُ يُغيِّر موقفه من بني جِلْدَتِهِ، وجعل مسافة بينه وبينهم؛ إلياس بملامح أمازيغية صارخة، وجه أبيض، طول معتدل، وعينان عسليَّتان، يتحدّث بلكنة قبائلية.

خلفَنا يقيم سيد علي وعبدو وحكيم من بوفاريك هو الآخر، بجوارهم يوسف أو "يويو" كما يناديه رفاقه مع مجموعة من أبناء الشلف، ناحيةَ اليمين مجموعةٌ أخرى من بوفاريك، بجوارهم كرديٌّ يُدعى "أبو سليمان" بشاربِ أسود كثيفٍ، وعينَيْنْ خضراوَيْن، يحمل كثيراً آلة "البزق"، ويتاجرُ في الهواتف.

بداية شهر ماي، وصل مركب آخر، تحسّنت الأحوال الجوّيّة، القارب كان على مَتْنه بانغو وعائلته وصلاح السّودانيّ وعبدو الأوغندي، بعد التحقيق بحث عنّا بانغو، وعندما رآنا بالمخيّم لم يتوقّف عن عناقنا هو وزوجته حتّى إنّه بكى، كان سعيدا جدّاً بوصوله إلى ساموس، منحوه خيمةً خلف سيد علي ورفاقه.

تقريباً في كلّ ليلة يذهبُ سيد علي إلى الميناء، وبجواره تتوقّف الشّاحنات التي تنتظر البواخر، أحياناً يذهبُ إلى مواقف شاحناتٍ أخرى تقع خلف الجبل المقابل لساموس، لكنّه يعودُ دوماً خالي الوفاض، يرافقه عبدو وحكيم.

هناك مدينةٌ خلف ساموس تُدعى "كارلوفاسي" ، تبعدُ عنها بـ 60 كم، وتقعُ ضمن طريق الباخرة، بها موقفٌ للشّاحنات، نادراً ما ينجحُ الجزائريون في التّسلّل إلى البواخر، رقابةُ الجيش مشدّدة مع الكلاب، لن يرحموا مَنْ يمسكون به، احتقانٌ شديدٌ في المخيّم، مناوشاتٌ لا تتوقّف بين الجزائريّيْن فيما بينهم وتارة مع الأفغان، الكلّ هنا يهابهم، ولا يتعامل معهم إلّا بتحفّظ.

في طريق العودة من مخبزة "ماميتا"، التقيتُ أبو علي، كان سعيداً بإقامته بعيداً عن بؤس المخيّم، عثر على مُحامٍ سوريٍّ، يقيم في الجزيرة، ووعده بالحصول على لجوء بعد أن قدّم استئنافاً عقِب رفض طلبه الأوّل.

- يلّا اتفضّلوا على الغدا، يا شباب.

- تسلم أبو علي، فرصة أخرى.

- أبواب البيت مفتوحة أمامكن في كل وقت، إذا ما ظبطت معكن بيت أبو علي مفتوح

- ربّي يخلّيك.

أبو علي يخشى من بصمة دبلن التي تظهر في دول الاتّحاد الأوروبي لكلّ مَنْ يحصل على لجوء في إحدى دوله، وغالباً ما يتمّ إرجاع صاحبها إلى البلد الذي قدّم فيه بصماته أوّل مرّة. لكن ابنه في أوروبا طلب منه أن لا يقلق ، فهناك محامون ألمان تدفع لهم 3000 أورو مقابل تكسير البصمة. ثمّ حدّثني عن المترجم سيِّئ السّمعة الذي التقيناه أوّل يوم في مقرّ الشرطة، وكيف عرض عليه إخراجه من الجزيرة رفقة عائلته مقابل مبلغ من المال؛ بإمكانه فعل ذلك عبر رشوة شرطة الميناء أو تزوير أوراق اللجوء.

كلّ شيءٍ جائز، الفسادُ مستشرٍ جدّاً، والكلمةُ النّهائية للأمن اليوناني،

ولا سلطة للمُفوّضيّة السّامية لشؤون اللاّجئين التي تبقى شاهد زُورٍ، جُلّ مهامّها توفيرُ الإطعام والمبيت للمهاجرين، قرارُ منحِ اللّجوء جزءٌ كبيرٌ منه يعود لمصالح الأمن التي ترسلُ ملفّات اللّجوء إلى أثينا، لتُدرَس هناك. أخبرني موظّفٌ نرويجيٌّ في منظّمة "أطبّاء بلا حدود" عن المضايقات التي تتعرّض لها منظّمته، حتّى إن نشاط المنظّمة هناك كان يتعرّض للإيقاف أكثر من مرّة، ولم يجد حرجاً في وصف المخيّم بـ "السجن". كما أن الصحافة ممنوعةٌ من الدخول إلى المخيّم حتّى لا تقف على حجم التجاوزات في حقّ المهاجرين.

حصل عمر على لجوء وعبد الرحمن كذلك، عمر يشتغل كحلّاق في المخيّم، من أجل جمع المال، والانتقال إلى أثينا، عبد الرحمن يتحدّث عن شقيقه الذي يشبهه كثيراً، وينتظرُ وصوله إلى أثينا، ليُرافقه إلى ألمانيا، وفد آخر من المهاجرين وصل صباحاً، صادفتُهُ في طريقي إلى المطعم، أغلبُهم من العراق.

عبد النور البومرداسي هو الآخر حصل على لجوء بعد أن تردّد كثيراً على العيادة النَّفسِيّة، وادّعى أنّه يعاني مشاكلَ نَفْسِيَّة عديدة، بسبب ظروف أُسَرِيّة، نصحني مرافقي بضرورةِ المحاولة، بواسطة تذكرةٍ، يقطعها عبدو بوثيقة اللّجوء التي حصل عليها، عمّار الطلياني فَقَدَ الأمل تماماً في الوصول إلى أثينا، ومواصلة مسيرته، لا يملك المال الكافي، المبلغ الذي تمنحه شهريّاً منظّمة "samaritanspurse"، الذي لا يتجاوز 90 أورو لا يفي بالغرض، بالكاد يكفيه لاقتناء السّجائر والثياب المكدَّسة أسفل سريره، معظمُها لم يُبَعْ، قرّر بكلّ حزمِ العودة إلى الجزائر رغم كلّ ما ينتظره هناك، قدّم طلبَ لجوء لحظة وصوله الجزيرة، لكن طلبه رُفض، لا يوجد مَنْ يرسل له مالاً، يعرف إيطاليا، اشتغل عنده في "تشيتا دي كاستيلو"

وسط إيطاليا، لكن هاتفه ضاع منه، طلبتُ منه أن يُحدِّد لي موقعه بالضّبط في هذه المدينة، ويذكر مكان مميّزاً فيها حتّى نعثر على مَنْ يدلّنا عليه، وبعد بحثٍ في خرائط غوغل، عثرنا على بارٍ في قلب المدينة بعنوان إلكتروني ورَقْم هاتف، سجّل عمّار هاتف البار، واتّصل، ردّت عليه امرأة لم تقدّم له ما يريد، وفي كل مرّة تقطع اتّصاله، حزم عمّار أمتعته، وتقدّم بطلبِ عودةٍ طوعيةٍ إلى مكتب منظّمةِ الهجرة الدّوليّة التي تُشجِّع وتُسهِّلُ عودة المهاجرين إلى أوطانهم، وتمنحُهم مبلغاً من المال،

500 أورو بالنسبة إلى الجزائريّيْن.

كان هناك متطوّعٌ نرويجيٌّ مع زوجته، متعاطفٌ كثيراً مع القضية الفلسطينية، يتحدّث قليلاً العربية، تقريباً في كلّ أُمسيّةٍ يتجوّل في المخيّم، ويردّد "قهوة، شاي"، يوزّعها بالقرب من المطعم، رجلٌ بغاية الطِّيبة والتواضع.

لم تُفلح جهودنا في إقناع عمّار بالعدول عن قرار العودة إلى الوطن، "مافيهاش خو، لواحد دار لعليه والله غالب"، وقرّر الذهاب بعد أسبوع، قام بالإجراءات كلها، قدّم لمكتب منظّمة الهجرة الدّوليّة نسخاً من شهادة ميلاده، وبطاقة التّعريف وصلَتْهُ من الجزائر، ومرّ كذلك على الطبيب.

هناك عشرات الجزائريّيْن مثله قرّروا العودة، حُججهم واحدة، الطّريق صعب، ليس فقط من ساموس إلى أثينا، حتّى طريق البلقان، فهو مُقفَل، بدليل "موسى القبائلي" الذي غادر الجزيرة قبل أشهر، وعاد يومها إلى المخيّم رفقة الشرطة بعد أن وصل إلى مدينة "لويان" على الحدود بين مقدونيا وصربيا، بسبب بصمة ساموس الجنائية التي ظهرت للشّرطة اليونانية في مدينة سالونيك شمال شرق اليونان.

"حمو" ابن مدينة بشّار هو الآخر صار مُخضرماً هناك، لم يستوعب قرار عمّار المُفاجِئ، جاء ليودِّعَهُ ويرافقَهُ إلى الحافلة التي تنتظرُه، ودَّعَنا عمّار، وعانقَنا بحرقة، اعتدْنا على حضوره وأحاديثه عن حياته في إيطاليا وفرنسا وخبرته هناك، "اتهلا في روحك"، لم أقوَ على توديعه حزناً على ما ينتظره في الجزائر، سيقضي عمّار ليالٍ في "التميمة"، وهي زنزانة تابعة لشرطة ساموس ريثما يتمّ تحويله إلى مخيّم موندليزا خارج أثينا، ليمرّ هناك على قنصل الجزائر في اليونان، ويمنحه وثيقة "أمر بالعبور"، تُسهِّلُ عودته إلى الجزائر.

بانغو يتردّد كثيراً على مكاتب المُفوّضيّة السّامية لشؤون اللاّجئين، من أجل الحصول على لجوء، لديه ملفٌّ ضخمٌ، يضمُّ أدلةً عن تعرُّضه لاضطهاد عِرْقِيٍّ ودِيْنيٍّ في الكونغو، ثمّ إن زوجته ناشطةٌ سياسيةٌ هناك، ابنته "بيبيشا" مكثتْ أسابيع فقط في المخيّم، لتغادر إلى أثينا بعد أن وصلتْها هويّة فرنسيةٌ مزوّرة من زوجها المقيم في فرنسا، موح الشلفي ورفاقه غادروا بعد نجاحهم في الاختباء داخل شاحنة بضائع دخلت الباخرة دون أن يتفطّن لهم رجال الأمن، خروجهم حفّزَنا كثيراً ..

قلب في ساموس وعين على أثينا

كلابُ السّلطة تُطاردُني
الكَهَنَةُ يهدرون دمي
المحاكمُ كلُّها تطلبُني
أتوسّلُ إليكِ، سيّدتي ساموس
اقبلِيني لاجئاً عاطفياً، اختار منفاه الأبدي بين عينَيْكِ.

قرّرتُ أخيراً المحاولة. لا فائدة من الانتظار، الأوضاع في المخيّم تتفاقم يومياً. فكّرتُ في المحاولة، بواسطة تذكرة، اتّفقتُ مع عبد النور على أن نلتقي صباحاً، من أجل التّوجّه إلى وكالة سفرٍ، ليقتطع لي تذكرة. الباخرةُ تأتي مرّتَيْن أسبوعيّاً "الأحد والخميس"، دخلتُ إلى الوكالة، سألتُ الموظّفة عن توقيتِ قدوم الباخرة، وأجابت بأنّها ستأتي بعد ربع ساعة، اتّفقْنا على التّوجّه إلى الميناء لمعاينة حركةِ رجال الأمن، والبحث عن منفذ للتّسلّل من الحاجز الأمني، وإن تمّ ذلك سيأتي خلفي عبد النور ومعه التذكرة، أُسلِّمها لسيّدةٍ تقفُ عند مدخل الباخرة، كانت تظهر من بعيد باخرةٌ تابعة لشركة Hellenic Seaways، لم يبقَ الكثير على وصولها إلى الميناء، كانت تنفثُ دخاناً أسود من مدخنتها الحمراء.

رست عند الميناء، جريتُ أنا وعبد النور نحوها، لكنّنا وصلْنا متأخّرَيْن، ولم يكفِ الوقت للتّسلّل إلى الميناء، حتّى الباخرة استغرقتْ وقتاً قصيراً

هناك، وفي الممرّ المؤدّي إلى بوّابة الباخرة كان يقف شرطيان فقط، تفصلنا عنهما حوالي مئة متر فقط، اقتربتُ قليلاً، عددٌ قليلٌ من الرّكّاب ينزلون، وآخرون يصعدون، شاحناتٌ تدخلُ، وأخرى تخرج، مكتبُ بيع التّذاكر هناك مُغلَق؛ يا له من حظّ "مافيهاش خو، وصلنا روطار" قال عبد النور، "معليش خيرها في غيرها ".

عُدْنا إلى المخيّم، اشتدّ الحَرُّ، ولم نعد نتحمّل المكان، من مكبّرِ الصّوت بدأت المناداة على مَنْ حصلوا على لجوء وإذن بمغادرة الجزيرة إلى مدينة "كافالا" شمال اليونان، وإلى العاصمة أثينا في رحلة جماعية، تُنظِّمها المُفوّضيّة السّامية. التقيتُ صلاح السّودانيّ الذي اشترى ماكينة حلاقة، وبدأ في التّجوّل بين الخيام رفقة بقية الحلّاقين الذين ازدهر وجودهم، كان قد قدّم بدوره طلبَ لجوءٍ، بحُجّة أنّه تعرّض للتعذيب في سجون حسن البشير. وبعد أيّامٍ حصل على الموافقة؛ "بالنّسبة إليّ، لا أريد لجوءاً منهم، ولا أرغب أن أُضيِّعَ وقتي معهم، لم أعدّ يوماً نفسي منكوباً، حُرّيّتي لا تتقيّدُ بوثيقة سخيفةٍ، تراقبُ حركاتي، سأخرج قبلكَ، والأيّام بيننا"، هكذا قلتُ لصلاح الذي اكتفى بالابتسامة.

حازم وسالم غادرا أخيراً كما أخبرني شابٌّ غليزاني، وصلتْهما هويّات يونانية مزوّرة من أثينا، ونجحوا بفضلها في السّفر إلى كافالا عبر الباخرة.

اتّصال آخر مع عزيز، لم يأتِ بالجديد بعد أن طلب المهرّب "محسن" في أثينا مبلغ 800 أورو، لكي يأتي إلى ساموس، ونخرج معه بواسطة هويّات يونانية مزوّرة؛ لم أهضم الفكرة، لكنّني تركتُها كحلٍّ أخير.

صدّام زاد انفعاله أكثر بعد أن تمّ نقل زملائه القُصَّر إلى المنزل المخصّص لهم في المدينة، حيث يحصلون على خدماتٍ جيّدة، ومعاملةٍ

خاصّة، شعر أنّه يتعرّض لانتقام من الأمن اليوناني، بسببِ مناوشاته الكثيرة، آخرها كانت في الليلة السابقة، وانتهت بتدخّل الشّرطة، نصحتْهُ محاميةٌ يونانيةٌ تُدعى "سارة" بطلب لجوءٍ حتّى ينحرّر من جحيم المخيّم؛ شعر بأنّه وحيد بعد أن غادر صديقه ابن براقي إلى أثينا، ونجح في تضليل أمن الميناء بهويّة مزوّرة وبالعصا الطِّبِّيَّة التي كان يمشي بها تمويهاً.

شاعت أخبارٌ كثيرةٌ عن حدوثِ سرقاتٍ في المخيّم، يقومُ بها بعضُ الجزائريّيْن داخل المخيّم وفي المدينة، آخرها استهدفت خيمةَ أبو سليمان الكرديّ الذي سُرقت هواتفه كلُّها، كلّ جزائريٍّ كان محلّ شبهةٍ من المهاجرين ورجالِ الأمن على حدّ سواء، كثُرت الشكاوى ضدّ الجزائريّيْن بسببِ سرقاتٍ مزعومة، أصبحت تُؤرّقُ الأمن اليوناني، معظمُ المهاجرين الجزائريّيْن يقيمون جنوبَ المخيّم، على يسارهم شاليهات الأكراد والقُصَّر والعائلات.

أخبارٌ مفرِحةٌ مع كلّ جزائريٍّ ينجحُ في الوصول إلى أثينا، مواقفُ الشّاحنات تكون مكتظّةٌ بالمهاجرين ليلاً، والتّسلّل داخل الشّاحنات المعبّأة بالبضائع والفولاذ والنّفايات اختراعٌ جزائريٌّ خالص، مؤخّراً بدأ الأفغان والباكستانيون في السَّيْر حذو الجزائريّيْن والتّوجّه باكراً قبلهم إلى "البارك"، الأمر الذي كان سبباً في حدوث مناوشاتٍ وعراك ينتهي بطردِ غير الجزائريّيْن منه، باستثناء المغربيّيْن والتّونسيّيْن، فهم أقربُ وجدانيّاً ونَفسِيّاً إليهم؛ وحدةٌ عاطفيةٌ لافتةٌ قائمةٌ بين شبابِ المغرب الكبير في المخيّم، تشعرُ أنّهم أبناء بيئة واحدة، عن نفسي كنتُ أميل فطريّاً إليهم.

تعرّض محلٌّ في ساموس للسّرقة والتّهمة لصيقةٌ بالجزائريّيْن طبعاً، بالإضافة إلى إشاعة عن تعرّضِ سيّدةٍ يونانيةٍ الليلة الفائتة لاغتصابٍ جماعيٍّ من طرف شبابٍ جزائريٍّ ثمل؛ بيني وبين نفسي صدّقتُ أمر السّرقة، أمّا

الاغتصاب، استبعدتُهُ تماماً. كانت السّرقة تتمّ أحياناً في المخيّم وخارجه، ويقوم بها أفرادٌ يُعَدّون على أصابعِ اليد، لكنْ، لا يمكن أن يعاقَب بقية الجزائريّيْن بذنبِ هؤلاء.

هذه الأحداث كلُّها باتت تحدِّياً للأمن اليوناني الذي أزعجهُ وجودُ طائفةٍ من المهاجرين، تنتمي لبلدٍ بعينه، تثيرُ مشاكلَ داخلَ المخيّم وفي المدينة وعند الميناء؛ وتطوّر موقف الأمن اليوناني من الجزائريّيْن إلى تنظيم مداهمةٍ فجائيةٍ ذات صباح من عطلةِ نهاية الأسبوع، استيقظْنا على عبارة "stand UP" وطَرْقٍ شديدٍ على أبوابِ الخيام.

المكان مُطوّقٌ تماماً، ومن النواحي كافّة، ولم نجد مخرجاً نهربُ منه، جِيء بقوّات مكافحةِ الشَّغَب، يرتدي أفرادها خوذاتٍ بيضاء مع دروع زجاجية، أغلبهم بأجساد ضخمة، يتقدّمهم الضّابط ستافروس. بعد أن فَقَدْنا الأمل في الهروب إلى الغابة المجاورة، فتحْنا الباب، طلبَ الشّرطيّ الضّخم المنفعل أن نبقى خارجاً بعد أن سلّمْناه خرطية ساموس، دخل خلفه آخر بزيٍّ مَدَنيٍّ، يضعُ كمّامةً في أنفه، ويرتدي قفّازاتٍ طبِّيَّة، سَحَبَ الأغراضَ كُلَّها، وعَبَثَ بالفراش، كان يبحثُ عن سكاكين أو موادّ مسروقة من المدينة، لكنّه لم يعثرْ على شيء.

في بقيةِ الخيام، تمّت العمليّة نفسها، عثروا في بعضها على قِطَعٍ زجاجية وسكاكين طَبْخٍ وقضبان حديدية، تُرِكَت على جنبٍ مع أصحابها الذين وُضِعَت لهم أصفاد، واقتادوهم خارج المخيّم، وبعد أن فرغوا من التّفتيش، طلبوا منّا أن نسير في اتّجاه مقرّ الشّرطة.

سمعْنا أيضاً أن الليلة الماضية شهدت عمليّة سطوٍ طالت محلاً لبيع الكحوليات والتّبغ، وقيل أيضاً إن مجموعةً من الجزائريّيْن قاموا بها. في

المخيّم تُباع سجائرٌ مهرّبة ومسروقة وأنواعٌ مختلفة من الخمور والهواتف والثياب، في معظمها يُسرَق من محلّات ساموس، لم أتأكّد من هويّة اللّصوص، لكن إصرار الأمن على توجيه التّهمة للجزائريّيْن بدت لي غير عادلة، فالسّرقة هناك لا تقتصر على جنسٍ معيّن، وإن كان بعضُ الجزائريّيْن لهم خبرةٌ واسعةٌ فيها، وتتمّ باحترافية عاليةٍ، وهذا معيبٌ، لأنّها تُسيءُ لكلّ جزائريٍّ، ولأنّنا أصبحنا محلّ شبهة من المهاجرين ورجال الأمن الذين كان سلوكهم عدوانيّاً جدّاً مع بعض الشباب؛ لم يلمسْني أحدٌ منهم، تذكّرتُ هاتفي الذي نسيتُهُ تحت الوسادة، اعترضَ طريقي أحدُهم، لكن ستافروس تدخّل، وطلب منه أن يسمح لي بالعودة إلى الخيمة لجَلْبِ هاتفي.

دخلْنا مقرّ الشرطة، جلس الجميع في الرّواق الذي جلسْنا فيه أوّل يوم، كان ستافروس يتأمّلُ وجوهنا جيئةً وذهاباً، يرافقُه المترجم سيِّئ الصيت بكل خضوع ودُونيّة، كان يمشي خلفَ سيّده، ويُوشوش في أُذنه، أخذوا أكثر من شابٍّ خلف الرّواق للتحقيق مع كلّ واحدٍ على انفراد؛ جاء دوري بعد أن وقعَ اختيار المترجم عليّ، وراح يسألني:

- أنت باين محترم وواعي قولي اشكون اللّي سرق وتعرّض للمرأة؟

- لا أعرفُ أحداً، ولستُ مسؤولاً عن أيٍّ كان هنا، أتحمّلُ مسؤوليتي كاملةً، إن وَجَدتَ ما يُدينني.

لم يردّ بكلمة، تقدّمَ منّي ستافروس، صافحني بقوّة، وربّتَ على كتفي، وقال:

- أنتَ بخير؟

- بخير، شكراً.

- يمكنكَ أن تنصرف.

- شكراً لكَ.

لم يعثروا على شيءٍ، كما أن معظَم مَنْ كان بالتحقيق غير مَعنيٍّ بما يُفترَض أنّها سرقةٌ أو اغتصابٌ، قام بهما جزائريّون. ضجيجٌ في الرّواق وإطلاق النكات والسّخرية من المترجم.

بعد مغادرة ستافروس مقرّ الشّرطة وقعت مناوشةٌ بين شابٍّ جزائريٍّ طلب من شرطيٍّ قارورة ماء، ليقوم هذا الأخير بوَضْعها في الأرض، ورَفْسها تحتَ السّياج بشكلٍ غير لائق، استفزَّ الجميع، ليردّ له الشَّابُّ القارورةَ بالطريقة نفسها، وتعال بعدها صراخٌ جماعيٌّ قويٌّ "one, two three, viva l'Algérie"، مشهدٌ غرائبيٌّ ونادر لا يفعله إلّا "الدزيريا" بتعبير التّونسيّيْن، ما دفع شرطيّاً لتصوير المشهد بهاتفه.

لاحقاً، خرجَ الوضع عن السّيطرة، حاول البعضُ التّسلّق من السّياج والهرب، والبعضُ راح يحكُّ عينَيْه، ويتثاءب، وآخر يشمتُ بألفاظٍ نابيةٍ رجال الشّرطة. كان وجودنا مع ما يقوم به معظم الشّباب، يُسبِّبُ الصداع لأفراد الأمن، وفي محاولة منهم لامتصاصِ غضب الشباب، جلبوا لهم وجبات الإفطار، تشاوروا فيما بينهم، وقرّروا عدم استلامها، وكلّ مَنْ يقبلُ بها "خائنٌ وقوّاد"؛ لكن الجميع استجاب لنداء التّمرّد، بقي الأكل مكدّساً، وبجواره شابٌّ أفغانيٌّ تعرّض لشتّى ألوان التصفير والشَّتْم والسّخرية من الحراقة المتمرّدين، ليغادر بعدها مُطأطأ الرأسِ تحت صيحات الجزائرييّنْ وأنظار الشّرطة التي وقعتْ معهم مجدّداً في مشادّاتٍ كلامية بعد أن فَقَدُوا السيطرة على الوَضْع، كان بعضهم يرتعش، وآخر يحاول التّهدئة، اقترب أحدهم بدا محترماً، وسأل سليم المَدعوّ "فوندام".

- ماذا تريدون بالضبط؟

- نريدُ المغادرة، لا علاقة لنا بما يرتكبُهُ غيرُنا.

انتهت المشادّة الكلامية بين أفراد الشرطة بالموافقة على الإفراج عن مثيري الفوضى. كان شرطيٌّ يقف أمام البوّابة، على يساره علبُ الفاصولياء مع الخبز والمياه، ينتظرُ توزيعها على المارّة، تجاهلَهُ الجميع، ولم يأخذ أحدٌ شيئاً منها، وخرجوا بالأهازيج والصيحات نفسها وسط استغراب سكّان المخيّم ودهشتهم. حراڤةٌ بكل ما للجزائري من "تسنطيح" وشراسة واندفاع. وبقيتُ على رأيي في عدم استيعاب تلك الاتّهامات خاصّة ما تعلّقَ بالاغتصاب، ربّما كانت حُجّةً لتبرير اقتحام وتفتيش الجزائريّيْن. كان من بين الموقوفين "يويو"، وآخر من قسنطينة، مضى على غيابهم أكثر من أسبوع، سيُرحَّلون إلى تركيا، تمّ التضحية بهم وتقديمهم للقيادة، لكونهم يقفون وراء السّرقات والمشاكل، هكذا بكل ظلم ودون تثبّت.

بعد هذه الواقعة تملّكتْني رغبةٌ عارمةٌ في الهروب مهما كانت الطريقة، ومهما كلّفتْ، لم أتقبّل أن أدفع ثمنَ ما يقوم به غيري.

الباخرة أو "البابور"، كما يشتهي الحراڤة مناداتها، تأتي مرّتَيْن أسبوعياً، ومع انتهاء الربيع وبداية الصيف، يصبحُ مجيؤها شبه يوميٍّ، تصدرُ هديراً، يبعثُ أملاً كبيراً بدواخلِ الحراڤة. وبعد المداهمة الصّباحيّة تلك تكرّرت أخرى بعد أسابيع، ثمّ صارت مألوفةً لنا، لكنها مزعجة.

لم يتغيَّر الروتين في الجزيرة، نومٌ وسهراتٌ طويلة مع الدومينو، وسباحة شبه يومية في البحر في ساموس. تصالحتُ مع البحر، وصرتُ أنتقمُ منه عبر القفز من عُلوِ شاهق، نكايةً بأهواله التي سلّطها علينا قبل وصولنا إلى الجزيرة.

ساموس تستعدّ للصّيف، يقوم الناس وأصحاب المحلّات والملاهي بطلاء الجدران والواجهات، يُركِّزون كثيراً على اللّون الأبيض الناصع مع سطحٍ، يكون باللّون الأزرق، ويصبحُ أجملَ على النوافذ والأبواب مع بساطة الديكور وتنوّعِ المأكولات وجودة الخدمات.

- ليوم كاين خرجة يقول مرافقي.

- أيا مليح على ربيّ.

- بصح رانا بزاف، فايتة لعشرين.

- معليش لمهم يسلكو جماعة منّا.

- راني رايح أنا وسيد علي وعبدو، وكاين مراد وخوه نتع بوفاريك.

- أوك ربيّ يسهّل، معليش روح معاهم بلاك تنجحو.

موعدُ قدومِ الباخرة صار قريباً، إنّها الحادية عشر ليلاً، غادر سيد علي وعبدو الخيمة والبقيّة غادروا سرّاً قبله للاختباء في الشّاحنات، كنتُ على تواصلٍ معهم بالهاتف، وكُلّي أملٌ في نجاحهم، خاصّة مَنْ مضى على وجوده وقت طويل.

- ألو، سيد علي.

- لاباس بخير خويا.

- كاش جديد؟

- كاين كاميون واحد بصح رانا بزاف، جماعة راهي مخبّية مليح بلاك ينجحوا، والدولة راهي قاوية والغاشي بزاف.

- الله يجعل لخير، منطّولش عليك خويا ربّي يوفقكم.

تكدّس العشرات داخل الشّاحنة المعبّأة بخردةِ الحديد، منهم مَن اختار مكاناً جيّداً، لا تصل إليه الشّرطة، ومنهم مَنْ بقي عالقاً أسفله أو في مكانٍ مكشوفٍ. وصلت الباخرة، وأفرغت حمولتَها من المسافرين والبضائع، شاحناتٌ تغادر، وأخرى تستعدّ للدخول، بما فيها تلك التي يتصارع حولها الحراقة، من أجل الظّفر بعبورٍ مجّانيٍّ إلى أثينا، اشتغلَ محرّك الشّاحنة، واقترب منه أفراد الشّرطة بكلابهم، وبيدهم مصابيح إلكترونية وعصي، وجدوا بجانبِ الموقف القريبِ من الميناء عدداً كبيراً من المهاجرين الذين كانوا يتوقون لفرصة المرور، لكنّهم قاموا بطَرْدهم إلى الغابة المحاذية للميناء، ولم يجرؤوا على السَّيْر خلفهم.

بدأ أفراد الشّرطة في تفتيش الشّاحنات، عثروا فيها على عددٍ من المهاجرين، أغلبهم تعرّضوا للضّرب والدّهس بالأرجل، فيما نجا أكثر من عشرة كانوا مختبئين بشكل جيّد، عاد الذين أخفقوا في الالتحاق بالباخرة، بعضهم سعيدٌ بنجاح رفاقهم، والبعض الآخر يندب حظّه، ويتطلّع لمحاولة أخرى.

مرّة أخرى، روتينٌ قاتلٌ، سباحةٌ ونومٌ وتجوالٌ قليلٌ في ساموس، حصل بانغو رفقة زوجته على لجوء، كان سعيداً جدّاً، وسيغادر هذا الأسبوع، كان يتردّد كثيراً على خيمتنا، ظلّ وَفيّاً لطيبته ومرحه وكرمه، وأحياناً تُقدِّم لنا زوجته طبق الأرز بالدجاج، ونُكرمها بالقهوة والفواكه. نصحَني مرافقي بالمحاولة مع رفيقنا الكونغولي مساء ذلك اليوم في الرّحلة التي ستُشرف عليها المُفوّضيّة السّامية، كانت الحافلات ستأتي عند مدخل المخيّم، لتنقل اللاّجئين إلى الميناء، ومنه إلى مُدُن يونانية أخرى عبر الباخرة. ودّعنا بانغو بحرارة شديدة رفقة زوجته. حاولتُ التّسلّل إلى الحافلات، لكنْ، بلا

فائدة. كانت هناك موظّفة أمنية تنادي على اللاّجئين، ولم يصعد أحد إلّا بعد سماع اسمه. اتّفقتُ مع بانغو على أن نلتقي في الميناء، ليُسلِّمني تذكرة بعد أن أتجاوز المعبر، وزوجته اقترحت أن أختبئ في حقيبتها الضّخمة ممّا أثار ضحكي. ركبتُ تاكسي، ووصلتُ الميناء قبل الحافلات، كان معي شابٌّ من عنابة، وآخر مغربي، نزلا قرب موقف الشّاحنات للاختباء فيها لاحقاً.

الميناء شبهُ خالٍ إلّا من بعض المسافرين، عائلَتَيْن مع أطفالهم. نقطة بيع التّذاكر مغلقة، لم يبقَ لي إلّا انتظار بانغو، لأتسلّل معه، وعند مجيء الحافلات ونزول اللاّجئين لمحتُهُ هو وزوجته يجرّان الحقائب. في بار الميناء، التقيتُ فتاة من الغرب الجزائري، ثلاثينيةٌ حصلت على لجوء، وتستعدّ للمغادرة إلى كافلا، طلبتُ قهوة وقارورة مياه صغيرة، وسحبتُ علبة سجائر مالبورو من حقيبة يدها.

- واش حاكمة؟

- غاية.

- راني حاب نطلع للبابور بصح الدولة؟

- أنت وزهرك، خليني نسبق ونقولك، إذا حكمت نشرلك بيدي.

- صحيتي بنت بلادي، bon courage.

أمنٌ كثيفٌ في البوّابة، راقبتُ الوضع لدقائق، حاجزٌ ظلّ في مكانه، وسيّارة أخرى غير بعيدةٍ، يراقب ركّابها الوضع. لا يمكن التّسلّل، رقابةٌ أمنيةٌ مشدّدة. ودّعتُ بانغو وزوجته، كنتُ أتظاهر بالحديث في الهاتف حتّى لا ألفت انتباه شرطيّ كان يرمقني بنظراتٍ لا تتوقّف، فكّرتُ في العودة

إلى المخيّم بعد نصف محاولة، ثمّ سألتُ صاحبة بار الميناء عن سيّارات الأجرة التي تأتي إلى الميناء.

- هل أنتَ مستعجل؟

- نعم.

- سأتّصل بأحدهم، قد يشتغل الليلة؟

- شكراً.

بعد لحظاتٍ، كان التاكسي عند الميناء، أربعينيٌّ مرح، اعتقدَ أنّني موظّفٌ أُممي، ربّما خدعَتْهُ هيئتي ونظّارتي الطِّبِّيَّة، تحدّثْنا عن المهاجرين في ساموس، لم يُخفِ تعاطفه معهم، واستغرب وجودي هناك لأكثر من شهرَيْن، وعاب على سلطات بلاده بيروقراطيّتها. دخلتُ على الرّفاق في الخيمة بعد أن اعتقدوا أنّني غادرتُ.

- ليوم مزيرة في البارك غاشي كبير والدولة في كل مكان الكاميون اللّي تخبّيت فيه ما قلّعش. قال لي سيد علي.

- معليش فرصة أخرى. أجبتُهُ.

عمّار الطّلياني وصل موندليزا، وزارهم القنصل، وينتظر فقط موعد تذكرة سفره إلى الجزائر، إلياس مُحبَطٌ جدّاً بعد أن رُفِضَ طلب لجوئه، فكّر في اقتناء هويّة فرنسيّة مزوّرة، تعينه على التّحرّر من كابوس الجزيرة، وصل قاربٌ آخر يضمّ جزائريّيْن، أحدهم من تيزي وزو، وآخر من العاصمة "مرزاق الحراشي"، أربعينيٌّ أصلع، فَقَدَ بعض أسنانِه الأمامية، تمُيّزُه بُحَّة في صوته، كان يبيع الملابس في أحد الأسواق الشّعبيّة بالعاصمة قبل أن تُغلقه

السلطات، أخفق في العبور إلى بولونيا عبر أُوكرانيا سنة 2014، طيّبٌ ومرحٌ وكريم وحكاياته لا تنتهي، كان معه شابٌّ من سطاولي بالعاصمة، ادّعى في العيادة أنّه يعاني من مشاكل صحِّيَّة في رئَتَيْه، قضى ليلةً في ساموس، وفي اليوم الموالي، نجح في الصعود إلى الباخرة بعد أن اقتطعَ له عراقيٌّ تذكرة. تزايد وصول العائلات السّوريّة من تركيا ما دفع الشّرطة لإفراغ خيامٍ عديدة، وتكديس أصحابها في خيامٍ أخرى.

عبدو الأوغندي حصل، هو الآخر، على لجوء، يتيحُ له القيام بِلَمّ شملِ مع زوجته التي سبقتْهُ إلى السّويد قبل سنة، التقيتُهُ في مدخلِ المخيّم، وسُعدتُ بقُرب لقائه مع عائلته. صدّام كان يتردّد على خيمتنا، مُنطوٍ في معظم الوقت، لم تظهرْ بعد نتيجة المقابلة مع مكتبِ اللّجوء، كان يعتقد أن النّتيجة ستكون مُخيّبة، وقرّر المحاولة عبر الشّاحنات، وكان له ما أراد بعد أيّام فقط، فقد نجح في مغادرة الجزيرة رفقة شبابٍ من تيارت، فرحْنا لخروج صدّام وتحرّره من قرف المخيّم: "لعقوبة لنا" قال مرزاق. أبو علي هو الآخر حصل على لجوءٍ رفقة عائلته. مغادرتهم إلى أثينا كانت قريبة، وأصرّ أن نبقى على تواصل، وسأل إن كنّا نحتاج شيئاً ما. رجلٌ نقيٌّ جديرٌ بوطنٍ، يليق بأحلام أبنائه.

انخفض عدد الجزائريّيْن، هناك مَنْ عاد إلى الجزائر، وهناك مَنْ تمّ ترحيله قسراً إلى تركيا، والبقيّة القليلة بقيت في المخيّم، وأقلّيّة نجحت في الوصول إلى أثينا ومُدُن يونانية أخرى. السلوكيات نفسها، اندفاعٌ وترويضٌ. كلّ مَنْ يحاول أن يتسيَّد عليهم وتردّد مستمرّ على "البارك" رغم وحشيّة الأمن والجيش اليوناني. مضى على شهر ماي أسبوعان، ساموس المثيرة في قمّة أناقتها وعُريها، ملاهٍ وحانات ومطاعم مكتظّة بالسّيّاح من جنسياتٍ مختلفة جاؤوا إليها بحثاً عن دفئها وهدوئها. أجسادٌ بيضاء ناعمة ممدّدة على

شواطئها النّقيّة، وأخرى تسبح في البحر الذي كان يظهر شفّافاً من الأعلى، صفاؤه لافت، أعماقه تظهرُ بتفاصيلها، حيتانٌ وحصى وشعب مرجانيّة.

لم تتوقّف الشّرطة عن إزعاجنا، هذه المرّة أرادوا منّا تغيير مكان إقامتنا إلى شمال المخيّم وترك خيامنا لعائلاتٍ سوريّة وعراقية. المكان الجديد عبارة عن شاليهات عتيقة جدّاً، مضى عليها أكثر من عقدَيْن، على جدرانها أسماء مهاجرين مرّوا من المكان، تواريخٌ عديدة أقدمها يعود لسنة 2001، أدعيةٌ وخرائط ورموز عاطفية وكتابات بالفرنسيّة والإنجليزية والعربيّة تشتم اليونان، وأخرى تحملُ أسماء الدّول الأوروبية التي حلم هؤلاء بالوصول إليها.

كان يقيم هناك مهاجرون من الباكستان والأفغان والبنغال، بعضهم غادر الجزيرة، والبعض الآخر عاد إلى الوطن، تمّ تعويضهم بالجزائريّيْن والمغتربين والتّونسيّيْن. اجتماعُنا في مكانٍ واحد، بقي هادئاً لأيّام قليلة، حرودي ابن تيزي بمرحه المجنون يشرف على "المرميطة"، كان طبّاخاً في الجزائر، قامتُهُ معتدلة، وملامحه قبائلية (أمازيغية)، وطقم أسنان يستعمله نادراً.

الحياةُ في الشاليه رتيبة، مكيّفُ هواءٍ، يُشجِّع على قيلولةٍ طويلة، في اللّيل كان الوقت يمضي مع الموسيقى ولعب الدومينو الذي يعشقُهُ كثيراً موسى العائد قبل أسابيع من صربيا، لم يكن ابن بومرداس متأثّراً أو يحسّ بالخيبة، بل كان يطمح للتجربة مرّة أخرى بكل عزيمة.

مضى على وجودي بالمخيّم أكثر من شهرَيْن، وبدأتُ أشعرُ بالقلق خشية ترحيلٍ مُفاجِئ إلى تركيا، ومنه تبخّر حُلمي، لكنّني قرّرتُ أن لا أستسلم، وأن أحاول وأحاول، فلستُ أقلّ شأنا ممّنْ نجحوا في الهرب من الجزيرة، لكلّ واحد منّا فرصتُهُ، وربّما فرصتي لم تكن قد وصلت بعد.

بعد تناوُلِ وجبة العشاء، غادرتُ أنا وسيد علي ومرافقي في اتّجاه "البارك". كانت السّاعة العاشرة ليلاً، المدينةُ شبهُ فارغة، موقف الشّاحنات يقعُ خلف المدينة، والطّريق إليه يستغرقُ نصف ساعة من المشي، كلّما تقدّمْنا في المشي، زاد ارتفاع الطّريق، وكأنّنا نتسلّق جبلاً.

بعد الابتعاد عن المدينة، دخلْنا زقاقاً ضيِّقاً جيِّداً، يسمح بعبورِ الدّرّاجات النّاريّة فقط تفادياً لطريق السّيّارات حتّى لا نصادف دوريّات الشّرطة، مررْنا عبر أزقّة ومتاهات متعرّجة وضيّقة ومن نوع معمارها التّركيّ كانت تبدو وكأنّها "القصبة" الموجودة بالعاصمة الجزائر، ربمّا كان الأثر التّركيّ الوحيد في الجزيرة الذي بقي من سلطة الأتراك على ساموس. مكانٌ نظيفٌ جدّاً وهادئ، واصلْنا المشي بعد استراحةٍ عند منحدرٍ، يضمّ أشجاراً كثيفة، وكان سيد علي دليلنا، لكونه يعرف الطّريق، بحُكم مجيئه أكثر من مرّة.

ظهر لنا مفترقُ طُرُقٍ من بعيد، الكلاب على يسارنا تنبحُ بشدّة، قطعْنا الطّريق، ومشيْنا على يمينه، وكلّما ظهرت إنارةٌ للسّيّارات، نقفز بسرعة بعيداً عنه. من بعيد، شاهدْنا مركزاً تجاريّاً، بمحاذاته موقف شاحنات صغير، انتظرْنا حارس المركز حتّى غيَّر مكانه، لنقفز خارج الطّريق، وبقيْنا تحت شجرةِ زيتون بين الحشائش الكثيفة، لنتفادى ترصُّد الشّرطة لنا، تسلّل سيد علي إلى "البارك"، ليكتشف طبيعة الشّاحنات المتوقّفة، وبحُكمِ خبرته، عرف أنّها كانت ستُغادر ليلتها، استغرق هناك ربع ساعة ليعود بعد أن تأكّد بأن الشّاحنة الوحيدة هناك معطّلة، غيَّرْنا مكاننا بسرعة، وكلاب المنزل القريب منّا تنبح بدون انقطاع. اخترْنا مواصلة المشي في غابة على يمين الطّريق، ظهرت من بعيد محطّة وقود، نزلْنا لنواصل المشي، وعند سماع صوت سيّارة أو رؤية إنارة قادمة، نقفز خارج الطّريق حتّى تمرّ. "البارك"

الآخر فارغ أيضاً. عُدْنا من الطّريق نفسه، نمشي قليلاً، وعند عبور سيّارات، نتسلّل بسرعةٍ نحو صخرة أو شجرة، لكي لا يرانا رجال الشّرطة القساة، بقيْنا نسيرُ بالطّريقة نفسها حتّى تجاوزْنا المركز التّجاريّ. الأمر الأهمّ أنّنا عرفْنا مكان مواقف الشاحنات، وأملنا في أن نُوفَّق في الخطوة القادمة.

لم أكفّ عن المحاولة، بعد العشاء المتأخّر غالباً، حضّرْنا أنفسنا، ارتديْنا ثياباً جديدة، وأخذْنا حقائبَ ظَهْرٍ خفيفةً، بها مياه وملابس رثّة، لاستعمالها عند صعود الشّاحنة بينما الجديدة في حقيبة الظَّهْر، لنرتديها بعد وصولنا إلى أثينا قبل القفز من الشّاحنة بعد خروجها من الباخرة، كما فعل مَنْ سَبَقَنَا.

توجّهْنا إلى موقف الشّاحنات عند الميناء، كنتُ مع سيد علي وعبدو وهشام المغربي، سمير براقي "الطويل" وآخر من تبسة يُدعى "بوتشي"، مشيْنا خلف بعضنا، ومتباعدين، ومَنْ في المقدّمة يقوم بدور الدّليل، وغالباً ما يكون مُخضرماً في الجزيرة، يعرف الطّريق جيّداً، لنعتمد عليه في التّواري عن أنظار الشّرطة. عندما وصلْنا، وجدْنا عدداً كبيراً من الجزائريّيْن والمغربيّيْن يتصارعون على الشّاحنة الوحيدة التي تنتظر الباخرة، كنّا أكثر من عشرين، بعضهم صادفتُهُ لأوّل مرّة، وجوهٌ مُتعَبةٌ تسعل وتدخِّن وترتدي ثيابا باليةً، على يسار الشّاحنة جبل يهربون إليه عند مجيء أمن الميناء. لم أتحمّس كثيراً، كنّا كثيرين، والشاحنة الوحيدة حجزت أماكنها القليلة، لم أرغبْ في مزاحمة هؤلاء الرّفاق.

السّادسة صباحاً، ساموس العذبة تمسح عينَيْها، وتتثاءب، جلستُ لفترة مع الرفاق أسفل أشجار الصنوبر، واحتسيتُ معهم قهوة، المكانُ يتيحُ مراقبة حركة الطّريق التي تظهر أسفلَنا، "مافيهاش يلا نرجعو، وإن شاء الله اللي ركبو يسلكو"، قال سيد علي.

عُدْنا إلى المخيّم، أخذتُ حمّاماً، وغيَّرتُ ملابسي، وأخفقتُ في النّوم.

من بين الجزائريّيْن الذين وصلوا في تلك الفترة كانوا قُصَّراً، ومعظمهم غادر ساموس. في اللّيلة الماضية، اختبأ أكثر من عشرة في شاحنة متّجهة إلى أثينا، وقد حدثت طوارئ في المخيّم، بسبب هروبهم، كانوا سيحصلون على امتيازات وجوار سفر يوناني بعد أقلّ من سَنَتَيْن، إلّا أنّهم اختاروا استكمال رحلتهم تاركين خلفهم تعاسة المخيّم وكلّ المغريات التي وعدوهم بها.

أضربَ موظّفو الأمم المتّحدة عند مدخل المخيّم مطالبين بدفع مستحقّاتهم، الأفارقة أيضاً حملوا لافتات تُندّد بتأخّر حصولهم على لجوء.

بعد حصوله على لجوء، كان صلاح يتحضَّر للمغادرة إلى أثينا رفقة صوماليّيْن يقيمون معه في الخيمة نفسه، أخبرني عن ثلاثة مصريّيْن كانوا يقيمون بجواره، غادروا ذلك اليوم بعد أن اقتطعوا تذاكر عبر مدينة كارلوفاسي.

جزائريٌّ بلحيةٍ خفيفة، وُضِعَت أصفاد في يده، وأمامه رجل أمن، وصل صباحاً من أزمير، وبرفقته قائد المركب الذي قامَ مجهولون بالإبلاغ عنه للأمن اليوناني، باعتباره المهرّب؛ هذه الحادثة حزَّتْ في نفسي كثيراً، وتألّمتُ من أجل ذلك الشّابّ الذي سيحكم عليه بأكثر من عشرين سنة بتهمة التهريب أو ربّما يطاله "حكم الديناصورات" كما هو معروف في اليونان. العلاقة بين الجزائريّيْن وبقيّة العرب في المخيّم كانت متوتّرة غالباً، وهناك حاجزٌ قائم بينهم، ووجود أكثريّة جزائرية، جعل الموجودين يتفادونهم.

"لا أمان في هؤلاء الذين تحمل أبناءهم وتحمي أُسرهم من المهرّبين، وبعد وصولكَ إلى الجزيرة، يُبلّغون عنكَ"، يقول جزائري متذمّر من هذا السّلوك الدّنيء.

كانت تحدُث مناوشاتٌ في الشاليه بين الجزائريّيْن لأسبابٍ تافهة وصبيانيّة، جعلتْني أغضب منهم، وأعمل جاهداً من أجل الهروب. عبد النور البومرداسي غادر إلى أثينا، وصلاح يستعدّ أيضاً للمغادرة ذلك المساء، مرزاق الحراشي تمّ إنزاله من الشّاحنة قبل دخولها الباخرة، حكيم غادر اللّيلة الماضية عبر ميناء "بيتاغوريو" شرق ساموس بعد أن تسلّل وسط الرّكّاب.

باخرةُ العُبُورِ

في الأسبوع الأخير من شهر ماي، كنتُ أتردّد على مكاتب السّفر، وأسأل عن مواعيد قدوم البواخر، ولم أتوقّف عن تأمّل تلك الباخرة الأنيقة بطولها وشكلها المذهل، سطحُها أبيضُ، بمدخنة حمراء عالية، والأزرق الدّاكن يُلوِّن جزءَها السّفليّ، يجتهدُ عمّالها في تنظيفها وغسلها قبل إقلاعها.

قرّرتُ المحاولة عبر تذكرةٍ يقتطعها لي سليم المَدعوّ "فوندام"، ابن البويرة الذي مضى على وجوده عام تقريباً، وكان سيغادر ذلك المساء في رحلةٍ تُنظِّمها المُفوّضيّة بعد أن حصل على لجوء. الرّفاق كلّهم في الشاليه حفّزوني على المحاولة، سيد علي أعطاني حقيبةَ ظَهْر وبوتشي أحضرَ ثيابه كلّها، وطلبَ أن أختار أجملها، ومرزاق كذلك وعمورة التيارتي منحني عطراً. في المساء، نزلتُ إلى المدينة برفقة سليم الذي اقتطع لي تذكرة بالباخرة التي كانت ستغادر في حدود الثانية والنّصف صباحاً. كنتُ متحمّساً جدّاً، وكُلّي أملٌ في النّجاح. حلقتُ ذقني، وارتديتُ ثيابي. كانت الثانية صباحاً، الشّاليه شبهُ فارغ إلّا من حاتم العراقي الذي فضّل الإقامة مع الجزائريّيْن. الأغلبية غادرت لتُجرِّب حظّها. جاء عبدو ليُغيِّر ثيابه، وليتوجّه إلى الميناء، كان آخر مَن التقيتُ، قبل أن أغادرَ، سحبَني إليه، وقدّم لي حبّاتٍ من "ليريكا"، قال إنّها تُعين على تجاوُز الخوف، لم أهضم الفكرة، كوني أرفضُ تعاطي الحبوب والمهلوسات مهما كانت الضّرورة،

لكنّني، مع ذلك، ابتلعتُ أربع حبّاتٍ دفعةً واحدة، "زيد هذي برك باه تجوز"، قال عبدو. يا له من شرّير! لم أتوقّفْ عن الضحك، عانقتُهُ، وودّعْنا بعضنا، على أمل اللّقاء في أثينا.

ساموس فارغةٌ تماماً، مررتُ على أزقّتها، وبدأ مفعول "ليريكا" يعبثُ برأسي، وشعرتُ بحماس واندفاع وعطش، لن يُطفئَه إلّا شلالٌ من النّبيذ اليوناني الشّهيّ، حاولتُ أن أحفظ في ذاكرتي بعضاً من تفاصيل ساموس التي أحببتُها، وبادلتْني الحُبّ والحنان لأكثر من شهرَيْن، دخلتُها ليلاً، وسأغادرها ليلاً مثل أزمير. تأمّلتُ بَحْرَهَا، أنوارُ الشّارع التي تُراقِص الموج، العَلَمُ اليوناني الذي يُلوِّح لي، الشّرفات بضوئها الخافت، وداعاً ساموس، وداعاً آلهة الجمال والأنس والدفء.

اقتربتُ من الميناء، لم أصادفْ رجال أمن أو الجيش، كانت الحركةُ قليلةً، باستثناء دخول الشّاحنات وخروجها، كان هناك عددٌ قليلٌ من المسافرين، بقيتُ بجوار قاعة استقبال أُدخِّن وبيدي رواية بالإنجليزية للبريطاني لويس دي بيرنياريس "طيور بلا أجنحة" عثرتُ عليها في شاليه الأفغان، وعلى ظَهْري حقيبة، قدّمها لي سيد علي، كنتُ أرتدي سروالَ جينزٍ داكناً، وسترةً سوداء، ونظّارة طبِّيَّة.

تقدّم الرّكّاب صوب مدخل الباخرة، سرتُ خلفهم، أدهشَني "بارك" الباخرة، كان واسعاً جدّاً، جدرانُه بيضاء ناصعة، لم أستفقْ من دهشتي حتّى طلب منّي رجلُ أمنٍ تقديم التّذكرة للسّيّدة التي كانت تقف بجواره عند غرفة صغيرة، لم أردّ عليه، سحبتُ من جيب سترتي التّذكرة، وقدّمتُها لها، أخذتْ نصفها، وتركتْ لي النّصف الآخر دون أن أُكلّمها حتّى لا أفضح نفسي، طلبتْ منّي أن أصعد كما فهمتُ من حركة يَدَيْها، وجدتُ نفسي أمام سلالم معدنية، تؤدّي إلى أعلى، لم أُصدِّقْ أنّني

داخل الباخرة، صادفتُ رجلاً بزيٍّ أنيقٍ وهو نازل، تجاهلتُهُ، وتظاهرتُ بتصفُّح الكتاب، وصلتُ إلى قاعة واسعة، لم أفهم شيئاً، فتلك أوّل مرّة في حياتي أركب باخرة، تصرّفتُ بعفويةٍ رغم الدّهشة التي تملّكتْني نسبيّاً. على يساري مكتبٌ يطلّ منه رجل طويل، بشَعْر أبيض. تقدّم منّي آخر، وتحدّث باليونانية، وفهمتُ منه أنّه يطلبُ منّي أن أتفضّل بالجلوس، لم أردّ عليه، اكتفيتُ بهزّ رأسي شاكراً إيّاه، أيّ حركة غريبة كانت ستُثير شكوك عمّال الباخرة، وقد يطلبون منّي كَشْف هويّتي، سرتُ في رواقٍ صغيرٍ حتّى وصلتُ قاعةً واسعة بكراسي جِلْدِيّةٍ حمراء، خلفها نوافذُ واسعةٌ من الزّجاج، ويقابلها مقهى صغير.

جلستُ لدقائق غير مستوعبٍ أنّني على ظَهْر الباخرة التي عانى الرّفاق كثيراً، وتحمّلوا ضرب الأمن من أجل دخولها، طلبتُ قهوة وقارورة مياه، ليركيا بدأت تستفزّني كثيراً، وتعبثُ بقلبي، وتدفعني للحركة والنشاط، كان إلى جواري سيّدةٌ أربعينية تعبث بلوح إلكتروني، وغير بعيدٍ عنها مجموعة شباب يونانيّيْن. وصلتْني مكالمةٌ من سيد علي الذي كان في الميناء، كان سعيداً جدّاً من أجلي.

- بصحّتك خويا، قلع البابور وراه رايح كارلوفاسي.

- يسلمك خويا والله ماعلابالي راني فالبابور طلعت مقبيل.

يضحك كثيراً:

- مبروك عليك خويا تستاهل علابالي عبدو دارها بيك وكثرلك ليركا ربّي يوفقك خويا وأبقى في بلاصتك وما تكثّرش الدّوران حتّى توصل، تسع ساعات راك في أثينا.

- إن شاء الله خويا، لعقوبة ليكم وش درتو فيها؟

- الكاميون اللّي طلعنا فيه ما قلعش، معليش فيها خير إن شاء الله، كي توصل أثينا عيط لحكيم راه تما روح عندو.

- إن شاء الله خويا لعزيز، سلم على لخاوة وربي يسهلكم وتسلكو كامل.

أحببتُ هؤلاء الشباب، أحببتُ حماستَهُم، إصرارَهُم على النجاح، شجاعَتهُم، كرمَهُم، أحببتُ رعونتَهُم، نزقَهُم، جنونَهُم، غضبَهُم، شراستَهُم، أحببتُهُم بعُيُوبِهم كلّها.

الباخرة فيها عددٍ قليلٍ من الرّكّاب، معظمُهم استسلم للنّوم، أمّا أنا، فقد عجزتُ عن البقاءِ جالساً، خرجتُ إلى سطحها المطلّ على البحر بعد أن غادرتْ كارلوفاسي. بردٌ خفيفٌ، وحركة الباخرة سريعةٌ، والفجرُ آتٍ من بعيد. أخفقتُ في النّوم، لكنّني كنتُ سعيداً.

وداعاً، ساموس العظيمة، أيّتها العالقة في صدري كَعِطرِ هيلينيّةٍ فاتنةٍ، تسكبُ لي النّبيذ مع الفجر.

مرّت الباخرة على جُزُر عديدة، توقّفتْ في خيوس ورودس، منازل بيضاء تطلّ من الجبل. نمتُ لأقلّ من نصف ساعة، وعدتُ مجدّداً إلى سطح الباخرة، وجدتُ هناك شباباً من سورية، سبقَ أن رأيتُهم في المخيّم، شابٌّ كرديٌّ مع زوجته، تحدّثْنا قليلاً، واستغرب صعودي الباخرة بلا وثيقة لجوء، اتّصلتُ بحكيم، وشرح لي تفاصيل الوصول إلى فندق "التّونسيّة".

الساعة العاشرة صباحاً، كانت الباخرة تتركُ خلفها خطّاً أبيض من زَبَدِ البحر، تظهرُ جبالٌ، ثمّ تختفي، وتمرّ بجوارنا بواخرُ أخرى، صعد إلى السّطح معظم الرّكّاب، طَلَبَة وأفراد بالزّيّ العسكري، وعائلات وسيّاح، شدَّهم منظر البحر، وسحبوا هواتفهم لالتقاط الصور. لحظاتٌ ممتعةٌ حقّاً. لم أشعر

بالوقت. كنتُ أحدّدُ مسار الباخرة عبر خرائط غوغل. أستمعُ للموسيقى من الهاتف، وأُدخِّن وأتأمّل جميلاتٍ بجواري، يعبثُ الريح بشُعُورهنّ. بدأت تظهر من بعيدٍ كتلةٌ بيضاءُ، تجلسُ أسفل الجبل، وبلا معالمَ واضحة، اقترَبْنا كثيراً من ميناء أثينا المتواضع، ترسو به سُفُنٌ عديدةٌ، أثينا لم تكُن كما توقّعتُها، لا شيء مميّز يلفتُ الانتباه، فقط البياض يحيطُ بها من كل ناحية. توقّفت الباخرة. وضعتُ الحقيبة على ظَهْري، ودخّنتُ آخر سيجارة على سطح هذه المدينة العائمة.

عند مدخل الميناء وجودٌ كثيفٌ لرجال الأمن، يُنظّمون حركة المسافرين، أخذتُ تاكسي برفقة السّوريّ وزوجته باتّجاه حَيّ أمونيا، كان الجوّ حارّاً جدّاً، والرطوبة خانقة، زحمةٌ قليلة في الطّريق السريع، والسّائق يتحدّث قليلاً من الإنجليزية. وصلْنا أمونيا. دفعْنا للسّائق أجرتَهُ بعد محاولة تحايلٍ مخفقة منه، كنتُ مُتعَباً قليلاً، بعد حوالي عشر ساعاتٍ من السفر، نمتُ فيها أقلّ من ساعة.

تقريباً كنتُ في قلب أثينا، حديقةٌ يجلسُ فيها أفرادٌ، يشبهون العرب، تقدّمتُ منهم، وبعد التّحيّة، اكتشفتُ بأنّهم من سورية. سألتُهم عن فندق التّونسيّة، ولم يعرفه أحد، توجّهتُ إلى ملهى بعد أن قطعتُ الطّريق، الشيء نفسه، السّوريّ الذي سألتُهُ لا يعرفُ الفندق، لكنّه أرسل معي شابّاً يُوصِلُني إلى شارع أمونيا، حيث الجزائريون هناك بكثرة. شكرتُ مرافقي الشّابّ على جهده الطّيّب. أمونيا شارعٌ طويلٌ بمحلّاتٍ كثيرة، في معظمها مطاعمٌ ونقاطُ بيعِ الهواتف، وكلّها للأفغان والباكستانيّين والهنود، روائحُ التوابل تزكم الأنوف، وحديثٌ بلهجات ولغات مختلفة، خضرٌ وفواكه معروضة على الرّصيف، شبابُ يبيعون السّجائر والحشيش بمختلف أنواعه، المكان قذر جدّاً. كان هناك مجموعةٌ من الشّباب الجزائري، اقتربتُ منهم، ودلّوني على مكان الفندق.

شوارعٌ طويلة بتفرّعات كثيرة، الطّريق الذي طلب منّي الشّابّ الجزائري في أمونيا السَّيْر معه، انتهى عند كنيسةٍ ضخمة، أسفلها حديقة، لمحتُ أشخاصاً، افترضتُ أنّهم جزائريون من وجوههم وطريقة جلوسهم. سألتُ:

- سلام بخير خويا، معليش نسقسيك.

- تفضّل خويا.

- أوتيل التّونسيّة وين جاي؟

- علابالي ما تعرفوش تبعني.

شابٌّ عشرينيٌّ من تيارت طحنتْهُ أثينا، كما بدا من خلال ملامحه والوشم الكثير المنتشر في ذراعه. وصلْنا الفندق، على مدخله شابٌّ جزائريّ، بادلَنا التّحيّة، لم يكن فندقاً كما تخيّلتُ، بل عمارة شاهقة من عدّة طوابق، يرتادها المهاجرون والعاهرات وتجّار المخدّرات والعمّال.

وصلتُ إلى الطّابق الخامس، حيث الغرف التي تُؤجّرها التّونسيّة. خمسينيةٌ شكلها غير مريح، طباعها سيّئة، وتُثرثر كثيراً، تقيمُ بالمكان منذ ثلاثين سنة، برفقة تونسيّةٍ أخرى بلا أسنان تقريباً، ووجه أسمر داكن، وبيدها سيجارة. حجزتْ لي سريراً في غرفة، وبدأت تشتكي من المهاجرين، وراحت تُدقّق في أصلي، إن كنتُ جزائريّاً أو مغربيّاً. ودّعتُ الشّابّ التيارتي، وشكرتُهُ على كرمه.

في الغرفة وجدتُ شباباً عاصميّاً، أغلبهم جديدٌ في أثينا، باستثناء شابٍّ حراشيٍّ (العاصمة) مضتْ عليه سنوات هناك مع آخرين، أحدهم مغربي.

هناك ثلاثُ غرفٍ ومطبخ وحمّام، أخفقتُ في النّوم، كانت السّاعة

الثّانية ظهراً. اتّصلتُ بحكيم الذي انتقل يومها إلى مدينة سالونيك شرق اليونان، ثمّ سمعتُ في الغرفة المجاورة صوتاً بدا لي مألوفاً، اقتربتُ من باب الغرفة، وألقيتُ السلام، كان هناك شابّان جزائريان ومعهما عبدو الروجي ابن باليسترو "الأخضرية/البويرة"، تعرّفتُ عليه من صوته، كان معنا في ساموس، ولم نلتقِ إلّا مرّة أو مرّتَيْن بشكل عابر، وكنّا في الباخرة نفسها دون أن يلحظ أحدُنا الآخرَ.

شحنتُ هاتفي، الغرفةُ كريهةٌ جدّاً، رائحة الأقدام، والفراش يعجّ بجحافل من البقّ والبعوض، تظهر أسفل الشّرفة عاهرات رصيف، معظمهنّ منتهيات الصّلاحيّة، ملامحهنّ مُوجِعة جدّاً، يوجد أيضاً ملهى، وقربه مطعم، صاحبه باكستاني.

لم يقتنع عبدو بالمغادرة إلى سالونيك، كان يفضِّلُ الانتقال إلى مدينة كومينيزيا غرب اليونان، يفصلها عن إيطاليا البحر الأدرياتيكي. لم أتحمّس لفكرته، كوني بلا خرطية، وعدم توفّرها سيزجّ بي في سجون اليونان سيّئة السُّمعة، ظلّ عبدو متمسّكاً برأيه، تجوّلْنا مساء في أثينا، أمونيا تحديداً، حيث كنّا، لم أشعر بالرّاحة في هذا الشّارع المشبوه جدّاً، إنّه نسخة عن أوطان الفساد والتّخلّف والانفلات الشّامل التي هرب منها هؤلاء المهاجرون، مخدّراتٌ، سرقةٌ وإجرام، دَعْشَنَةٌ وصِدَام عنيفٌ مع الحداثة، وأوهامٌ عريضة في أَسْلَمَةِ الآخر، وتدجينه.

اتّصلتُ بعزيز في أزمير، وطلبتُ منه هاتف صديقه محسن الذي يقيم في أثينا، وبسرعة حدّد محسن مكاناً للِّقاء في حديقةِ ناحية ميدان "إكسارخيا".

أثينا مساء مدينةٌ شاحبةٌ بلا ملامح، مُنهَكَةٌ بالديون، وغارقةٌ في

صمت رهيب، يبدّده صراخٌ من أحياء المهاجرين وصيحاتهم وضحكاتِ هيلينيّاتٍ شقروات يتدفّقنَ دلالاً ولطفاً.

أثينا عاصمةٌ لا تَعِدُ بشيء، ولا تفي بشيء، إرثها الحضاري العريق مكدَّسٌ في المتاحف، وأفلاطون يسخرُ من العالم من قممِ جبال الأولمب. كان يظهر من بعيد متحفُ اليونان الوطني، في مبنىً مهيبٍ جدّاً مع حركةٍ كثيفة في ساحته، تمنّيتُ زيارته لولا رجال الأمن الذين كانوا يقفون أمام مدخله. في الحديقة، كانت تجلسُ سيّدةٌ خمسينيةٌ رفقة أخرى، لم تبلغ عقدها الثالث، بيضاء جميلة، بشَعْر وردي قصير وسترة فاتحة، تكشفُ سرّتها. رومانية برفقة صبيٍّ داخل عربته السّوداء، حذّرتْنا من البقاء كثيراً هنا حتّى لا تستهدفنا دوريّات الأمن، وحين عرفتْ أنّنا جزائريان، ضحكتْ، وأخبرتْنا عن صديقها جمال الذي يقيمُ حالياً في باريس، وكيف يُحدِّثها بكلمات نابية من قاموس الجزائريّيْن. لم تُخفِ تلك الشّابّة الرّومانيّة امتعاضها من بؤس الحياة في أثينا، كانت تُدخِّن، وتحتسي بيرةً، نصحتْنا بالتّوجّه إلى جزيرة كريت جنوب اليونان، حيث يتوفّرُ العمل وقبضةُ الأمن هشّة. ودَّعَتْنا بعد أن قبّلتُ صبيَّها البريء الذي لم يكفّ عن الضّحك.

جاء محسن بجسده النّحيل والطّويل، بابتسامة ترتسمُ على شَفَتَيْه، "أهلا وشراكم ça va؟"، تحدّث إلينا باللّهجة الجزائرية، لكونه تعامل لسنواتٍ طويلةٍ مع الجزائريّيْن، ولم يتوقّف عن مدح شهامتهم وبأسهم ووفائهم الجزائري "pas marche arrière"، يبتسمُ وهو يستحضرُ أسماءً جزائريةً عديدةً تعامل معها، جاءت النّادلة، شقراءُ طويلةٌ تبتسمُ بإغراء، وتنتظرُ طلباتنا. محسن ابن كردفان يقيم في اليونان منذ سنوات، يتحدّثُ اليونانية بلكنةٍ سودانية. كان يعاني من إصابةٍ في رِجْلِه. اعتزل التّهريب قبل فترة، ولا يقوم به إلّا نادراً. تخصّصه بيعُ هويّات أوروبية لمَنْ يطلبها،

سِعْرُها من 100 أورو حتّى 500، لم نناقش السّعر كثيراً رغم أنّه عرض مبلغاً بسيطاً، كوننا جزائريَّيْن، لدينا مكانة خاصّة عنده - كما قال -، التّردّد كان بسبب المحاولة في مطار أثينا الدّوليّ دون وثيقة لجوء، وهذا يجعلُنا عرضةً لأصفاد الشرطة، ولم يتحمّس كثيراً محسن، لأنّنا لا نملك هويّات، وطلب أن نحصل عليها حتّى وإن كانت مزوّرة. (الهويّة الأوروبية المزوّرة مع تذكرة سفر لا يجب أن تؤدّي بكَ إلى الموطن الأصلي للهويّة حتّى لا يُفتَضَحَ أمرُكَ، بمعنى هويّة فرنسية، تحجز بها لمطار بروكسل، أو إيطالية تحجز بها لمدريد؛ وهكذا ...).

ودَّعَنا محسن بعد أن منعَنا من دَفْع ثمن القهوة، وألحّ على أن نبقى على تواصل، حتّى وإن اخترْنا وجهةً أخرى. قبل أن نغادر، تقدّم منّا شابٌّ مصريٌّ جميل، لمحتُهُ مرّة في ساموس، وغادرَها قبلنا، لم يجد ضالّته في أثينا، وكان يسأل عن كيفية الخروج إلى إيطاليا، ونصحناه بالتّوجّه إلى باتراس أو كومينيزيا.

لم أشعر بالرّاحة في أثينا، وشدّني الحنين لساموس التي شعرتُ أنّني فقدتُ بعضاً منّي بعد أن غادرتُها. اشتقتُ رَقْصَ نوارسها المشاغبة التي تتحرّش بحوت الصّيّادين وهو يتخبّط في شباكه، اشتقتُ جلسات الدومينو مع موسى ومرزاق وحمو، رفقة السّجائر والقهوة وموسيقى القصبة وأغاني معطوب والرّاي القديم.

ساموس حقيبةُ فرحٍ، وجهُ الله مبتسمٌ مع الفجر، أجراسُ الكنيسة تدقّ صباحاً، ومُسنٌّ يتأبّط ذراع شريكة عمره، ويمشيان بتثاقلٍ صوب قدّاس الأحد .. ساموس عزفُ أبو سليمان الكرديّ على البزق قبالة البحر وتحت المطر .. ساموس عينان خضراوان شبقَتَان، وشامات بُنِّيَّةٌ، ترسمُ فراشات على صدرِ هولندية هربت من صقيع الأراضي المنخفضة .. ساموس في

القلب، يا أكروبوليس المغرور .. في ساموس، تركتُ زوربا هناك، بيده سيجارة مُبلّلة ورملٌ عالقٌ في لحيته البيضاء وخلفَ ظهره آلة السانتوري، يبحثُ عن حانةِ صيّادين قريبة، ليعزف لحن الحُبّ والجُنُون .. في ساموس لا يزال فيتاغورس يحلّ معادلاته الرّياضيّة، وهيرا تجلسُ تحت زيتونة، وتداعب شَعْرها غير آبهةٍ بسخافة الكون.

بعد عشاءٍ في مطعمٍ باكستانيٍّ، اخترنْا طريقاً مليئاً بالحركة حتّى نصل إلى الفندق، وجدْنا في الغرفة وافدين جُدُداً، مغربيَّيْن، وآخر فلسطينيّاً، وشابّاً من باتنة، عاد لتوّه من كرواتيا بعد أن أخفق في الوصول إلى سلوفينيا، المغربيّ هو الآخر تمّ ترحيله من النّمسا، وقبلها من الدانمارك، بسبب بصمة دبلن التي قدّمها في بلغاريا قبل سَنَتَيْن، عاد إلى اليونان، ليحاول مجدّداً بعد أن وجد المغرب أسوأ ممّا تركَهُ، الباتني كان مُثبِّطاً لعزيمتنا في الخروج، وهمستُ لعبدو بتجاهل الحديث معه. الشّابّ المغربي الآخر عاش خمس سنوات في إسبانيا، وطُرد منها، وسُحب منه جواز سفره، بسبب قضية جنائية. الفلسطيني هو الآخر عانى كثيراً في تركيا، وتعرّض لعملياتِ نصبٍ عديدة من المهرّبين. فندقُ هذه العجوز التّونسيّة الثّرثارة معبرٌ دوليٌّ، يمرُ منه اللّصوص والمهاجرون والمهرّبون.

استسلم الجميع للنّوم. مع اقتراب منتصف الليل، وقبل أن أضعَ رأسي على الوسادة، دخل علينا شابٌّ أسمرُ، يرتدي سترةً بيضاء، يُدعى "حقو" بمجرّد جلوسه، وقفتْ عند رأسه التّونسيّة "خلّصني وإلا نعيط للبوليس، يلا يزي من اللّعب، الدزيرية أنتم عييت منكم برشا". أضفتُ مع عبدو بعض القروش لعبد الحقّ حتّى تصمت تلك المزعجة، ولم تغادر إلّا بعد أن استلمت الخمسة أورو كاملةً.

حقو، 33 سنة، جاء من الجزائر قبل حوالي سنة، قضى ثمانية أشهرٍ

في سجنٍ تركيٍّ بعد محاولة سرقةٍ مخفقة، استهدفت سائحاً صينيّاً، وبعد الإفراج عنه، دخل اليونان برّاً وفي جيبه 50 أورو فقط، دخلها ربيعاً، وتاه بين الأحراش والحقول والجبال حتّى وصل قريةً يونانية، ومن محاسن الصّدف، وجد بها جزائريّاً من وهران، متزوّجاً بيونانية، ويقيمُ هناك، أكرمه وأعانه على مواصلة السفر إلى أثينا التي أقام فيها لأربع سنوات قبل أن يرحل إلى الجزائر، يعشقُ أثينا كثيراً، ويتحسّرُ على لياليها اللّذيذة التي اختفت. حقو، عاد إلى اليونان، لينتقل منها إلى فرنسا، جيله الذي عاش معه لسنوات، منهُ مَنْ غادر إلى أوروبا، ومنه مَنْ يُنهي عقوبة السّجن، ودَّعَنا على أن نلتقي صباحاً في أمونيا.

صباحاً أمونيا مزدحمةٌ بالحركة، باعةُ مخدّراتٍ في الزوايا، تتيحُ لهم مراقبةَ الشّرطة، تُجَّارُ الهواتف والملابس المسروقة يتفاوضون على الأسعار. كان حقو يبحثُ عن صديقٍ تركه في اليونان قبل أن يرجع إلى الجزائر ،"راك تشوف يا خويا مكاش اللي يحلبك"، غيابه لسنواتٍ أفقده البوصلة، ويسعى لاستعادة وضعه بالمكان، يفتّشُ عن عالم الأمس، التقى بشابٍّ، بدا من الشرق الجزائري، من خلال لكنة حديثه، خرج منذ أيّام من السجن، لم يهتمّ كثيراً بأسئلة حقو عن رفاقه، كنتُ جالساً بجوار هذا الشّابّ حتّى توقّفتْ درّاجتان ناريّتان تابعتان للشرطة اليونانية، تجمّدتُ في مكاني، حقو وعبدو بسرعة نجحا في التّسلّل بين المارّة، بعد أن شعرتُ بمغادرتهما، رأيتُ أمامي الشّرطيّ الذي كان يضع خوذةً بيضاء، ومعظم لباسه أسود، همس ذلك الشّابّ "ريح كما راك، ما دير والو وما تشوفش فيهم"، عملتُ بنصيحته حتّى ضغط الشّرطيّ الذي كان في المقدّمة على دوّاسة درّاجته النّاريّة، ليسير خلفه زميله، قمتُ بسرعة، والتحقتُ بعبدو وحقو.

- وشبيك علاش بقيت تما؟

- ما انتبهتش، كنت على الأقلّ تغمزني يا خويا.

- ربيّ ستر مكان والو وإلا راك في "ألادابون" (سجن يوناني).

زرْنا مكتب لجوءٍ، عددٌ من العائلات العراقية والسّوريّة برفقة أطفالها تنتظر دورها للمرور عند متطوّعة مغربيّة، تعيش في اليونان منذ فترة، لتحجز لهم موعداً مع المُفوّضيّة السامية في ناحية "أخرنون". وبعد دردشةٍ خفيفةٍ معها، عَدَّت حصولَنا على وثيقةِ لجوء أمراً مستحيلاً، ما دمنا نملكُ بصمةً في الجزيرة، بعد إجابتها، لم يبقَ لي إلّا قضاء ليلةٍ أخرى بالفندق هرباً من دوريّات الأمن المنتشرة في كل مكان.

غادر الغرفة نزلاء الأمس، وجاء شابٌّ تيارتي يُدعى زينو، عشرينيٌّ خجولٌ، ملامحه أوروبيةٌ، كان قد خرج قبل يومَيْن من سجن "دراما" بعد أن قضى فيه سبعة أشهر بتهمةِ إضرام النار في مخيّمٍ بجزيرة "خيوس". يواظبُ زينو على الصلاة، ولم يؤثّر السّجن على عزيمته في الوصول إلى أوروبا رغم ما مرّ به، فبعد الحريق وُجِّهت التّهمة للجزائريّيْن، واعتُقِل معظمهم، وحُوكِمُوا بتهمة التّخريب، وتمّ توزيعهم فيما بعد على سجون يونانية عديدة، أسوؤها "دراما" الذي كان فيه زينو.

السجن قذرٌ جدّاً، وحُرّاسه قُساة، وأغلبُ نزلائه جزائريون، قاموا بإضرابٍ عن الطّعام، وتسلّقوا سطح السّجن، وأضرموا النّار، وهدّدوا بانتحارٍ جماعيّ بعد مضيّ أكثر من ستّة أشهرٍ على وجودهم فيه، ولم يتوقّف تهديدهم إلّا بعد زيارة نائب وزير الدّاخليّة اليوناني الذي وعدهم بإفراجٍ قريب، وهذا ما حصل بعد أسابيع من زيارته، تعلّم بعضاً من اليونانية هناك، وحصل على لجوء بعد أن أجبرتْهم إدارة السّجن على ذلك، رغب زينو في الذّهاب إلى سالونيك بعد أن جدّد وثيقة اللّجوء، ويحصل على خرطية، تتيحُ له التّجوال بحُرّيّة.

زارَنا صباحاً "موح الوهراني"، كان في ساموس، وخرج منها قبل دخولي إليها. كان متوجِّهاً إلى مدينة "باتراس" غرب اليونان، ليحاول مع البواخر المتّجهة من هناك إلى إيطاليا. عبدو كان يرغب في الحصول على خرطية حتّى وإن كانت مزوَّرة، وفضّل البقاء في أثينا، ليغادرها بعد صيام رمضان الذي كان سيحلّ بعد يومَيْن. لا جديد في ساموس، لم يخرج أحد منذ مغادرتي مع عبدو، لا يزال هناك رفيقاي، ينتظران فُرصَتَيْهما، ولم يكفّا عن المحاولة.

اتّفقتُ مع الشّابّ المغربي الذي يقيمُ بجوارنا على أن يقتطع لي تذكرة سفرٍ إلى سالونيك لمساء الغد، البقاء كان يخنُقني أكثر فأكثر، حقو لم يعُد يظهر إلّا قليلاً، وعبدو بقي متمسّكاً برأيه.

جمعتُ أغراضي ليلاً، وأخذتُ حمّاماً، وأتلفتُ خرطية ساموس والهويّة التي قدّمها لنا الأمن اليوناني مع بطاقة ماستر كارد وكلّ ما له علاقةٌ بوجودي في الجزيرة حتّى لا يُفتَضَحَ أمري عند الأمن. أيقظَني عبدو صباحاً:

- سيد علي راه في أثينا وسقساني عليك.

- مليح، مبروك عليه.

سيد علي قضى ليلةً في الميناء حتّى الفجر، وعند مجيء الباخرة، لم تُقلع الشّاحنة التي كان مختبئاً فيها، لكنّه لم يفقد الأمل، وعاد عند منتصف النّهار إلى الميناء، وتسلّل في الشّاحنة نفسها مع شابٍّ من تيارت يُدعى "أحمد"، لكنْ، بعد توقّف الباخرة في خيوس اعتقد أحمد الذي كان نائماً أنّه في أثينا، وقفز من الشّاحنة، ليجد نفسه في قبضة حُرّاس الميناء، أمّا سيد علي، نجح بسرعةٍ في النّزول من الشّاحنة التي بقيت في خيوس، وتسلّل إلى أخرى، كانت تستعدّ للصّعود إلى الباخرة، ولم ينتبِه له أحد،

ليصل أثينا صباحاً. وجدتُهُ مع عبدو في مدخل البناية التي نقيم فيها، كان مُتعَباً جدّاً، رافقناه إلى الغرفة ليرتاح، وغادَرْنا بحثاً عن جزائريٍّ، قيل لنا إنه يبيع خرطيات في أثينا، هاتفه مغلَق، فَقَدَ عبدو الأملَ، واتّجهتُ أنا إلى وكالة "فودافوان" لأشحن رصيدي من النت.

الشّرطة في كل مكان، أفواجٌ من السّيّاح من فرنسا، كندا، بريطانيا مع مرشديهم، ينزلون من حافلات جديدة، ويتّجهون إلى مطاعم وأماكن أثريّة، برفقة آلات تصويرٍ معلّقة في صدورهم.

سيد علي وافق بلا تردّد على السّفر إلى سالونيك، وقرّرْنا المغادرة مساء الغد، وفي اللّيل اجتمع مَنْ كانوا إلى جوارنا حول طعامٍ خفيفٍ، كان سحوراً، استقبلوا به رمضان.

أخذ النّومُ معظمَ النّهار، وخارج فندق التّونسيّة، كان الأمن منتشراً في أغلبِ الشوارع الرّئيسة، الحركة شبهُ مستحيلة بالنّسبة إلى مَنْ لا يملك وثائق مثلنا، نزلْنا إلى محلٍّ على يمينِ الفندق، اشتريْنا فواكه ومشروبات، عبدو اختار الصّلاة والإفطار في مسجد مجاورٍ، يشرف عليه باكستانيون.

اتّجهْنا إلى مطعم مأكولاتٍ خفيفة غير بعيد عن الفندق، صاحبُهُ باكستاني، تناولْنا دجاجاً مَشويّاً وبطاطا مَقليّة، وأوراقاً من الخسّ. بعد الإفطار، اشتريتُ قهوة من ملهىً مجاور، في مدخله فتياتٌ رومانيات وروسيات وجورجيات، يقفنَ على الرّصيف في انتظار زبون ما. جلسْنا خارج المطعم، ندخِّن ونشرب القهوة، ونستعدّ للاتّجاه نحو محطّة القطارات لتوديع عبدو الذي فضّل البقاء في أثينا. وبعد وصوله بلحظات، توقّفت سيّارة شرطة من نوع سكودا، ارتبكْنا، قفزتُ داخل المطعم، وتظاهرتُ بالتّحدّث في الهاتف بالإنجليزية، ووضعتُ بيدي زجاجة بيرةٍ فارغة، كانت

قُربي للتّمويه، سيد علي تسلّل إلى مرحاض المطعم رفقة شابّة، لا تملك وثائق هي الأخرى، ولم أكن أدري أين كانت قبلاً، بعد دخولهما الحمّام، أقفل عليهما صاحب المحلّ الباب، ووقف خارجاً يراقبُ سيّارة الشّرطة، عبدو قطع الطّريق، ووقف في مدخل البناية، يقول صاحب المطعم "u can go out my friends, the police go".

لم ينزل رجال الأمن من السّيّارة، كانوا يتحدّثون مع صاحبة الملهى، قلتُ "ربمّا نجونا المرّة منهم، علينا أن نغادر، يا سيد علي". أثينا أشبه بمعتقلٍ واسع منذ دخلتُها غادرتْني السكينة.

سَحَبْنا أمتعتَنا من تلك الغرف الحقيرة في هذا المبنى الكئيب. غادرْنا خلسة عن التّونسيّة الشّرّيرة حتّى لا تطلب منّا حساب الليلة الأخيرة، سبق وأن فعلت ذلك مع أكثر من نزيلٍ في مزبلتها. ودَّعَنا زينو التيارتي، ووعدَنا بأن يلتحق بنا بعد أسبوع،"اتهلا في روحك عبدو، التلفون بيناتنا، ربيّ يسهّل، سلام".

خرجْنا في اتّجاه نفق المترو للوصول إلى محطّة القطار، من بعيدٍ، تظهر سيّارات شرطة، يقف أمامها عشراتٌ من رجال الأمن، "ماذا يفعل هؤلاء بالمكان؟! وين رحنا لقينا عزرينهم!"، غيّرْنا الطّريق، ولمحتُ سيّارة تاكسي، أشرتُ بيدي، وتوقّفتْ صاحبتُها.

- إلى محطّة القطار، وبسرعة من فضلكِ.

- ok sir ,no problem

وصلْنا بسرعةٍ إلى المحطّة، كان عددُ المسافرين متواضعاً. ويمكن حجزُ تذاكر بدون هويّة كما أخبرني حقو الذي لم أعلم أين اختفى، تقدّمتُ من

الشّبّاك الذي كانت تطلّ منه شقراءٌ جميلة، بعد أن تأكّد سيد علي من خُلوّ المكان من رجال الشّرطة المزعجين.

- مرحبا.

- مرحبا بكَ.

- متى يأتي قطار سالونيك؟

- بعد أقلّ من ساعة.

- ممكن تذكرتَان؟

- ممكن جدّاً.

- شكراً.

دفعتُ ثمن التذكَرتَيْن، وشكرتُ تلك الشقراء. جلسْنا خارج المحطّة في انتظار مجيء القطار. لا يمكن التّحرّك بسهولة في أثينا خاصّة في تلك الفترة التي كانت تعجّ بالسّيّاح ورجال الأمن، ويزداد الوضع إزعاجاً في أحياء المهاجرين. رغبتُ في زيارة معالم أثينا، متحفها الوطني ومَعلَم أكروبوليس وضريح زوربا ومعابد الإغريق، لكنْ، لم يكن متاحاً لي بسبب الوثائق وضيق الوقت، أنا حراڨ في النّهاية، ولستُ سائحاً، له حُرّيّة التّجوال. كان بإمكاني المناورة والتحايل على رجال الشرطة، واكتشاف أثينا أكثر مع حقو الذي يعرفها جيّداً، لكنْ، لم أعبر تلك المخاطر كلّها لهذا الغرض. كان حقو قد أخبرني عن سمسار مصري يتكفّلُ بكراء شقق في أثينا بسعر معقول 150 أورو شهريّاً، لم أهضم الفكرة خشية أن يفترسَني الملل والخمول، وأنسى غايتي.

جلسْنا أقلّ من نصف ساعة، ندخِّن ونراقب حركة المسافرين، ونُحدِّق في الجميلات، ونتجنّبُ الحديث بالعربية حتّى لا نلفت انتباه رجال أمن مندسّين، كما يحدثُ عادة في محطّة الحافلات، حيث تقوم الشرطة بمداهمةٍ فجائية لاصطياد الحراقة.

باقتراب منتصف اللّيل، جاء القطار، شكله متواضع، طلاؤه رمادي، به شاراتٌ حمراء وكتابات يونانية توحي أنه مؤسّسة عمومية، على غرار معظم وسائل النّقل التّابعة للدّولة. صعدْنا، وبدأنا في البحث عن أرقام الكراسي المُدوَّنة في التّذاكر، معظم الكراسي شاغرة في العربة التي جلسْنا فيها، كنتُ أبحث عن سمّاعة الهاتف، وإذا بشقراء ممشوقة تضع حقيبة على ظَهْرها، شَعْرها أصفر ناعم منسدلٌ على كتفَيْها، وشفتان حمراوان نبيذيَّتان، وعينان خضراوان تلمعان، وصدر مُختفٍ تحت سترة سوداء بلا حمَّالات، يرقصُ بِحُرّيّة تامّة، كانت تبتسم بجاذبية، تزيح بؤس أثينا، وتمشي بغنج صارخ، خلفها شابٌّ بطول معتدل، وجسد ممتلئ قليلاً، جلسَا خلفَنا، همسٌ خافت يتسرّب، ونغمات القبلات تتردّد كمعزوفة سفر طويل، أحضانٌ وعناق وجلوس بوضعيّات شبقية، توحي أنها فاكهة، داهمها حَرّ الصّيف، كان الشّابّ بارداً، وكأنّه يقود درّاجة هوائية، ويضعُ سمّاعات في أُذنَيْه، وغير مبالٍ بالعالم، وددتُ أن أصفعه وأسرقها منه، لينفجر سيد علي بالضحك. تردّدْنا كثيراً على حمّام القطار للتّدخين، كانت السّاعة تقتربُ من الثّانية، سيد علي انسحب إلى كراسٍ مجاورة، ونزع حذاءه، وتمدّد لينام. العاشقان غيّرا مكانهما، فقد ضاقت كراسي القطار بتلك الفراشة الثّملة والجموحة التي خيّبها فارسها المتكلِّس، "ربّي يعطي اللّحم اللي ما عندوش سنان" قال سيد علي مبتسماً قبل أن يغطّي وجهه بسترته، ويرحل مع موكب النّوم.

رداءة الشّبكة لم تسمح لي بتصفُّح النت، وتشغيل راديو بي بي سي

عربي الذي أُواظب على سماعه منذ صغري، قرأتُ صفحاتٍ من الرواية التي رافقتْني من ساموس، ولم أنجح في مواصلة قراءتها، على عكس بقيّة الرّكّاب الذين كان معظمهم يطالع كُتُباً ومجلّات بانضباطٍ شديدٍ، ربّما ظروفهم مستقرّة تُتيحُ لهم افتراس الكُتُب، هذا ما أوهمتُ به نفسي بعد أن بدأتُ أشعرُ بالنعاس، وأنا أنظر عبر النّافذة التي لم تكن تبدو المعالم واضحةً خارجها، رأيتُ حقولاً، وضوءاً يظهر من بعيد ويختفي، ومن حين لآخر، يتوقّفُ القطار عند المحطّات، وبعد سيجارة أخيرة داخل الحمّام سافرتُ مع النّوم.

أفقتُ حوالي السّادسة صباحاً، شعرتُ بجسدي وكأنّه ملعبُ كرة قَدَم، بسبب الوضعية الرّديئة التي نمتُ بها، خلف زجاج النّافذة تظهر مبانٍ ريفية متباعدة، وحصير أخضر طويل على مَدِّ البصر. سالونيك ثاني مدينة يونانية بعد العاصمة أثينا، ومن أبرز المُدُن التي عمّر فيها الأتراك كثيراً، ومسقط رأس الزّعيم التّركيّ كمال أتاتورك، يحدُّها من الشرق تركيا، وشمالاً مقدونيا، وغرباً ألبانيا، وهي مركز سياسي واقتصادي وثقافي مُهمّ في اليونان، متنوّعة بشريّاً، وتتوفّر على بنى تحتيّة قويّة، وصروح جامعية عديدة.

السابعة صباحاً، انخفضتْ سرعة القطار، وبدأ المسافرون في سَحْب أمتعهم استعداداً للنزول، كان الجوّ خارجاً متلبّداً، وحبّات مطرٍ تنقر زجاج النّوافذ.

توقّف القطار في محطّته الأخيرة، قبل أن ننزل، راقبْنا المكان، وبعد أن تأكّدنا من عدم وجود الأمن نزلْنا، سحبتُ سيجارةً من جيبي، ومنعني سيد علي من تدخينها "رانا صايمين وشبيك"، "رمضان في البلاد هنا لا"، "مريض أنت"، يضحك سيد علي.

لم أجد رغبةً في الصيام، كما أنّني لم أقوَ على الإفطار، رأيتُ الشّقراء تنزل مع عشيقها وهي في أوج دلالها، تمشي بأناقة، وشَعْرها يداعبه الرّيح، والشَّفَتَان لا تزالان ترسمان فرحاً أخضر.

اليونان بلادُ البحر والشّمس والنّبيذ والفلسفة، باستثناء شُرطتها، اليونان الفاتنة والآلهة التي لا تشيخ جديرةٌ بالحُبّ والتبجيل، روحُ أفلاطون ومثاليّته ترافقكَ أينما حَلَلْتَ.

بعد خروجنا من المحطّة، كان هناك طابورٌ من سيّارات الأجرة، كلّها بلون أزرق مع شارات بيضاء، اتّصلْنا بحكيم، وأخبرناه بوصولنا، وبدوره طلب أن يُكلِّم سائق سيّارة الأجرة حتّى يحدِّد له المكان، وبعد التّفاوض حول ثمن الرّحلة، سرْنا لفترةٍ وجيزة في طريقٍ سريع وسط المدينة، ليتعرّج بين بناياتٍ جميلة حتّى توقّف في مكان مرتفعٍ قليلاً، أسفله تجمّع سكّاني، وبعد لحظات جاء حكيم الذي غادر ساموس قبلنا.

- مرحبا حكيم.

- على سلامتكم، اتفضّلوا.

رافقناه إلى شقّته التي تتكوّن من مطبخ وحمّام وغرفتَيْن، ويقيم معه شابّان من بوفاريك، كانا نائمَيْن.

أخذْنا حمّاماً، وسلَّمَنا حكيم ثياباً جديدة، لنستسلم بعدها للنّوم.

بعد ساعات من النّوم اللّذيذ في غرفة هادئة خالية من ضجيج عشناه في كوخ التّونسيّة، أفقْنا قبل موعد الإفطار بساعة، خرج حكيم إلى المدينة لجَلْب مشروبات وفواكه، وكان زميله في الشّقّة المَدعوّ "الحبشي" يُحضِّر الإفطار، بوراك وشربة وأطباق أخرى بنكهة جزائرية. بعد الأذان مباشرة، وصل

خبرٌ من الجزائر يفيد بوفاة والدة سمير الذي يقيم مع حكيم والحبشي، نزل علينا هذا الخبر كالصّاعقة، فَقَدْنا معه شهيّة الطّعام. سمير اختار البقاء وحيداً في حديقة قريبة، تأثّرنا كثيراً لمصابه، هو لا يملك وثائق، تُسهّل مغادرته اليونان، ولا الوقت يكفيه لإدراك جنازة والدته، بقي معزولاً عنّا، ولم نُوفَّق في الوصول إليه لمواساته وتعزيته بعد أن غادر وأقفل هاتفه حزناً على والدته التي كانت تعاني من سرطان سرق روحها قبل أن ينجح في رؤيتها مجدّداً، الموت يجعلُ الغربة قاسية جدّاً.

في الثّامنة مساء، حملْنا أغراضنا، ورافقَنا حكيم إلى المدينة من أجل المغادرة إلى مخيّم اللّاجئين الذي يقع خارج سالونيك بحوالي عشرة كم. كان "الحبشي" يسير في المقدّمة، ونحن خلفه. بناياتٌ أغلبها مهجور وحركة محدودة. وصلْنا وسط المدينة في ساحة "روتوندا" تحديداً أو كنيسة القدّيس جورجيوس، وهي أقدم بناءٍ في سالونيك. الملاهي منتشرةٌ بكثافة، وتعجّ بالزّبائن، وبين الفينة والأخرى تمرّ درّاجات الشّرطة. على الواجهة البَحْريّة يظهرُ البرج الأبيض أو "ليفكوس بيرغوس"، وهو رمزٌ للمدينة، ويعود للحقبة الفينيقية، تحيط به حديقة، نُصب فيها تمثالٌ للإسكندر المقدوني.

من المعالمِ التي لَفَتَتْ انتباهي أيضاً ميدان "كامارا" أو قوس غاليروس غير بعيدٍ عن الروتوندا، توجد حديقة، تُعَدّ المكان المفضّل لبيع الحشيش، ويسيطر عليها الألبان وبعض الجزائريّيْن. الجميلات في كلّ مكان، معظمهنّ سائحات، بدأت الملاهي في غَلْق أبوابها الزّجاجيّة بعد سقوط المطر، وتظهر من خلالها ألوان زاهية، وشفاه تراقص بعضها، وسُحُبُ دخان السّجائر. سهرةٌ رمضانية غير عادية، قال سيد علي "راح ناكل رمضان معاك أيا نروحو قبل ما تجي الدّولة". ودّعَنا حكيم، وشكرْناه على كرمه هو والحبشي، وطلبْنا منه أن يبلّغ تعازينا القلبية لسمير.

- اتهلاو كي توصلو عيطو.

- ابقى على خير حكيم.

ركبْنا سيّارة أجرة حمراء، سائقها لطيف، بمجرّد ما صعدْنا سيّارته، عرض علينا سجائر، سَحَبَهَا من علبةٍ معدنيةٍ بيضاء فاخرة.

- أنتم جزائريون؟

- نعم،

- جيّد، تشتغلون هنا؟

-لا، مهاجرون وصلْنا أمس.

- الظّروف هنا قاسية، صح؟

- تقريباً، لا تؤثّر علينا كثيراً.

- جيّد، حظّ موفّق، إذنْ.

- شكراً لكَ.

توقّف السّائق الطّيّب بملامحه البريئة عند مدخل المخيّم، دفعْنا له ثمن الأجرة، واستدار بسيّارته، ابتسم، ولوّح بيده مُودِّعاً.

هُرُوبٌ وانتظارٌ

بدا المخيّمُ كئيباً جدّاً غارقاً في ظلامه، تظهر كارافانات بيضاء عديدة، وعلى يمينه بناية ضخمة بلا طلاء، كان سيد علي قبل أيّام قد تحدّث مع مراد ابن بوفاريك الذي غادر ساموس قبلنا بأسابيع رفقة شقيقه زكي، سِرْنا بين الكارافانات دون أن نجد جزائريّاً واحداً، كان هناك مكانٌ يصدر منه ترتيل للقرآن، بعد الاقتراب منه، وجدنا أنّه مُصلّى، يقيم فيه بعض الشّباب صلاة التراويح. سألْنا شابّاً مرّ علينا عن مراد، كان هو الآخر جزائريّاً.

- لاباس خويا، صح فطورك.

- يسلمك خويا، صح فطوركم.

- وين يبات مراد نتع بوفاريك؟

- روح شوي لقدام على ليمين الكارفانة الأخيرة.

- يعطيك الصحة خويا.

بعد الطَّرْق على الباب، خرج زكي بشَعْره المنكوش الكثيف، يرتدي شورتاً.

- أهلا زكو.

- الحمد لله على سلامتكم.

- وشراك خويا؟

- لاباس.

- وينراه مراد؟

- مراد راه في الحبس هزّوه قبل يومين فالطّريق للكامب.

- يا لطيف.

- بلاك يطلقوه.

- هو وزهرو.

- على ربيّ.

- وصدّام وين راه؟

صدّام رقد هنا نهارات وخاف من الدّولة، وراه يبات في الفاغوات (عربات قطار مهترئة غير بعيدة عن المخيّم).

- أمالا نروحو عندو ما دام الدّولة تجي هنا، صحيت زكي.

- روحو واذا ما بان والو ارجعو هنا نلقاولكم بلاصة.

- ربيّ يسترك، وين نلقاو "الفاغوات"؟

- أخرج منّا حتّى آخر كرافانا على اليمين تلقاو واد صغير اقطعوه ومنبعد كملو تمشو حتّى تخرجو فالراية (سكة الحديد)، كملو معاها وديما عاليَمين حتّى تلقاو نتاوعنا تما.

- ميرسي زكي.

بعد الابتعاد عن المخيّم، تدحرجْنا حتّى وصلْنا أسفل الوادي، ثمّ صعدْنا تلّة صغيرة، تؤدّي إلى براري مُوحِلة قليلة، تظهرُ من بعيد إنارة شاهقة، وبعد مشي قليل، ظهرت السّكّة الحديدية.

عرباتٌ عديدة متوقّفة بالمكان، معظمها مهترئ، نوافذٌ محطّمة، وثياب وفراش وقارورات مياه وقناني خمر ملقاة على الأرض، خطوطٌ كهربائيةٌ فوق السّكّة، سرْنا باتّجاه مقطورة كانت تظهر أمامنا، المحطّة كبيرة ومخصّصة لنقل المحروقات والفولاذ والسّلع باتّجاه صربيا، بلغاريا، كرواتيا، سلوفينيا، النمسا، ألمانيا، يتسلّل المهاجرون بين عربات القطار، وبعضهم يختبئ داخل خزّانات الغاز، ومنهم أسفل القاطرات. اقتربْنا من مقطورةٍ بدت محترمة مقارنة ببقية المقطورات البائسة، وجدنا شابّاً تونسيّاً يتحدّث بالهاتف، سأله سيد علي.

- سلام مرحبا بكم.

- صح فطورك.

- يسلمكم اتفضّلوا.

- عندك ماء نشرب؟

- شوف لداخل خويا تلقى قرعة ماء.

- نسقسيك صدّام راه معاكم؟

- صدّام دزيري؟

- صدّام مشى لبارح مع جماعة دزيرية وعراقيّيْن.

- بصحتو.

- وأنتم وينتا تمشو؟

- احنا غير كما وصلنا من تركيا، بلاك نهارات ونسهلو، نستناو يوصلونا دراهم ونمشو

- ربّي يسهّل.

- بلاك نروحو مع بعض، أنا وصاحبي ناويين نروحو بر.

- مليح هكا رنا أربعة كي يوصلونا دراهم نتّكلو على ربّي، وإذا تحبّو تباتو كاين بلايص معنا هنا برك الناموس قاوي.

- تعيش كاين صاحبنا نرجعو عندو.

- ايا ابقاو على خير، صحا سحوركم.

- سلام.

عُدنا إلى المخيّم في منتصف اللّيل، وجدْنا زكي قرب الكارفانة.

- لقينا تما تونسي وصاحبه كان راقد، قالنا صدّام خرج لبارح.

- آ وي، رني هدرت مع ياسين ولد بلادي عندو كرافانة هنا تباتو فيها مع جماعة نتاوعنا غير كما وصلو من تركيا.

- صحيت زكو.

طرقَ سيد علي باب الكرافانة، خرج شابٌّ ثلاثينيٌّ أسمر من البليدة يُدعى محمّد، رحّب بنا، وكان معه شابٌّ من الحراش يُدعى يوسف"وكريم من بئر توتة، منصور من سطيف، فريد من المغرب. تبادلْنا الحديث مع

الرفاق، كانوا طيِّبين جدّاً معنا، جاء زكي ومعه فراشٌ وأغطية، وطلب منّا أن نرافقه إلى غرفة ياسين الذي عزمَنا على السحور.

ياسين شابٌّ عشرينيٌّ من بوفاريك، طويلٌ ونحيلٌ قليلاً، عينان سوداوان بارزتان، وشَعْرٌ طويلٌ، وسيجارة لا تفارق شَفَتَيْه، مضى على وجوده بالمكان عام، ولديه لجوء، غرفتُهُ أنيقةٌ ومرتّبة.

على الطّاولة فواكه عديدة باردةٌ ومكسّرات مع لبن وخبزٌ سوري، كان معه شابٌّ تيارتي يعبث بحاسوب محمول، تبادلْنا الحديث مع ياسين الجزائري دافئ وكريم، لم يكفّ عن تحفيزنا من أجل المغادرة وإتمام الرّحلة، منحَنا سيجارة أخيرة قبل أن يُرفَع أذان الإمساك.

قضيْنا ليلتنا الأولى هناك مع الرّفاق مع توجُّس لا يتوقّف من مداهمة للشّرطة، كنّا نتطلّع للمغادرة إلى مقدونيا من المحطّة القريبة من المخيّم، أفقتُ بعد الظّهيرة. حَرٌّ شديدٌ، لا يبدّده إلّا حمّامٌ باردٌ غير بعيدٍ عن الكارفانة، بقيّة الرّفاق كانوا نائمين.

أغلبُ نزلاء المخيّم سوريون مع أقلّيّة جزائريّة ومغربية وبعض المصريّيْن والعراقيّيْن، ولا وجود للباكستانيّيْن والأفغان، في السّادسة مساء، توجّه الرّفاق إلى بناية مغطّاة بالزّنك، يُوزِّع فيها أفرادٌ من الجيش اليوناني والشّرطة الطّعامَ، التّوزيع يتمّ مع إظهار المهاجر بطاقة صغيرة، بها معلوماتٌ شخصيّة، وتمنَح فقط لمَنْ لديه لجوء أو طرد.

في الأيّام الأولى، كنّا نحصل على الطّعام، بعدها تغيَّر الأمر عند اشتداد التّدافع ومحاولة البعض الحصول على أكثرِ من وجبةٍ، وحتّى يتفادى أفراد الجيش والشّرطة ذلك تمّ إلزام الجميع بضرورة كشف بطاقة الإطعام، فقدتُ رغبتي في التّوجّه إلى هناك، بسبب رعونة وتدافُع البعض

أمام دهشة اليونانيّيْن، ثمّ فضّلْنا تحضير الإفطار داخل الكرافانة، بتكفّل من سيد علي ويوسف الحراشي الذي كان طبّاخاً في الجزائر، كلّ مهاجر له حصّة تقريباً يومياً من الخضار والزيت والمصبّرات، تُشرفُ على توزيعها (الحصّة) متطوّعات كنديات شابّات يافعات ودودات جدّاً وكريمات.

نكهة رمضان حاضرة هنا، ياسين هو الآخر طبّاخ ماهر، كان يتقاسم معنا أطباقه.

مرّ الأسبوع الأوّل بالمخيّم، كانت الحرارة مرتفعة جدّاً، وكنّا نتفادى الخروج إلى سالونيك خشية الأمن.

خلف الكارفانة يقيم أبو يحيى السّوريّ، لديه زاوية صغيرة مغطّاة، يبيعُ فيها السّجائر والمشروبات، وبارعٌ في إعداد القهوة، ويوجد أيضاً حلّاق فلسطينيٌّ، تتردّد من محلّه أغاني أُمّ كلثوم وفيروز والعندليب عبد الحليم حافظ، الشّابّ الأشقر الذي يجلس دوماً عند أبو يحيى ويدخِّن نهاراً، سأله مغربي "لماذا لا تصوم؟"، ليردّ عليه "إحنا مسافرين، إحنا طيور الله المهاجرة، كلّ شيء مباح لنا، ما دمنا في سفر". وجدتُ في إجابته حكمة.

الجزائريّون المتواجدون بالمخيّم قدموا برّاً من تركيا، والبقيّة من الجزر ومدينَتَي باتراس وكومينيزيا نتيجة لإخفاقهم في الوصول إلى إيطاليا، وآخرون عادوا من صربيا بعد أن يئسوا من العبور إلى كرواتيا من المدينة الحدودية "شيت" نظراً لكثافة حضور حَرَس الحدود، معظمهم جاؤوا لقضاء شهر رمضان تمهيداً لمواصلة رحلتهم عبر طريق البلقان الذي يمتدّ من مقدونيا وصربيا، ثمّ كرواتيا وصولاً إلى سلوفينيا وعموم أوروبا.

لا يزال رفيقاي في الجزيرة رفقة عبدو والبقية، وكلّهم يحاولون بلا جدوى نتيجةً لتشديد الحراسة في الميناء ومواقف الشّاحنات، البعض بالمخيّم

يتحدّث عن سهولة العبور من مقدونيا إلى صربيا، لكن العقبة الكبرى في كرواتيا التي يصطاد فيها حَرَس الحدود اللاّجئين، ولا يفلت من كاميرات المراقبة وأجهزة الرؤية اللّيليّة إلّا محظوظ.

مراد غادر السّجن، وحصل على طَرْد مدّته أسبوع، وكان سيغادر به إلى كومينيزيا، وتعرّض لمحاكمة بعد أن ظهرت بصمة ساموس الجنائية، وكان قد قدّم نفسه للأمن على أنّه ليبي، كما يفعل الجزائريون كلهم حين يُقبَض عليهم، الهوية اللّيبية مفيدة بالنسبة إلى مَنْ يدخلون من تركيا مباشرة، يحصلون على طَرْد مدّته شهر، لكن الأمر يختلف بالنسبة إلى مَنْ جاؤوا من الجزر، ولديهم بصمات، هناك مَنْ يُفرَج عنه، وهناك مَنْ يُحوَّل إلى سجن ألادابون في أثينا، ليُرحَّل إلى الجزيرة التي جاء منها.

صادفتُ أمين الشلفي، خرّيج جامعة عاد قبل أيّام من الحدود الكرواتية السّلوفينيّة بعد تعرّضه لتفتيش دقيق، استهدف هويّته الفرنسية المزوّرة التي خذلتْهُ، ورغب في العودة إلى أثينا.

كنّا نسهرُ حتّى السّابعة صباحاً حتّى نتأكّد من عدم مجيء الشّرطة التي تقوم بمداهمات دورية في المخيّم، تستهدف مَنْ لا يملكون وثائق.

عند السادسة والنصف اندلع صراخ عالٍ، كان قادماً من محطّة السّكك الحديدية، خرجْنا بسرعة معتقدين أن مكروهاً ما قد حدث لأحد المهاجرين، وجدتُ مراد يجري ناحية الوادي، رافقتُهُ، وجاء خلفي منصور.

قرب السّكّة كانت تتوقّف سيّارة الشّرطة، واصل مراد المشي، ونصحني بالبقاء مكاني، كوني لا أملك وثيقة، بقيتُ مع منصور نراقب الوضع حتّى جاء شابٌّ تبسيّ مضطرب ويرتعش، سألتُهُ عن سبب الصّراخ القوي، وقبل أن يردّ عليّ فتح هاتفه، وأرانا صورة شابٍّ مُلقى على الأرض وجثّته متفحّمة،

صدمتْني كثيراً الصورة، وسحبتُ نظري مباشرة. كان شابّاً عراقيّاً وصل أثينا مساء اليوم، فبعد السحور توجّه إلى المحطّة، وحاول الدّخول في خزّانات الغاز المتّجهة إلى النّمسا، ليسحبه التّيّار الكهربائي الذي يمرُّ فوقها، أخذتْهُ الشّرطة إلى المستشفى، وبقيْنا تحت الصّدمة عاجزين عن النّوم.

لروحِكَ السلام، أيّها الهارب من الموت إلى موت آخر أفظع.

مرّت خمسة عشر يوماً من شهر رمضان، وبدأ النّصف الثّاني منه، كان محمّد يُصرّ على المحاولة بينما رغب بقية الرّفاق في انقضاء شهر الصّيام، ليواصلوا رحلتهم من جديد. كنتُ مُشتَّت الذّهن بين أن أمضي في رحلتي أو أُسلِّم نفسي للشّرطة، وأحصل على طَرْدٍ أو خرطية، تتيحُ لي التّجوّل بحُرّيّة، لم يكن سيد علي متحمّساً لتسليم أنفسنا للشّرطة خشية البصمة أو سوءُ حظٍّ، ينتهي بنا إلى مصير نجهله.

روتين قاتل في المخيّم، نومٌ طيلة النّهار، ولا حركة إلّا بعد العصر، كما أن البقاء فيه لم يكن آمناً، فقد تأتي دورية الشّرطة فجراً، وتأخذنا على حين غفلة. زارَنا بعد الإفطار شباب من البليدة وبوفاريك، كانوا يستعدّون للمحاولة في قطار متوقّف في المحطّة، قد يغادر بعد منتصف اللّيل إلى سكوبيا عاصمة مقدونيا، تحمّستُ كثيراً، وأقنعتُ سيد علي بضرورة المحاولة معهم، اقتنيتُ سجائر ومياهاً، وتركتُ حقيبة الظَّهْر عند الباب، في انتظار اتّصال من محمّد الموجود في المحطّة. لكنّه عاد محمّلاً بالخيبة، فالقطار لم يغادر، وافترضْنا خللاً في البرمجة أو ربّما مغادرته كانت مُقرّرة بعد أيّام.

في يوم آخر، عند الرّابعة مساء، توجّهْنا إلى المحطّة قبل الإفطار حتّى لا نُفوِّت القطار، وحصلْنا على وجباتٍ من جمعياتٍ إنسانيّة، يُسمّي

الجزائريون أتباعها بـ "عَبَدَة الشيطان" لأنّهم ينتمون لتيّارات آناركية معادية للحكومة، ومتعاطفة مع المهاجرين. بعد الإفطار، انتظرْنا انطلاق القطار الذي تظهر على واجهة قاطراته اسم الشركة التي يتبعها ووجهته، لكنْ، بلا فائدة، وعُدْنا.

عند الفجر، سمعنا طِرْقاً على الباب، وصوتاً ينادي "سيد علي .. سيد علي"، عرفتُ الصّوت، وخرج يوسف، ليفتح الباب.

- سلام عليكم.

- سيد علي يبات هنا؟

- وي خويا.

كان مرزاق الحراشي الذي خرج قبل يومَيْن من ساموس، وبرفقته أمين من البويرة وفارس ابن "برج البحري"، بعد التّحيّة، اقتحم مرزاق كارافانة مجاورة، وأقام فيها مع رفاقه، وكان مُصرّاً على التّوجّه إلى مقدونيا ليلاً، وقال:

- يا جماعة ما جيناش هنا نرقدو، لازم نكملو الطريق.

أجابه سيد علي:

- اصبر شوي خويا مرزاق بلاك يوصلونا دراهم ونروحو مع بعض.

قال محمّد:

- عندك الحقّ مرزاق، لازم تتحركو، مافيهاش هنا.

فارس كان مُغيّباً تماماً، شَعْرُه كثيفٌ، وعيناه الخضراوان الصّغيرتان شبه

مختفيَتَيْن، كان تحت تأثير الحبوب، ولا يكفّ عن التّرنّح وحكّ عينَيْه وشَعْره. بعد أن سلّمتُ عليه، لم يعرفني، اكتفى بقول "لاباس خو".

خرجَ فارس من أزمير إلى ساموس ثملاً، ولا يملكُ فلساً في جيبه، كان يظهر في الجزيرة مع شباب من العاصمة، علاقتنا كانت سطحيّة، تقتصرُ على التّحيّة فقط، وبعدها كان يتردّد على خيمتنا، وبيده ثيابٌ يعرضها للبيع.

كان فارس يبيع الفواكه في برج البحري، دخل السّجن أكثر من مرّة، بسبب شجار في "الحومة". قبل مغادرتي ساموس، كان فارس في "تميمة" السجن بعد أن لُفِّقَتْ له تهمة التّحرّش بمهاجرات عراقيات. في السّجن مزّق جسده بعد أن مكث فيه أكثر من شهرَيْن، ولم يتوقّف عن إثارة الشَّغَب داخله، تمّ نَقْله إلى مستشفى الأمراض العقليّة في أثينا، بقي فيه حوالي أسبوع، لينجح في الهرب منه بعد أن تحايل على الطّبيبة التي كانت تتأكّد من سلامته العقليّة، وبدوره كان يجتهد في إثبات جنونه بكيفيّة أعاد تمثيلها أمامنا بشكلٍ هزلي جدّاً، تعلّم بعضاً من اليونانية في السّجن والمستشفى، التقى بمرزاق وأمين وحليم الميلي في فندق التّونسيّة، حليم بقي في أثينا مع فوندام ومجموعة من الجزائريّيْن في "خربة" حزب الشيطان ناحية "بلاطيا" ميدان "فيكتوريا"، دفع له مرزاق ثمن التّذكرة إلى سالونيك.

فارس حادّ الطّباع، لكنّه طيّب ومرح، ويمارس سخرية عفوية، تجعله محبوباً ومألوفاً بسرعة، هزل جسده قليلاً، بسبب بؤس السّجن، أراد مرافقتنا إلى مقدونيا في أُمسيّةٍ رمضانية بالمخيّم، قامت بينه وبين سوريّيْن مناوشات حادّة بعد أن تسلّل إلى كارافانة عائلة سوريّة بحثاً عن نعل حمّام، لتصرخ سيّدة، واجتمع حوله السّوريّون، وباغتَهُ أحدهم بضربة على ظَهْره بخشبة، حمل فارس عربة أطفال، وأسرع خلفهم، ليلوذوا بالفرار، ولم

يتوقّف عن الشّتم، حاولْنا مَنْعه، لكننا لم نستطع إيقافه حتّى أذعن لمرزاق، وبعدها اعتذر له السّوريّون، وبادلهم الاعتذار، وكأن شيئاً لم يحدث، ربّما استفزّه مفعول الحبوب التي حصل عليها من شابٍّ عاصميٍّ كان يقيم معه فارس قبل أن ينتقل للمبيت معنا ..

صباحاً فُجِعْنا بخبر اعتقال مرزاق الحراشي بعد وشاية من جيرانه في الكرافانة، تمّ اقتياده إلى سجن سالونيك، أمين البويري أفلت من الشّرطة لحظة اعتقال مرزاق بعد أن رآهم من بعيد، فارس كان لديه دفتر علاج أحمر، حصل عليه من المستشفى، جنَّبَه الاعتقال.

خبر اعتقال مرزاق جعلَنا نفكّر في المغادرة قبل أن نلقى مصيره نفسه، بشير البليدي ورفاقه تخلّوا عن فكرة المحاولة عبر القطار المتّجه إلى مقدونيا، وقرّروا المغادرة نحو باتراس غرب اليونان. مراد انتقل إلى كومينيزيا، وحاول التّسلّل إلى الميناء ليلاً، ليطرده مهرّبون أكراد، يسيطرون على التّهريب من الميناء.

كلّ مساء تحدثُ مناوشاتٌ بين مهاجرين لا يملكون وثائق الإطعام وبين رجال الشّرطة والجيش اليوناني، وكان الطعام الذي يبقى يتمّ إرجاعه إلى الشّاحنة دون أن يُوزَّع على البقية، وقبل أن تغادر الشّاحنة تمدّد شابٌّ جزائري من قسنطينة أسفلها، كنوعٍ من الاحتجاج، ولم يغادر إلّا بعد أن حصل على وجبة. لم نكن بحاجة إلى وجَبَاتهم، كنّا نُحضِّر الإفطار بأنفسنا، ونشتري الخبز والمشروبات من عند أبو يحيى السّوريّ، وأحياناً كنّا نحصل على وجبات دافئة من "حزب الشيطان" تُوزِّعُه جميلات، رقّتهنّ وإنسانيّتهنّ وتفانيهنّ تُشبع الروح، خرائط وشم تزيّنُ أكتافهنّ وظُهُورهنّ وصُدُورهنّ المكشوفة، أقراط في الأنف والأذن وأسفل الشفاه؛ يتساءل مغربي كيف لمَنْ هنّ بهذا الشّكل أن يُحسِنّ إلينا؟!. هم تجاوزوا الأمر كلّه، أيّها البائس

المسكين، أُمّتُكَ المنكوبة التي هربتَ منها لا تزال تحكم على الآخر، من خلال شكله متجاهلة جوهره النفيس النّقيّ.

أيقظَني سيد علي صباحاً، كان منصور وكريم ومحمّد يجمعون أغراضهم، فارس هو الآخر ارتدى ثيابه، واستعدّ لمرافقتنا. في المحطّة قطار بحاويات مكشوفة معبّأة بالحديد الخردة متّجه إلى صربيا، كنّا ننتظر القاطرة الأمامية التي تجرُّ الحاويات، أشعل فارس سيجارة، ومحمّد كان يبحث عن مكان مناسب، يختبئ فيه، أمّا منصور وكريم، فكانا متردّدَيْن.

كان هناك رجل أمن يتفقّد المحطّة، لم يقتربْ منّا أو يسألْنا، بادر فارس للحديث معه، لكنّه تجاهله، أخذْنا معنا مياهاً وطعاماً وبعض الثّياب، كان الحَرّ شديداً جدّاً، واخترْنا الجلوس أسفل الحاويات، حيث لا تصل الشّمس. انتظرْنا أكثر من ساعة، بعضُنا استسلم للنّوم، وبقي محمّد ينتظر القاطرة الأمامية أو "الراس"، حتّى صرخ محمّد:

- نوضو جاء الراس.

مقطورةٌ بائسةٌ جدّاً، وصوتها مزعج، وتُفرز دخاناً أسودَ كثيفاً، كانت تسير بين السّكك، إلى أن توقّفت عند أوّل حاوية، لتنطلق بعدها بلحظات.

فارس كان قد ابتعد عنّا بضعة أمتار بعد أن تذمّر من البقاء بالمكان، وبعد أن بدأ القطار في التّحرّك، قفزْنا إلى القضبان الحديدية الضّخمة التي تربط بين الحاويات، وأخذْنا مواقع تقينا السّقوط، قفز فارس بسرعة، وكان مع كريم ومنصور، ثمّ بدأت سرعة القطار تتضاعف بعد أن ابتعدْنا قليلاً عن سالونيك.

سهولٌ خضراء نظيفة على مَدِّ البصر، وتظهر من بعيد سلسلة جبلية،

كنّا نبحث في الهاتف عن مسار القطار حتّى لا يتّجه بنا إلى أثينا أو بلغاريا غير البعيدة حدودها من حيث كنّا، حركةٌ بسيطة أو خَلَل في الوقوف قد يُلقي بنا تحت القطار، ويطحننا، لذلك تماسكْنا جيّداً، واكتفى محمّد بمراقبة مسار القطار من هاتفه، بعد أقلّ من نصف ساعة توقّف القطار عند محطّة، لم نتوقّعه أن يقف فيها، وبسرعة قفزْنا إلى تلّة أسفل السّكّة، ظهر من مقطورة القيادة رجلٌ بزيٍّ عسكريٍّ، تدحرجْنا أكثر نحو الأسفل بين أشواك التّوت، المحطّة تؤدّي إلى أثينا، إن بقيت المقطورة في مكانها، وهذا ما نتجّنبه، وإن غيّرت مكانها إلى الخلف، ستّتجه إلى مقدونيا وبلغاريا، وهذا ما حدث، فبعد دقائق، اتّجهت المقطورة إلى الخلف، وبدأت الحاويات في التّحرّك مُصدِرةً ضجيجاً قوياً، قفز محمّد، ثمّ سيد علي، خلفي منصور وكريم كانا يمشيان بتثاقل، ولم أستوعب سلوكهما، فارس هو الآخر قفز بسرعة بين الحاويات، وتضاعفت سرعة القطار، كان سيد علي يصيح ويطلب منّي أن أقفز، لكن القطار كان مسرعاً جدّاً وهو ينحرف بشكل دائري، استغرق دقائق، شوّش عليّ تردّد كريم ومنصور اللذَيْن قرّرا العودة فجأة.

- أحنا نرجعو.

- اوووو، وين ترجع كريم؟ مابقاش بزاف على مقدونيا.

- هبطلي المورال ومش قادر نكمل.

- أنا منرجعش.

تركتُ بعضاً من ثيابي مع منصور، وبدوره قدّم لي قارورة مياه.

- ابقاو على خير أنا نكمل نمشي حتّى نوصل الجماعة ومحال نرجع للكامب.

- ربّي يسهّلّك خويا مع السلامة.

- اتهلاو في رواحكم.

اتّصل بي سيد علي، واستغرب عدم ركوبي القطار، وأخبرتُهُ بأنّني سألتحق بهم، ونلتقي في أقرب محطّة، مشيتُ في السّكّة الحديديّة التي سار معها القطار، كان الحَرّ شديداً، والسّاعة تقترب من العاشرة، السّكّة تخترق غابات وحقولاً زراعية.

ما أدهشني هو نظافة المكان، لا توجد أكياسٌ بلاستيكية سوداء، ولا قارورات مياه أو قناني خمر وعلب الطعام. اتّصل بي سيد علي مجدّداً، وطلب أن أبقى في المسار نفسه حتّى تظهر محطّة قطار صغيرة، بها قاطرات قديمة، تجاوزتُ آخر جسر، على يمينه مدرّج لطائرات الهليكوبتر، وناحية اليسار بناءٌ ضخم، بدا من خلال لافتته الضّخمة أنّه سوق للخضار والفواكه. في ساحته شاحناتُ تبريد عديدة. ظهرت القاطرات من بعيد، في الطّريق إليها مفترق طُرُق، على يمينه نقطةُ حراسةٍ صغيرة، كان يقف أمامها رجل ضخم، بشوارب سوداء كثيفة، ووجه عريض، بعد أن تجاوزتُهُ، بدأ يصفّر وينادي، تجاهلتُهُ تماماً حتّى صرخ بأعلى صوته، وقال بإنجليزية بسيطة "أنتَ تسير في طريق خطير، عليكَ أن تنتقل إلى السّكّة الأخرى"، التفتُّ إليه، وشكرتُهُ كثيراً على حِرْصِهِ. المحطّة صغيرة، والمقطورات قديمة جدّاً، احتلّها الصدأ، وتشبه كثيراً مقطورات أفلام الغرب الأمريكي.

القطار الذي جئنا معه توقّف في هذه المحطّة قليلاً، ثمّ غادر في اتّجاه بلغاريا، ومن حسن حظّ الرّفاق أنّهم نزلوا منه، وإلا كانوا فريسة سهلة للشّرطة البلغارية سيّئة السمعة التي تُعاقِب حكومتُها كلّ مَنْ يتسلّل إلى أراضيها بالسّجن لمدّة عام ونصف وترحيلٍ قَسْريّ بعدها إلى بلدانهم الأصلية.

- وشراكم يالخاوة لاباس؟

- على سلامتك.

- وينراه فارس؟

- راه راقد في الجهة الأخرى.

- علاش ما كملتوش مع القطار؟

- راح لبلغاريا ربي ستر، معليش لمهم درنا خطوة مليحة رانا قراب بزاف لبوليكاسترو آخر مدينة يونانية على الحدود المقدونية نريحو هنا ومع المغرب نمشو.

وشرايك موح؟

- منعرف اصبر نرتاحو ..

وافقَني سيد علي على مواصلة السَّيْر، ومحمّد كان متردّداً، وسحب من حقيبته قارورة ماء، وبعدها أشعل سيجارة، غيَّرتُ ملابسي المبلَّلة بالعَرَق، وحاولتُ النوم على غرار فارس الذي كان يشخر، لكنّني أخفقتُ، الحرارة مرتفعة داخل القاطرة، وذبابٌ، وخشيةٌ من حضور الأمن. تقلَّبتُ كثيراً، محمّد لم يكفّ عن التدخين، وسيد علي استسلم للنّوم. كنتُ نصف نائم، تركيزي كلّه حول ما يحدث في الخارج، وكنتُ أنتظرُ توقّف قطار قادمٍ من سالونيك حيثما كنّا قبل أن يُكمِلَ مشواره إلى مقدونيا أو صربيا.

مرّ قطار بسرعة كبيرة، ولم يتوقّف، بعده بنصف ساعة، توقّف آخر، وغادر باتّجاه بلغاريا، كانت السّاعة الثانية زوالاً، وصمَّم محمّد على العودة إلى المخيّم، فارس كان لا يزال يشخر، وسيد علي متردّد. مقدونيا على

مَرمَى حجر، يا رفاق، وهي أقرب كثيراً من سالونيك ومخيّمها المقرف، لكن بطّاريّات الهواتف كانت توشك على النفاد، فقرّرْنا العودة في النهاية رغم أنّني لم أكن أرغب بذلك، وإلا كنتُ قد عدتُ مع منصور وكريم. فربمّا أخطأنا في القطار، لكن هذا لا يُبرِّر عودتنا إلى المخيّم الذي يبعد عنّا أكثر من ثمانين كيلو متر، ولم أفهم سبب قبولهم بإخفاق صغير، لكنّني لم أرغب في التّشويش عليهم، ففي النهاية مشوارنا واحد، ومصيرنا كذلك، ويجب أن نبقى معاً. خرجْنا من المحطّة والحرارة في أقصى درجاتها، فارس كان يرغب في إكمال نومه، وأزعجه قرار عودتنا، أخذ سيجارة من محمّد بعد أن شرب الماء، وبعد الابتعاد عن المحطّة، كان على يسارنا بيتٌ عتيق، قرميده أحمر، وجدرانه باهتة، كان يقفُ خارجه ذلك الرّجل الضّخم الذي طلب منّي الابتعاد عن الطّريق الخطر؛ تساءل عن سبب عودتنا، ولمَ لمْ نواصل المسير؟! أدهشَني سؤاله، وأخبرتُهُ بأن الحَرَّ شديد، والقطار المتّجه إلى مقدونيا تأخّر كثيراً، ابتسم، وتمنّى لنا السلامة.

ما أقرب مقدونيا! وما أبعد سالونيك! بعد استراحات كثيرة، اقتربْنا من الخامسة مساء والحرارة لا تزال مرتفعة، ابتعدْنا عن السّكّة الحديدية تفادياً لقطار سريع متّجه شمالاً، قد يدهسنا. الحقولُ هي نفسها خضراءٌ مغريةٌ، أرز وذرة، وعلى أطرافها سواقي مياه خريرها مُغرٍ، غطسْنا في بركةٍ ضحلة باردة جدّاً، كانت لحظات منعشة في هذا المكان الواسع الهادئ والنّظيف، شربتُ كثيراً، وعصرتُ ثيابي، وتركتُها تجفّ عند صفيحة إسمنتية عريضة.

تظهر سالونيك من بعيد، لم تستيقظ بعد من قيلولتها الطّويلة. فارس نزع قميصه، ولفّ به رأسه تفادياً للشّمس، كان يصمت لفترة، ثمّ يبدأ الحديث في أشياء كثيرة وغريبة.

- وشكون أنور السادات هذا؟

ضحكتُ كثيراً؛

- وش فكّرك فيه؟

- صح من نيتي وش يكون هذا؟

يضحك سيد علي؛ رئيس مصري أسبق، لكنْ، كيف جاء على لسانكَ، يا مجنون؟

- هكا وخلاص حبيت نعرف واش يكون.

عبثيةُ فارس وحديثه بلهجةٍ عاصمية حنونة، جعل طريقنا الطّويل قصيراً بحكاياته عن يومياته في السّجون والأسواق وعلاقاته بالنّساء.

استراحة أخرى عند ساقية غمرها ظلّ شجرة توت ضخمة، غطّسْنا أقدامنا في الماء البارد، وتمدّدْنا قليلاً حتّى توقّف عندنا شخصان، كانا يركضان، اقترب منّا أحدهما، وقال:

-كاليسبيرا (مساء الخير باليونانية)، هل أضعتُم الطريق؟

-تقريباً.

- إلى أين تتّجهون؟

- سالونيك.

- ليست بعيدة، أنتُم في الطّريق الصّحيح.

- أفخاريستو باربولي (شكراً جزيلاً باليونانية).

تناوبتُ مع سيد علي على حَمْل حقيبة الظّهْر، وفارس هو الآخر

كان يعينُ محمّداً وبيده كيس من "البرقوق" (فاكهة)، اقتطفه من شجرةٍ صادفناها في الطّريق، وهو يغنّي للرّاحل الشّابّ حسني، والشّابّ خالد، ثمّ قليلاً من أغاني الشّعبيّ، وبعدها بدأ يرتّل القرآن الكريم.

في السابعة مساء، اقتربْنا من أوّل مدينة، وكان المشي على السّكّة الحديدية في تلك الجهة صعباً، بسبب الحجر الصلب الذي كان يثقب أقدامنا، ولم يكفّ فارس عن سؤال محمّد بخصوص ما تبقّى من المسافة:

- مزال أربع ساعات.

- اوووو شوف بلاك تلفونك هبل؟

يضحك محمّد، وفارس يستمرّ في قراءة آيات من القرآن.

غابت الشّمس أخيراً، مررْنا بأحياء سكنيّة هادئة، لا يصدر منها إلّا نباح الكلاب، وأحياناً نلمح عجوزاً يجلس في الحديقة، ويتصفّح جريدة أو سيّدة مُسنّة، تتفقّد أزهار الشّرفة، كنّا نتفادى الطُّرُق السّريعة، ومع كل تعرّج، نعود بسرعة إلى السّكّة حتّى لا نظهر لسيّارة شرطة، قد تمرّ.

في التّاسعة مساء، أخذْنا آخر استراحة، سحب سيد علي من حقيبته علبة حليبٍ وحبّات تمرٍ، تقاسمْنا الوجبة الخفيفة بسرعة، لنواصل ما تبقّى من مشي، فارس نال منه التّعب، وصرْنا ننتظره حتّى يلحق بنا، حتّى أنا كنتُ قد تعبتُ جدّاً، وقَدَمَاي انتفَخَتا.

كانت تجربة مفيدة على شقائها، قد ننجح لاحقاً.

وصلْنا المخيّم حوالي العاشرة ليلاً، دخلْنا إلى حمّامات، تقعُ على أطراف المخيّم، دافئة معظم الوقت. شعرتُ ببعض الراحة بعد الحمّام،

وتوجّهْنا إلى الكرافانة، وجدْنا الرفّاق هناك يحتسون القهوة، ويدخّنون، ويستمعون للموسيقى من الهاتف، على الطّاولة طعام وفواكه ومشروبات كانت تنتظرنا بعد أن أخبر سيد علي منصور بعودتنا، لكنْ، من شدّة تعبِ الرّحلة والحمّام لم أستطع تناوُل الطّعام، اكتفيتُ بحبّة موز وكأس كوكا كولا، وانتقلتُ إلى الغرفة الأخرى لأنام.

أفقتُ على صوت فارس، يطلب منّي سيجارة، وبعد أن سحب منها نَفَساً عميقاً، نفثَ دخانه من النافذة، قال "راه قريب الأذان، نوظو، يا جماعة". كانت السّاعة تقترب من السّابعة مساء، وبعد أن أخذتُ حمّاماً، قمتُ بمساعدة يوسف في إعداد الإفطار، سيد علي خرج ليشتري الخبز والمشروبات، كريم في المدينة رفقة منصور، ومحمّد ذهب ليستلم الطّعام برفقة المغربي الذي جاء معه من تركيا، كلاهما يملكُ بطاقة إطعام، لمحتُ الشّابّ التّونسيّ الذي صادفتُهُ أوّل يوم لي في المخيّم عند "الفاغوات". لا جديد معه كما أخبرني، ورأيتُ أيضاً الشّابّ الباتني الذي التقيتُهُ في فندق التّونسيّة.

- لاباس خويا.

- الحمد لله كنت في كومينيزيا.

- واش حاكمة تما؟

- ما تشكرش. حاولت مرة ووالو، راك تشوف يدي قريب تقطعت بعد ما قفزت من الشّبّاك.

- سلامات ربّي يجيب السلاك.

- آمين خويا.

- صح فطورك.

اجتمعْنا حول مائدة الإفطار، بطاطا مقلية، فاصولياء لذيذة، أبدع يوسف في إعدادها مع دجاج أحضره محمّد، سلطة متنوّعة من إعداد سيد علي، ينقص البوراك فقط كما يقول فارس. بعد الإفطار، زارنا مراد الغليزاني الذي وصل مساء ذلك اليوم من أثينا قادماً إليها من ساموس، صادفتُهُ مرّة ليلاً في الطّريق إلى الميناء، لديه شقيقٌ أصغر منه في باتراس، خرج قبله بأشهر من الجزيرة، حتّى يحيى الغليزاني الحلّاق هو الآخر هناك برفقة "حميمد" شقيق مراد.

فارس أقلع عن تعاطي الحبوب بعد أن أقنعْناه بذلك. مرّت أيّام دون أن يبتلع "الحمرا وليريكا"، ظلّ وفياً للسّجائر فقط، وسعدتُ كثيراً من أجله، الإدمان هناك منتشرٌ بكثرة في أوساط معظم الجزائريّيْن، ممّا يضاعف من عدوانيّتِهم.

سيد علي كان سيتّجه في الغد إلى المدينة، ليستلم مبلغاً من المال، من جزائري يقيم في سالونيك "عزيز" بعد أن رتّب حكيم لذلك.

هناك من المهاجرين مَنْ لا يملك أهلاً أو أصدقاء في أوروبا، يرسلون له مالاً، لكن عزيزاً كان لديه الحلّ، فكلّ مَنْ يحتاج إلى المال، ما عليه إلّا أن يقوم بإرسال مبلغ بالدّينار الجزائري لحساب شقيق عزيز في الجزائر، وبعد أن يتأكّد من وصوله، يمنحُ مقابله (المبلغ) ما يساويه من الأورو، وهذا ما قام به سيد علي.

فارس هو الآخر كان ينتظر أن يصله ردّ من صديقٍ في الجزائر بعد أن وعده بمساعدته، وكذلك مراد قام بالخطوة ذاتها مع عزيز عبر حكيم، وحسم أمره، ونوى المغادرة إلى باتراس، ولا يرغب في المحاولة عبر طريق

البلقان، نصحه حميمد بالمجيء، لأن الميناء فيه فرصةٌ للوصول إلى إيطاليا خاصّة بعد أن نجح يحيى الليلة الماضية في التّسلّل إلى باخرةٍ متّجهة إلى ميناء أنكونا الإيطالي.

معظم الجزائريّيْن الذين وصلوا إلى صربيا عَلِقُوا في مدينة "شيت" على الحدود الكرواتية، بعضهم قضى أكثر من ستّة أشهر بلا فائدة. الأخبارُ القادمة من هناك لم تكن تُشجِّعُ على المحاولة، ربمّا الفرق أن البقاء في مقدونيا أو صربيا يوفّر عليكَ إزعاج الشّرطة، كما يحدث في اليونان.

أوقفَني شابٌّ باكستانيٌّ كان خارجاً من مُصلّى المخيّم يُدعى "تيمور"، كان مُنهكاً جدّاً، وجهُه متفحِّم، وصوته خافت، طلب طعاماً وماءً وفراشاً، كان في صربيا مدّة ثمانية أشهر، وعاد مشياً من الحدود المقدونية مع اليونان حتّى سالونيك، واستغرق وصوله إلى المخيّم يومَيْن. تيمور يرغب في العودة إلى أثينا، ولم يكن يملك فلساً واحداً، حدّثني عن آلاف المهاجرين في مخيّمات مقدونيا وصربيا، وقال إن وضعهم أسوأ من المخيّم، حيث كنّا. كلامه جعلني أُغيِّر موقفي من طريق البلقان المُغلَق منذ سَنَتَيْن تقريباً، ولا يمرّ منه إلّا قليلٌ من المهاجرين خاصّة مَنْ يدفعون مالاً للمهرّبين أو مَنْ يُوفّقون في تجاوُز العقبة كرواتيا وصولاً إلى سلوفينيا، وهم قلّة، تُعدُّ على الأصابع.

ربمّا يُفتَح الطّريق مستقبلاً، لكن انتظاره لن يفيدنا، سنبقى عرضة للأمن في كل وقت، والأفضل كان تغيير المكان إلى باتراس التي نصحَنا بها حميمد شقيق مراد.

في آخر أسبوعٍ من رمضان، وبعد الإفطار، غادر كريم ومنصور ومعهم فارس ومحمّد إلى المدينة، وبقيتُ مع سيد علي ويوسف ومراد، كنتُ

أستمع للموسيقى، وأقرأ كتاباً لباتريك سيل عن "سورية حافظ الأسد"، ثمّ سمعتُ فجأة صراخاً وضجيجاً، خرجْنا بسرعة لمعرفة السبب، شاهدْنا مجموعة من السّوريّيْن يحملون عِصياً وقضباناً حديديةً، وهم في قمّة هيجانهم محاولين اقتحام كارافانات الجزائريّيْن دون أن نعرف ما الذي يبحثون عنه، اقترب أحدهم من الكرافانة التي ننام فيها، ومنعْناه من الدّخول، واستمرّوا في البحث عن جزائريٍّ شابٍّ قيل إنّه ضرب شابّاً مصريّاً بساطور على وجهه، وطَعَنَهُ آخر بسكّين، وكان معهم شابٌّ مُصاب، رأسُهُ مغطّى بقماش أبيض، ببقع دم حمراء كثيرة. كنّا قلّة نحن الجزائريّيْن، لا نتجاوز العشرة، وهم أكثر من ثلاثين بنسائهم وأطفالهم، ومن خلفهم أفراد الشّرطة، يجرون ويصيحون ويتوعّدون مَنْ هشّم وجه المصري. اقتحموا كرافانة نزلاؤها جزائريون، هشّموا الباب، وعبثوا بالأغراض، وضربوا مَنْ كان بداخلها، اقتربتُ من أبو يحيى، وبعد أن سلّمني علبة سجائر، سألتُهُ عن همجية هؤلاء؟! وماذا يريدون من الجزائريّيْن؟! "يا حبيبي شو عرفني، هاد الكامب مليان عرصات، اهرب قبل ما يمسك بك البوليس".

كانوا أنذالاً، يُدركون أنّنا قلّة، وخلفهم الشّرطة تشاهد كيف يعتدون على كلّ جزائري يصادفهم. أيّ حقارة؟! تسللّ أحدهم إلى المُصلّى وهو يلعن الرّبّ، ويتفوّه بكلماتٍ بذيئة جدّاً، ودخل بحذائه، وتأمّل وجوه المُصلّين، والشّرطيّ خلفه يراقب الوضع.

كانت تقابلنا كرافانة، يقيم فيها شابّان سوريّان، لم يركبا موجة أبناء بلدهم رغم أن أحدهم ويُدعى "فادي" قد مزّق جزائريٌّ وجهَه قبل أسابيع، وترك أثر السّكّين بارزاً عليه من أعلى العين حتّى أسفل الذقن، نصحَنا بالهروب بسرعة قبل أن يستهدفَنا هؤلاء الأوغاد.

يعُود سبب الاعتداء على المصري أنّه أبلغ الشّرطة عن جزائريّيْن كانوا

في محطّة الحافلات التي اعتقلت معظمهم، لكونهم بلا وثائق، وهذا ما جعله يدفعُ الثّمن غالياً، وبدوره كان يبحث عن الانتقام مع أصدقائه السّوريّيْن.

تعرّض أكثر من جزائريٍّ للاعتداء، وكان سيد علي متحمّساً للتّدخّل، ومنعتُهُ أكثر من مرّة حتّى لا نكون فريسةً لهؤلاء، وأخبرتُهُ أن دورهم قادم لا محالة. حملْنا أغراضنا، وقفزْنا من السّياج إلى خارج المخيّم، للوصول إلى الطّريق السّريع هرباً من الشّرطة، وبمساعدة من "فادي". عاد من الجزائريّيْن إلى المخيّم فقط مَنْ يملك وثائق بعد أن سمعوا بالحادثة، وحاصروا المدخل الجنوبي للمخيّم، ورشقوا الكارافانات بالحجارة، وحاولوا استدراج السّوريّين إلى محطّة القطار بعيداً عن رجال الأمن، لكن هؤلاء تنبّهوا للفخّ، ورفضوا المواجهة في حلبةٍ محايدة، وبعيدة عن الشّرطة اليونانية التي كانت في صفِّهم.

"الأيّام قادمة، وسيتعرّضون لانتقام أكبر، ولن يجرؤ أحد منهم على الخروج إلى المدينة" هكذا قال لي بلال ابن بوفاريك الذي وجدتُهُ في كارافانة ياسين بعد أن عايش أحداثاً مشابهة بالمخيّم سابقاً. شعرتُ بمرارة كبيرة وأنا أتابع ما يحدث، ولم أرغبْ في مسايرة تلك الرّعونة التي لم يبالِ أبطالها بالنّسوة والأطفال الذين كانوا مرعوبين، لم تتحرّك غريزة الانتماء لديّ، ولم تنتعش عصبيّتي للجزائريّيْن، كما أنّها لن تكون المواجهة الأخيرة، وتدخّلي فيها لم يكن ليُغيِّر شيئاً، لأن مَنْ طعن المصري قام بفعلته وهرب دون أن يفكّر بنا، وكلّ ما قمتُ به هو إقناع الرّفاق بالهرب، والاتّصال بمحمّد وفارس، والطّلب منهما تفادي المجيء إلى المخيّم، والذهاب مباشرة إلى المحطّة.

هدأت الأمور نسبيّاً بعد مغادرة الشّرطة، وعاد بعض الجزائريّين إلى

المخيّم، ولم تحدث مناوشة مع السّوريّيْن، بعضهم شَعَرَ بالكارثة التي حدثت، وما الذي ينتظرهم، وبادروا إلى الصّلح بعد أن وصلهم تهديدٌ من الجزائري الذي ضرب المصري، يقضي بالنّيل منهم خارج المخيّم، إن فكروا في الذّهاب إلى المدينة مستقبلاً؛ معظمُ السّوريّيْن كانوا ينتظرون الحصول على "لَمّ شَمْل" أو إعادة توطين في دول أوروبية وعدَتْ باستقبالهم، لكنّها تراجعتْ. وكانت تماطل في تلبية وعودها؛ معاناةُ السّوريّيْن تفضح ألاعيب الاتّحاد الأوروبي، والبؤس في عيون الأطفال يسخرُ من قِيَم الإنسانية الفارغة.

بعد الابتعاد عن المخيّم، كنّا نمشي يسار الطّريق المؤدّي إلى المدينة، ومع كلّ صوت سيّارة أو إنارة نقفزُ خارج الطّريق بين الأحراش حتّى لا تطاردنا الشّرطة؛ انحرفْنا يساراً في مسلكٍ ضيِّق، على جنباته منازل، يؤدّي إلى محطّة القطار التي كان بها معظم الجزائريّيْن مختبئين بين القاطرات، تقدّمْنا إلى مخرج المحطّة، وفضّلْنا البقاء في مجموعاتٍ صغيرة، ليسهل هروبنا في حالة قدوم الشّرطة. كنّا أربعة، أنا وسيد علي ويوسف ومراد وشابّان عاصميان "عيسى وعلي" وصلا مساء إلى سالونيك من تركيا، محمّد وفارس وكريم ومنصور لا يزالون في المدينة. كانت هناك سيّارة شرطة تغادر المخيّم، وتقترب منّا، توقّفتْ، ولم يعد يفصلنا عنها إلّا السّكّة الحديدية، بسرعة قفزْنا بين الأحراش حتّى ابتعدْنا عن المحطّة. كانت السّيّارة تسيرُ ببطءٍ في اتّجاهنا، ولم يجرؤ أفرادها على الاقتراب، فكّرْنا في تركِ أمتعتنا عند بناية مهجورة، ونبقى في مسار السّكّة استعداداً للهرب، إن حاولوا مطاردتنا.

عند منتصفِ اللّيل، انسحبت الشّرطة من المخيّم، وتوقّفت دورياتها. عاد منصور وكريم ومحمّد وفارس إلى الكرافانة، وفضّلتُ أنا وسيد علي النّوم في "الفاغوات" خشية مداهمةٍ فجائية من الشرطة، القاطرة التي

اخترْنا النوم فيها مُقسّمة لعدّة غُرف بسريرَيْن ، كانت نظيفة قليلاً، أسِرَّةٌ جِلْدِيّة سليمة وغير ممزَّقة، والنافذة الزّجاجيّة تُفتَح وتُغلَق بسهولة، كان فقط ينقصُها الكهرباء. نام بجوارنا "سيد أحمد الشلفي"، كان معنا في ساموس، وغادرها قبلنا مع "موح الشلفي"، سيد أحمد أيضاً يرغب في الذّهاب إلى باتراس بعد نهاية رمضان، يوسف عاد إلى المخيّم، ولم يقتنع بالنّوم معنا، سيد علي بعد أن وضع رأسه على الوسادة نام مباشرة، وبقيتُ أنا أتقلّب طلباً للنّوم، لكنّني كنتُ أخشى مجيء دوريّات الشّرطة بشكلٍ فجائي.

كانت حبّاتُ المطر ترقص فوق سطح القاطرة، والكلاب تنبحُ من بعيد، وقطارات تمرّ بين الحين والآخر مُحدِثةً ضجيجاً قويّاً. دفعني الأرق إلى التفكير في ساموس الحبيبة، تساءلتُ أهي نائمة؟ أم مستمرّة في الشّرب والرقص؟ سيد علي يشخر، والفجر يتهيّأ للبزوغ، نمتُ بعدها إلى غاية منتصف النّهار، أيقظَني اتّصال من محمّد، كان يسأل عنّا. أيقظتُ سيد علي، وعدْنا إلى المخيّم، وأتممْنا نومنا هناك بعد حمّامٍ بارد، مراد كان قد قضى ليلته في قاطرةٍ أخرى مع مجموعةِ شبابٍ من غليزان.

حركةٌ خفيفةٌ داخل المخيّم، وتوجُّس بين السّوريّيْن خشية حملاتِ انتقام، يقودها الجزائريون الذين وصل العشرات منهم صباحاً من أثينا، وبعضهم كان يبحث عن كرديّ سوريّ اعتدى على شابٍّ من قسنطينة. كان الوضع سينفجر لا محالة، ولم أرغب في رؤية مشاهد انتقامية أخرى، الأوضاع كانت تمُهِّدُ لمسلسل انتقامٍ متبادَل، سيدفع ثمنه أبرياءٌ في الغالب.

فارس لم يصلْه المال عكس مراد الذي وصله مبلغ ماليّ استلمه بعد الإفطار من عزيز، واشترى هاتفاً مُستعمَلاً. قرّرْنا المغادرة فجراً أنا ومحمّد

ومراد وسيد علي، ودّعنا يوسف وكريم ومنصور في السادسة صباحاً، فارس كان يرغب بشدّة في مرافقتنا، لكنّه لا يملك ثمن التّذكرة، كان لديّ ثمن التّذكرة مع يوروهات قليلة، منحتُهُ سجائر وبعض اليوروهات، وسيد علي فعل الشيء نفسه، كنتُ أرغبُ في أن يأتي معنا، لكن العين بصيرة، واليد قصيرة، اعتدْنا عليه، واعتاد علينا خاصّة محمّد الذي تعلّق به كثيراً. أخذني على انفراد، وطلب منّي أن أُقنِعَ بقية الرّفاق في أن يمنحوه مالاً حتّى يرافقَنا، لم ألمس تجاوباً منهم، وتفهّمتُ وضعهم "ما تقلقش روحك خويا فارس راك هنا مع الجماعة ما يخصك والو ونبقاو en contact وكي تجي تلقانا تما ابقى على خير".

محطّةٌ جديدةٌ

بعد توديعِ الرّفاق، غادرْنا المخيّم في اتّجاه محطّة القطار للمشي في السّكّة الحديدية التي تُوصِل إلى وسط المدينة، لم نصادف أحداً في الطّريق حتّى خروجنا من السّكّة ودخولنا حَيّاً سكنيّاً صغيراً، ينتهي عند مفترقِ طُرُقٍ غير بعيد عنه توجد محطّة الحافلات، اقتربتُ من الشّبّاك عند السّابعة ونصف، وحجزتُ تذكرة إلى باتراس، فعل الرّفاق الشيء نفسه، وانتظرنا انطلاق الحافلة الذي كان بعد نصف ساعة. المحطّة جميلةٌ ومنظَّمة، سقفُها واسعٌ ومرتفع على شكل قبّةٍ فضِّيَّة، حركةُ المسافرين متواضعة، شبابيكٌ تحجز تذاكر لوجهات محلّيّة، وأخرى خارجية، ولافتاتٌ تتدلّى من السّقف، كُتبت عليها أسماء الدّول التي يقصدها المسافرون "ألبانيا، صربيا، مقدونيا، بلغاريا، اسطنبول ..."، عند كلّ لافتة طوابيرُ حافلات فخمة تنتظر دورها. جلسْنا في كراسي الانتظار، وأخذْنا صوراً تذكارية، أولياءٌ يودِّعون أبناءَهم وعشّاق يودِّعون بعضهم بعناق دافئ، تتخلّله دموعٌ وقبلات.

صعدْنا الحافلة الخضراء،وبعد انطلاقها، رغبتُ في النّوم كنوعٍ من التّحايل على طول الطّريق الطّويل، من أقصى شرق اليونان إلى أقصى غربها، والمسير يتطلّب ستّ ساعات.

قبل منتصف النّهار بقليل، أفقتُ، كان سيد علي ومحمّد نائمَيْن، ومراد يعبثُ بهاتفه، خلفنا تجلسُ غجريّتان بأزياء غريبة، لم تتوقّفا عن

الثّرثرة، الطّريق السريع شبه فارغ، وغيابٌ تامٌ للحواجز الأمنية، الأخضر يلوِّنُ المكان، والجبال ترتفعُ وتنخفضُ، والضباب يعانقها، لم يتوقّف المطر عن الهطول حتّى ابتعدْنا عن الطّريق السّريع، ودخلْنا آخر بين الجبال، مررْنا على مُدُنٍ عديدة، منها "لاريسا" و"لاميا".

تجمّعاتٌ سكّانيّةٌ قليلة ومتباعدة، البحر على يسارنا، وقواربُ صيدٍ بيضاء تترنّح.

شاحناتٌ عديدةٌ قادمة من موانئ باتراس، وأخرى متّجهة إليه، أغلبها تحمل لوحات ترقيمٍ أوروبيّة. يظهر البحر من أعلى شفّافاً جدّاً، وعلى الشّاطئ أجسادٌ بيضاء ممدّدة، وصِبيَة يمرحون. عبرْنا جسر "ريو أنتيريو" الضّخم الذي يربط مقاطعة "إيتوليا أكارنانيا " بباتراس وعموم شبه جزيرة "بيلوبونيز".

في رحاب باتراس أخيراً، كانت ترتدي ثيابَ السّباحة، وتضع نظّارة شمسية، وتنحني بصدرها، ليلامس البحر الأدرياتيكي.

اتّصل مراد بشقيقه حميد، ليُعلِمه بوصولنا، كي ينتظرنا عند المحطّة. هي مكان صغير مقارنة بنظيرتها في سالونيك، وجدنا حميد هناك، شابٌّ عشرينيٌّ أشقر، اتّجه بنا إلى مساحة واسعة، تطلّ على البحر، على يمينها باخرةٌ ضخمة بعدّة طوابق، كان عمّال الميناء يغسلون واجهتها، وهم يحملون خراطيم مياهٍ. وكان هناك شابٌ تونسيٌّ، اسمه "أسعد" يراقب الباخرة، ويبحثُ عن منفذٍ، ليتسلّل منه إليها.

شرح لنا حميد مواقيت قدومِ الباخرة إلى هذا الميناء القديم الذي تزوره باخرتان أسبوعياً فقط مقارنةً بالميناء الجديد خارج المدينة، والذي يسيطر الأفغان على نشاطِ التّهريب فيه، ولا يسمحون لأحد بالتّسلّل إليه،

وإن فعل أحد، فلن يخرج منه سالماً كما أخبرَنا. سرْنا معه إلى بنايةٍ من عدّة طوابق غير بعيدة عن الميناء، وتطلُّ على البحر، يقيمُ فيها جزائريون وتونسيون.

البناية المهجورة بطلاء أخضر، يميل للأصفر، كانت مقرّاً لعدّة مصالح إدارية، ضرائب وتأمين، وطابق مخصّص للأرشيف، أسفلها مَرْأب واسع، وفوقه سرداب يضمّ محطّة توزيع مياهٍ غارقة في الظّلام والفوضى، والفضلات منتشرة في أرضيّتها، وخرائط بول على الجدران. صعدْنا إلى الطّابق الثاني، كان به غرفٌ عديدة، يُخيّل إليكَ أنّها تعرّضتْ لقصفٍ جوِّيٍّ، أغراضٌ متناثرة، على غرار الأوراق والمستندات وحافظات الملفّات وآلات طباعة ومكيّفات هواء وكراسي وطاولات وزجاج مهشّم، والسّقف أيضاً مهترئ، وعلى الجدران كتابات "غرافيتي" عديدة باللّغتَيْن اليونانية والإنجليزية، تندّد بالحكومة اليونانية والاتّحاد الأوروبي؛ الأجمل في البناية رغم عدمِ توفّرها على الكهرباء هو واجهتُها التي تطلّ على البحر.

استرحْنا في غرفةٍ صغيرة نظيفة، ينام فيها حميمد وأسعد مع آخر تونسي، وشابٌ من ولاية سوق أهراس شرق الجزائر، فراشها مرتّب، والأواني نظيفة، بها خزانة حديدية رمادية اللّون، تحوي كُتُباً ومجلّاتٍ بالإنجليزية واليونانية. بعد الاستراحة، انتقلْنا إلى الطّابق العلوي، وقُمْنا بتنظيف الغرفة التي استعملْناها نحن الثّلاثة مع حميمد.

سبقَنا إلى ذلك المكان بشير البليدي مع أسامة وبلال من بوفاريك، هناك أيضاً شبابٌ يقيم بالعمارة قبلنا بأسابيع، وبعضهم كان قد مرّ على وجوده أكثر من شهر، ومنهم موسى البويري وحسان القبائلي، هذا الأخير وصل إيطاليا، وعند خروجه من ميناء باري، أمسك به أمنُ الميناء، وأعادوه إلى باتراس بالباخرة نفسها التي جاء فيها.

حضورُ الأمن قليلٌ مقارنةً بسالونيك وأثينا، لكن الحذر كان مطلوباً دائماً، لذلك كنّا نتفادى التّجمهر والمشي جماعة. في الثّامنة مساء، خرجْنا إلى المدينة، لنتعشّى أو نفطر، لم أعرف اسم تلك الوجبة وقتها، كان قد اختلط عليّ الأمر أكثر من أيّ وقت. أخذْنا الأكل والمشروبات، واتّجهْنا إلى السّاحة المطلّة على البحر. نسيمٌ بارد يُنعِشُ رغبات مبهمة. حميمد كان في صربيا، ومكث فيها أسبوعاً، ليعود إلى سالونيك، بسبب رداءة الجوّ، وصعوبة مواصلة الطّريق، وانتشار كبير لليوروبول "الشّرطة الأوروبية" المتواجدة في طريق البلقان، سلَّم نفسه لشرطة سالونيك، على أساس أنه ليبيٌّ، وحصل على طَرْدٍ، مدّته شهر، وانتقل إلى باتراس، ليُجرّب حظّه مع البواخر المتّجهة إلى إيطاليا.

في طريقِ العودة إلى البناية، صادفنا عبدو "باليسترو"، ثيابه مليئة بالغبار، وملامحه مُتعبَة.

- وشراكم يا لحباب؟ توحشتكم.

- الحمد لله.

- كاش جديد؟

- الجديد رانا هنا.

- ياك قتلكم البر راه مغلوق.

- معليش المهم لواحد جرب وشاف بعينو.

- أنا طلعت فالبابور وبقيت فيه خمس ساعات ومنبعد تعبت نزلت.

- كنت تزيد تصبر إيطاليا تستاهل هاد التعب.

- معليش لواحد عرف الطريق.

حدّثَنا عبدو عن "موح الوهراني" الذي وصل إيطاليا قبل يومَيْن، وكان ناقماً عليه، لأنّه تركه نائماً، وغادر إلى الميناء دون أن يُوقِظَهُ، "معليش كل واحد ومكتوبه".

كانت أوّلَ ليلة في "الخربة" كما يحبّ الجزائريون تسميتها، جعلْنا من الأبواب أَسِرّة، وافترشْنا أغطية خفيفة، رافَقَتْنا من سالونيك. ولم نجد حلاً بشأن شحن الهواتف بسبب الكهرباء، إلّا التناوب على شحنها عند ثلّاجةِ مشروباتٍ، تقع خارج قاعة حفلات في الطّريق المؤدّي إلى الميناء القديم.

الميناء الجديد "ميناء الأفغان"، كبيرٌ مقارنةً بالميناء القديم، كان "حراقة" جزائريون يسيطرون على نشاط التّهريب فيه قبل سنوات حتّى أخذه منهم الأفغان بعد معركة بالسّيوف، انتهت بمقتل أفغانيٍّ. توجد بناياتٌ قديمة ومتهالكة جدّاً، يفصلها طريق سريعة عن الميناء الجديد، مغطّاةٌ بالزنك، ويقيم فيها مئات من الأفغان والباكستانيّيْن والهنود، وقليل من العرب، يدفعُ هؤلاء أموالاً تتجاوز 2000 أورو مقابل شحنهم داخل الشّاحنات المتّجهة إلى الموانئ الإيطالية، ورغم تواجد الأمن داخل الميناء وخارجه، فإنّ العشرات يعبرون يومياً إلى الضّفّة الأخرى، في عملية تفضحُ الفساد والتواطؤ، وتربح من المهاجرين، وإلا كيف يُسمح لهم بالتّواجد بأعدادهم الكبيرة بالقرب من الميناء دون أدنى إزعاج؟!

"باتراس" هي الأخرى مُغريةٌ وفاتنة، تقعُ شمال شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وتتبع مقاطعة آخايا في الغرب اليوناني، وهي ثالث مدينةٍ يونانية بعد العاصمة أثينا وسالونيك، عمرانها بديعٌ بلمسته فرنسيةٌ - إيطالية، عدد السّكّان قليل، والحركة تنتعشُ مساء.

كنّا نجلس ليلاً في حديقةٍ صغيرة، يفصلها عن الملاهي والحانات سكّة حديد الترام، تتوفّرُ بها شبكة واي فاي مجّانية، تُسهِّلُ التّواصل مع بقية الرّفاق.

في أيّ مكان نمرُّ منه، به جميلاتٌ كحبّاتِ مطرٍ، تنقرُ بستان ورد متنوِّعاً، معظمهنّ شقراوات بأزياء صيفية قصيرة، الجمال هناك نادرٌ جدّاً، وفريد وغامض، يجمعُ بين البراءة والسِّحْر والغواية والتّمنّع.

ما جئْنا لهذا، يا صاح، دعكَ والنساء؟

النّساء وطنٌ، أيّها المنكوب، لَاحِظْ كيف تبتسم تلك الجميلة والرّيح تراقص شَعْرها الأسود الناعم، ابتسامتها عندي أعظم من العالم بثرواته ودوله وقادته.

كان هناك معرضُ سيَّاراتٍ قديمة في السّاحة التي تخترق الشاطئ، موسيقى صاخبة مصحوبة بألوان مختلفة، وزوّارٍ من مختلف الأعمار يتجوّلون بين السّيّارات، ويلتقطون صوراً إلى جانبها. وكان المعرض فرصةً لمراقبةِ تسلُّلِ بعض الرّفاق إلى الباخرة التي تتوقّف غير بعيدٍ عنّا، بابُها الضّخم لم يُرفَع بعد، تمرُ منه شاحناتٌ وسيّارات ومسافرون. كان خلف السياج الذي يفصل الميناء عن الطّريق مجموعةٌ من الجزائريّيْن والمغاربة ينتظرون رجل الأمن حتّى يُغيِّر مكانه، ليتسلَّلوا إلى الباخرة، والصّعود إلى مدخنتها أو الاختباء داخل قوارب النّجدة البنفسجيّة المعلّقة ناحية اليمن واليسار أعلى الباخرة. لم يُوفَّق أحدٌ منهم في التّسلّل إلى الباخرة، رجلُ الأمن ظلّ واقفاً عند مدخلها.

رقصٌ وموسيقى وأضواء ومحرّكات سيّارات المعرض يقوم أصحابها بإظهار قدراتها ومفاتنها، والجميلات يرقصنَ بكل غنج. الشعب اليوناني عاشقٌ للحياة والفرح، لا شعور بوجود أزمةٍ مالية أو تقشّف.

عثرْنا على مكان نشحن فيه هواتفنا في مَرْأب متهالك، سطحه شاهق جدّاً، أسفله مركز ثقافيٌّ، تُنظَّم في ساحته كل أُمسيَّةٍ تدريباتُ رقصٍ جماعيٍّ للأطفال، بحوار الموقف بناءٌ من غرفَتَيْن، تنام فيها عائلات غجريةٌ رومانية، وضعها مثيرٌ للشّفقة، الأمُّ بجسدها النحيل ووجهها الأسمر الحزين ثملةٌ معظم الوقت رغم أنها حامل، والأطفال يدخّنون سجائر، يجمعونها من الشّارع.

نجح سيد علي في تثبيتِ موزّع كهربائي في مكان لا يلفت الأنظار عند كابينة من البوليستر ملاصقةٍ لمكان إقامةِ العائلة الغجرية، بابها مغلَق، بها نافذتان من الزّجاج، تُفتحان إلى الأعلى، وينام فيها شابٌّ جورجيٌّ.

كنّا نُحضِّر طعامنا في البناية عند زاويةٍ بعيدة عن غرفة النّوم التي نتناوب على تنظيفها يومياً. اقتلعْنا السّقف الذي كان يوشك على السّقوط، ورمينا ركامه خارجاً. أصبحت بعدها غرفةً محترَمَة نسبيّاً، تليق بإقامةٍ مؤقّتة ريثما نخرجُ من باتراس، تتوسّطُ الشّرفة طاولةُ طعامٍ، كما ثبّتَ محمّد خيطاً بلاستيكيّاً لنَشْرِ غسيلنا.

كانت أخشابُ الخزائن والطّاولات وقوداً للنار التي كنّا نُشعِلها في دلوٍ حديديّ واسع مغطّى بشبكة حديدية، وحتّى نتفادى خروج الدّخان من النّوافذ، ثبّتْنا الدّلو أسفلَ مدخنةٍ عتيقة حتّى يخرج منها الدخان على شكل عمود، لا يلفُت الانتباه.

تفادياً لكثرةِ المصاريف وتناوُلِ الوجبات يوميّاً في المطاعم، اتّفقْنا على خطةِ تقشّف تُجنِّبُنا إنفاق الكثير من المال، ومنها على كلّ فردٍ منّا أن يقدّم كلّ صباح 2 أورو، وبعدها نتّجه إلى سوق المدينة قبل أن يُغلِق أبوابه عند منتصف النّهار، ولحسن الحظّ، معظم التُّجَّار طيّبون، كانوا

يبيعون لنا السّلع بأسعارٍ منخفضةٍ. الحياة رخيصة جدّاً مقارنة بالجزائر، فالفواكه والخضار تقريباً بأسعار رمزية، لا توجد مضاربةٌ أو يحدث وأن تنقطع البطاطا أو الطماطم من السّوق، ليرتفع ثمنها لاحقاً، كما يحدثُ في جزائر العزّة والكرامة.

كنّا نشتري ما يلزمُنا من خضارٍ وفواكه وزيت وقهوة وسكّر ومشروبات ما يكفينا لأسبوع، وما يتبقّى من المال نُوفّرُه لطارئ ما. أمّا السّجائر، فكنّا نشتري المهرّبة من عند شابٍّ من كشمير الهندية، يأتي كلّ مساءٍ بدرّاجته الهوائية، وهو يحمل حقيبته، ويتوقّف أمام مَرْأبِ شحن الهواتف، ويسلّمنا ما يلزمنا بسعرٍ معقول، وبعيداً عن أعين الشّرطة.

في جنوبِ البناية، يوجدُ ميناءُ صيدٍ صغير، أمامه سوقٌ لبيعِ السّمك بالجملة، يشتغلُ المصريون في قوارب الصّيد، ويتعامل معهم الجزائريون، وكان حميمد وأغلب الجزائريّيْن يذهبون صباحاً إلى هناك، ويحصلون من المصريّيْن وربّ عملهم اليوناني على السّمك مثلّجاً في صناديق بلاستيكية بمختلف أنواعه وأشكاله حتّى تلك الباهظة الثّمن. في الجزائر 1600 كم ساحل بَحْرِيّ لا يُوفّر للمستهلك السّمك بسعرٍ محترم!

"باتراس" آلهة البحر، شقراءٌ بصدر مكشوف تُدخّن من شرفة فندق الكاستيلو، تُنصتُ لهدير البواخر، وتراقبُ طقوس الحُبّ بين العشّاق على ضفاف البحر.

نحنُ أبناء الجوع الأبدي للأفخاذ البيضاء الناعمة، وضحايا الهمجيّات الدّامية التي لوّثت فطرة الطُّفُولة والحياة بدواخلنا، نحن الذين كبرْنا وسط برِكِ الدّم وصيحات الأطفال والثكالى، نشتهي ومضةَ فرحٍ، نحن جيلُ بنادقِ الصّيدِ التّقليديّة التي واجهت مجانين الرّبّ .. نحنُ أبناء تلك العشريّة

القبيحة الملوّثة بالدخان الأسود واللّحى الكريهة والجثث المنتفخة المنشرة صباحاً في قارعة الطّريق، كبرْنا فجأةً بلا طُفُولة، بلا ألعابٍ أو فرح، كبرْنا مع دعوات مَنْعِ الموسيقى والتّلفاز، وبرقعة المرأة، وتصفيةِ المعلّمين، وسرقة المواشي والبيوت بذرائع سماوية. الوادي المزدهرُ بالفرحِ والفواكه والنّسوة الرّيفيات الجميلات اللواتي كنّ يغسلنَ الصّوف دون تحرّش، تحوَّل بعدها إلى نهرٍ أحمر، لا يقربه أحد. الجميلةُ التي كانت ترعى معنا، ونتشاجر على مَنْ يفوز بها، خطفها الإرهاب، يا صاح، تناوب عليها الأوغاد قبل أن يمزّقوا جسدها الملائكي. عشريةُ الصّراخ والدّموع والدّماء تركتْ ثقوباً سوداء في الرّوح.

باتراس جئتُكِ أنزف
أبحثُ عن ضمّاداتٍ لروحي معقَّمة بالنّبيذ ..

في رحابِ الجمال الهيليني قد نصبح نسخاً عن مصطفى بطل "موسم الهجرة إلى الشمال"، ذلك الأفريقي النّهم الذي فتح بلاد الإنجليز بعضوه الذَّكَري، نريد منكِ، أيّتها الآلهة السّاحرة، أن تفتحي لنا أبوابَ البحر، للعبور إلى أرض الطليان.

كنتُ أحياناً أتجوّلُ وحدي في شوارع باتراس مساء بعد أن تستيقظ من قيلولتها الطّويلة، أتجاهل دوريّات الشّرطة، وأدوس على واقع وجودي اللاّشرعيّ، كما تُسمّيه حكومات البهتان. زرتُ قلعة "كاسترو" وتلّة "القدّيس نيقولا". بعدها جلستُ في ساحة ملهى ألباني، وطلبتُ من النّادل اللّطيف بيرة باردة، ورحتُ أتأمّلُ المارّة بجنسياتٍ مختلفة ومهرجانِ أُنوثةٍ لا ينتهي صخبُهُ. جورجيٌّ أربعينيٌّ يجلس على الرّصيف، ويداعب آلة السكسفون، تلامسُ الموسيقى الدّافئة روحَ مُسنّةٍ، فتقترب منه، تتأمّله،

وتُنصت باهتمام، تستنطقُ الموسيقى جغرافيا جسدها، وتتمايلُ مبتسمةً، وترقص ببهجةٍ، تسخرُ من الاتّحاد الأوروبي وقيودِه الثقيلة على أحفادِ هيرا، وتحنّ لزمن الدراخما وما تحملُ من ماضٍ ملوّنٍ بالفرح الذي يجيدُهُ أحفاد زوربا .. أزمةُ التّقشّف لا يبالي بها مُسنٌّ، بشَعْرٍ أبيض كثيف، وشوارب واسعة، وجسد بدين، لامست روحُهُ الموسيقى، وقام ليقاسم مواطنتَهُ لحظات الفرح.

في ذلك المساء، وصل عبد النور البومرداسي قادماً من أثينا. كان لديه وثيقةُ لجوء، لكنّه يرغبُ في العبور إلى أوروبا، كان أنيقاً كعادته ومرحاً.

- أثينا مكان والو خو.

- علاش؟

- السّرقة والمخدّرات والدولة في كل مكان.

- وش حبيت! علاش ما ترجع ساموس؟

- مافيها والو خو.

- تما خير، عندك لجوء وشوفلك امرأة تعيش لاباس عليك.

- اليونان ما كان مكان خو، حاب نطلع بريطانيا.

بريطانيا حلوة.

- إن شاء الله توصلها قريباً.

- إن شاء الله.

- جبت معايا "tendeuse" اللّي يحبّ يحلق.

- صحيت، دوك يجي سيد علي يجزنا.

يضحك عبد النور، ويسحبُ نَفَساً عميقاً من سيجارة، منحتُها له، ويغرقُ في تأمّل أشعّة الشّمس، وهي تنعكس على البحر.

نحن مهاجرون غير شَرعيّيْن بتعبير العالم، نحن أبناءُ الشّمس، نركضُ خلف غجرياتٍ عذراوات، يقفزنَ على سياجٍ حدوديٍّ شاهق، وبأيديهنّ حبّاتُ كرزٍ من حقول سالونيك ..

تعلّمْنا من ساموس الإسراع في الخروج من كلّ مدينة نصلها، وأن نتفادى الغرقَ في تفاصيلها أو التّفكير في سَبْرِ أغوارها كما يفعل السّيّاح، هذه المُدُن خطيرةٌ، تسرقُ الروح دون أن نشعر بذلك، تمنحُنا لبنَ صدرها عند الفجر، وقبل الغروب تُكرِمُنا بالعَرَق اليوناني العذب.

اقتربَ عيد الفطر، وتضاعف عددُ الجزائريّيْن في باتراس، كلّ يومٍ تصلُ مجموعةٌ قادمة من صربيا وسالونيك والجزر اليونانية، وكلّهم يرغبون في الوصول إلى إيطاليا مع أولّ باخرة دون مراعاة لمَنْ وصلوا قبلهم.

ليلُ باتراس معزوفةُ حُبّ وشَبَقٌ وسهراتٌ تتأخّرُ كثيراً، معظمُ مَنْ في "الخربة" يرغبون في الخروج إلى الميناء القديم للمحاولة مع باخرة blue star التي كانت ستقضي ليلتها به، لتتّجه في ظهيرة اليوم الموالي إلى كومينيزيا، ومنها إلى ميناء باري الإيطالي. بسرعةٍ غيَّر الرّفاق ثيابَهم، وحملوا أغراضاً خفيفة في حقائب الظَّهْر. اكتفيتُ بحَمْل قارورة مياه كبيرة. حميمد في المقدّمة، خلفه عبدو باليسترو، ثمّ أنا، وخلفي مراد وسيد علي، وُجهتنا كانت البناية الشّاغرة التي تقابل الميناء، لنصعد طابقها العلوي، ونُراقبَ الوضع.

بعد وصولنا إلى محطّة الحافلات تشتّتْنا حتّى لا نلفت الانتباه، سار كلّ

واحد منّا في شارع، وإذا ما ضعْنا نتواصل بالهاتف، وخلال عشرةِ دقائق، وصلْنا على فترات متقاربة إلى البناية المتّفق عليها، حميمد كان أوّلَ مَنْ دخلها، وتبعه شقيقه مراد، كان عبدو يقفُ في طرف الشّارع المؤدّي إلى الطّريق الذي يفصلنا عن الميناء لمراقبة الشّرطة.

- مكان والو عبدو.

- اصبر وقيل البوليس راه جاي من فوق تخباو مور الغولف.

جلسنا خلفَ السّيّارة حتّى مرّت الشّرطة.

- ايا نطلعو عبدو.

دخلتُ البناية، وتبعني عبدو وسيد علي، طابقُها الأرضي قذرٌ، وبلا إنارة، ركامٌ من الحواسيب المحطّمة، وأكياس جبس معبّأة بقِطَع الإسمنت، ووثائق منثورة على الأرض. شغَّل عبدو إنارة هاتفه، وسِرْنا خلفه إلى الطّابق العلوي، وعند المنعرج المؤدّي إلى الطّابق الثاني، طارت حمامة، أفزعت عبدو.

- ينعدين ،،،،

لننفجر بالضحك.

أرضيةُ الطّابق العلوي هشّة جدّاً، بها ثقوبٌ عديدة، تتطلّب حَذَراً حتّى لا يسقط أحدٌ إلى الأسفل، توجد نوافذٌ زجاجيةٌ عديدةٌ ناحية اليمين، وأخرى تطلّ على الميناء، تسمحُ برؤيته بشكلٍ جيّد، ومراقبة حركة الطّريق، موقعٌ استراتيجيّ، أحسنَ حميمد اختياره .. الباخرةُ البيضاء الفخمة تفتحُ بوّابتها لاستقبال الرّكّاب والشّاحنات والسّيّارات، وكان أسعد التّونسيّ

قد سبقَنا، وقَفَزَ على الشّبّاك، ودخل إلى الميناء، اتّصل به حميمد، ليستطلع منه الوضع.

- واش أسعد؟

- لاباس خويا.

- كاش جديد عندك؟

- العساس ولد الحرام مزاله عند الباب.

- راكم بزاف؟

- ايه كاين شوي وأغلبهم جدد ورايحين يفسدوها على رواحهم.

- بلاك شوي ونجو، مزالك تما؟

- وي، ارواحو.

تحمّسَ محمّد جدّاً، ورغب في أن يكون أوّل مَنْ يتسلّل إلى الباخرة، مراد يدخّن بشراهةٍ كعادته، ويدقّق النّظر في تفاصيل الميناء، خرجْنا من البناية دون ضجيج، حميمد في المقدّمة دوماً يستطلعُ الوضع، تقدّمَ حتّى نهاية الشّارع، كنّا أمام بابِ البناية، ننتظرُ إشارةً منه حتّى نركض خلفه، قَطَعَ حميمد الطّريق، ووقفَ عند سياج الميناء، ينظرُ يميناً ويساراً، ثمّ تسلّق الشّبّاك بخفّة، وقفز.

فزّاعةُ الأمنِ والمهرّبون الأفغان

تسلّقْنا شبّاك الميناء واحداً تلو الآخر، وبسرعة كبيرة تفادياً لقدوم الشّرطة، لم يفصلْنا عن الباخرة إلّا عشرات الأمتار فقط، جلسْنا خلف آلة حفرٍ معطّلة لمراقبة الوضع، وكانت هناك مجموعات من الجزائريّيْن متمركزةٌ في نواحي عديدة، تنتظر لحظة التّسلّل إلى الباخرة، أحدهم حاول التّسلّق عبر حبل الباخرة، لكنّه أخفق في المواصلة، وقفز في البحر، طول الحبل يتجاوز العشرة أمتار، ويتطلّب لياقة بدنية عالية.

سقفُ طموحاتي كان متواضعاً بالنّظر إلى عددنا الكبير، وفي الحالات كلها أماكن الاختباء بالباخرة محدودة، لا تتّسع لأكثر من عشرة أشخاص، في طابقها العلوي أو إذا لم تدخل الشّاحنات كلها. ظلّ رجل الأمن منتصباً في مدخل الباخرة، كأنّه شعر بوجودنا؛ وبقيتُ أتساءل ما هي الطريقة التي ينويها المهاجرون للتّسلّل؛ دفعة واحدة؟ أم فرداً فرداً ؟!. كان بعضهم منبطحاً تحت شاحنة، بعضُهم الآخر تسلّق أشجاراً عند مدخل الميناء، والبقية كانت في مقدّمة الباخرة بعد أن وصلوا إليها سباحةً. مرّت ساعة دون أن يُغيِّر الحارس مكانه.

عنادُ الجزائريّيْن دوماً يأتي بنتائج عكسية، لا أحد بادر ببرنامج يُنظِّم عمليّة التّسلّل، وإن حدث، فلم أكن أتوقّع منهم أن يتّفقوا، كلّهم رغبوا في اقتحام الباخرة برعونة واندفاع مستفزّ خاصّة بعد أن قام أحد الشّباب بالتّجوّل أمام الحارس دون مراعاة للبقية المختبئة منذ ساعات، سلوكه

الأرعن جعلَنا نفكّر في المغادرة، لأن حارس البوّابة شعر بحركة الجميع، ولم يكن ليتردّد في الاتّصال بالأمن، إذا ما شاهدهم بعينَيْه.

زحفت المجموعة التي كانت بجوارنا بشكلٍ جماعيٍّ، ما أحدث ضجّة كبيرة، عجّلت بمجيء دورية أمن الميناء، لم أنتبهْ لها إلّا حين سمعتُ صوتاً يتحدّث بالإنجليزية، ويطلبُ من أحدهم تقديم الوثائق.

بسرعةٍ تسلّقتُ السّياج، وقطعتُ الطّريق دون أن ألتفتَ يميناً أو يساراً، ولا أدري ما الذي حلّ بالبقيّة، كان سيد علي قد ابتعد رفقة مراد وحميمد وأسعد التّونسيّ، فيما محمّد وعبدو هربا قبلي بقليل. بعد قَطْعِ الطّريق، دخلْنا البناية، وأسرعْنا إلى الطّابق العلوي لمراقبة ما يحدث؛ أُلقيَ القبض على شابَّيْن، وأُفرِجَ عنهما لاحقاً.

الغباء دوماً نتيجته تأتي على هذا النحو، كان بالإمكان أن يمرّ على الأقلّ عشرة منّا أو أكثر لو اتّفق الجميع على تنظيمِ عمليّة التّسلّل، لكنْ، لا حياة لمَنْ تنادي أمام حالاتٍ من الأنانية والرّعونة. غادرْنا بالكيفيّة نفسها التي جئْنا بها، وتوقّفْنا في السّاحة التي تخترق الشّاطئ، لنعيد المحاولة التي أخفَقَتْها صبيانية مَنْ يتوهّمون أنّهم أذكى من الجميع.

المطرُ ينقر خَدَّ اللّيل، ونهد باتراس يتدلّى باكراً .. إضراب عمّال النّظافة جعل المدينة محاصرةً بالنّفايات، مرزاق الحراشي في السّجن .. يا لها من أقدارٍ تعيسة! هرب من سجن الوطن إلى سجن الغربة، حليم الميلي الذي خرج معه من ساموس، وجاء إلى باتراس مع عبد النور البومرداسي اختفى بعد أيّام، ليصلنا خبر اعتقاله الليلة الماضية؛ هذه الأخبار جعلتْنا أكثر يقظة من الأمن اليوناني.

كنّا نتردّد على المَرْأب القديم، حيث يقيم الغجر، لنشحن هواتفنا،

وكان المركز الثّقافيّ غير بعيدٍ عنّا، وكل مساء نشاهد في فنائه مجموعة من الفتيات الصّغيرات بثوب موحَّد، يرقصنَ على إيقاع موسيقى جورجيّة وأرمينيّة ويونانيّة، بشكل جماعي مبهر جدّاً، أدمنتُ متابعة تمارينهنّ وهنّ يرقصنَ بشكل دائريٍّ مميّز، يجعل أرواحهنّ البريئة تتواصل مع تلك الموسيقى، وتتفاعل معها.

استمرّ توافدُ المهاجرين إلى "الخربة"، وكلّما كثر العدد، تضاعفت المشاكل بينهم.

علاقتُنا مع البقية محدودة جدّاً، لا تتجاوز التّحيّة، ورغم أن غايتنا واحدة، لكن عقليّاتنا مختلفة.

في الجزيرة، لم يطرأ على بقية الرّفاق أيّ جديد، بعضُهم استسلَم لخيار العودة الطّوعيّة، ومَنْ بقيَ كان ينتظر لجوءاً مع محاولاتٍ لا تتوقّف للوصول إلى أثينا.

على طول الطّريق الذي يفصلُ باتراس عن البحر، ينتشرُ صيّادون هُواة وعُشّاق وسُيّاح ومُشرَّدون وسُكارى، القُبلات تطرب لها النّوارس، وتسقطُ مطراً على وجهِ الحياة المزركشة في بلاد الشّمس والنبيذ والبحر. ألفتُ التّجوال مساء في ربوعِ المدينة تارةً وحدي، ومرّات مع سيد علي أو عبدو. اقترنْا من المتحف، تحفةٌ معمارية رهيبة جدّاً، تُحفّز على اكتشاف ما يوجد به من كنوزٍ أثرية، لولا حُرّاسه الذين يطلبون الهويات قبل الدخول، مررْنا أيضاً قرب جدار "ديمانز" وقلعته القديمة، وعرّجْنا على مسرح أوبولو، هو الآخر تحفةٌ فنِّيَّةٌ مذهلة.

بعد أن غادرْنا ساحة جورج الجميلة وسط المدينة قبل المغيب، اتّجهْنا إلى الميناء الجديد لمعاينة الوضع هناك، تحيطُ بالميناء مساحةٌ خضراء

من العشب الاصطناعي، ثُبِّتَتْ فيها قنواتُ رشٍّ محوريٍّ، ترقص بانتظام، وهي تنثرُ زخّات الماء بحركةٍ عجيبة، وعند كلّ زاوية من الميناء، تتواجدُ مجموعة من الأفغان والباكستانيّيْن يراقبون المارّة أو مَنْ يفكّرُ في التّسلّل بعيداً عن أوامرهم، لا يجرؤون على الاقتراب أو التّحرّك إلّا في جماعة.

قرّر عبد النور المحاولة ليلاً من ميناء الأفغان بعد أن يدخله سباحةً، ليتسلّل إلى الباخرة فجراً، نصحْناه بأن يكون حذراً، لأنّه لن يكون هناك مَنْ يُنقذُه من وحشية أفغان الميناء. مراد ابن بوفاريك وصل إيطاليا الليلة الماضية من ميناء كومينيزيا كما علم سيد علي من شقيقه زكي الذي لا يزال في سالونيك رفقة فارس والبقية.

بعد كلّ عشاءٍ أجلسُ عند شرفة البناية المطلّة على البحر الفاصل بين اليونان وإيطاليا، أستذكرُ مطر اسطنبول وليلها الشّبّقِيّ، يسافرُ قلبي إلى أزمير، يمرّ على سوقها الضّخم، يلمحُ وجوه المهرّبين وصراخ الأطفال وجنون بحر إيجة؛

قلبي ملكتُهُ ساموس، لا ينافسها عليه أحد،

أيّتها القريبة البعيدة،

أشتهي مطركِ مع الفجر، وأنا أبحثُ عن ولّاعة، أُشعل بها سيجارة، أرسم بدخانها لون عينَيْكِ في قلبي.

عاد عبد النور صباحاً مُنهكَاً جدّاً، وثيابُه متّسخة.

- حسبتك راك في روما.

- نتع وجهي.

- علاه؟

- دخلت الميناء عوم، ومنبعد دخلت البابور، وتخبيت في شاحنة النّفايات كانت فارغة، بعد ساعة تحرّكت، وقبل دخولها الباخرة، توقّفتْ، وفتّشها العمّال، وانتبهوا لي.

- كيف طلقوك؟

- شافو في ورقة اللجوء، ومنبعد قالولي اخرج منين دخلت.

لاحقاً أخبرني عبد النور أنّه تعرّض للضّرب من عمّال الميناء الذين قال إنّهم فليبينيون، أفلتَ منهم قبل أن يُسلّموه للشّرطة.

إيطاليا تظهرُ من بعيد كآلهة بمريدين كُثُر، أحياناً تبدو حزينة محاطةً بعصاباتِ المافيا، وأحياناً ترقصُ مع السّيّاح، ويصلُ صخب البندقيّة إلى ضفافِ باتراس .. تردّدتُ مرّة ثانية على الميناء القديم في منتصف الليل، كنتُ مع حميمد ومحمّد، وسيد علي والبقية في الميناء الجديد يحاولون التّحايل على الأفغان، بعد دخولنا الميناء، لمْ نلحظ أحداً إلّا أسعد التّونسيّ الذي كان يراقب الحارس الذي يقف عند مدخلِ الباخرة، عثرْنا من شابٍّ جزائريٍّ كان يتعامل مع الأفغان على مُهرّبِ أفغانيّ يُدعى إبراهيم، وحدّد لنا موعداً بعد الظّهيرة في مقرّ إقامة الأفغان والباكستانيّيْن عند الميناء الجديد، بعد وصولنا إلى الميناء، اتّصلنا به، وأرسل مَنْ يرافقنا إلى مكانِ تواجُده، وهو شابٌّ باكستانيٌّ عاش ثمانية سنوات في السّعودية، ويتحدّث العربية.

إبراهيم الباكستاني طحنتْهُ أعوامٌ من الكدح اللإنساني في السّعوديّة، يروي ما عاشه في تلك السّنوات بكثيرٍ من الخيبة والمرارة، حدّثَنا عن

المشاكل التي تحدث في "الكومباني"، حيث يقيمُ المهاجرون الأفغان والباكستانيون، ونصحَنا بالابتعاد عنها تفادياً للسّرقة والمناوشات التي لا تتوقّف.

طلبَ أن ننتظرَ شريكه المهرّب، لنتفاوض معه، دخلْنا الكومباني المخيفة بشكلها الغرائبي، وبسرعة أحاط بنا مجموعة من الشّباب، وكأنّهم خرجوا من ماسورة صرفٍ صحّيٍّ دون أن يقدِّموا أنفسهم لنا أو يسألونا عن سبب وجودنا بالمكان. تقدّم نحونا شابٌّ، أوحت لنا ثيابه أنّه ميكانيكي أو حدائدي، صاح في هؤلاء الشّباب، يأمرهم بالابتعاد عنّا، وفعلاً انصرفوا بسرعة، لكن عيونهم لم تتوقّف عن مراقبتنا، وتحدَّث إلينا؛

- سلام عليكم، معكم الطّيّب، ترغبون في الخروج إلى إيطاليا؟

- طبعاً.

- حالياً عددُ المهاجرين كبير، وأغلبهم مستعجل للخروج، سنتصل بكم بعد أيّام.

- كم ثمن الرحلة؟

- 400 أورو.

- كثيرٌ جدّاً.

- ليس كثيراً أخي، الشباب الذين تراهم أمامكَ أغلبهم دفع أكثر من ألف أورو، وينتظرون منذ أسبوع.

- لا شأن لي بهؤلاء، نحن ستّة، ندفع لكَ ألف أورو، ونغادر على دفعات، وفي الوقت الذي يناسبكَ.

ضحك، ثمّ صمت قليلاً، وقال:

- آخر سعر 300 أورو.

- شكرا لكَ، سِعْرٌ مرتفع جدّاً.

- أوك. سنتفاوض لاحقاً.

-الهاتف بيننا، وسنتّفق على كل شيء، بشرط أن لا تُقيموا هنا.

أضاف:

- أحبّ التّعامل مع الشّمال إفريقيّيْن، مندفعين جدّاً، ولا يبالون بالشّرطة، عكس الأفغان والباكستانيّيْن، تَفتحُ له باب الشّاحنة، ويبقى ينظر إليكَ، لكن العرب يقفزون بسرعة، ويختبئون بين البضائع باحترافية.

- شكراً لكَ، سنزوركَ لاحقاً.

- سلام.

- مع السلامة.

قبل مغادرتنا اقتربَ منّا شابٌّ مغربيٌّ ضخمٌ، يضعُ نظّارة طبِّيَّة، قدَّم نفسه كمترجم وسمسار، وحاول أن يتوسّط بيننا وبين المهرّب كما تعوّد أن يفعل مع المهاجرين خاصّة العرب منهم، لكنّنا تجاهلْناه تماماً .

لم نُخبِر المهرّب ومعاونيه بأنّنا جزائريون، بل قدّمنا أنفسنا كمغاربة، لوجود حساسية كبيرة بين الأفغان والجزائريّيْن، وكلّ جزائريٍّ يقتربُ منهم يُقدِّم نفسه كمغربي أو تونسي.

لا أدري لمَ تذكّرتُ قنبلةَ باكستان النّووية والجنرال المهيب برويز مشرّف

وأنا أشاهد تدافُع هؤلاء المساكين عند بوّابة "الكومباني" على أكياس الخبز وعلبِ المياه وحبّاتِ البطّيخ التي تقدِّمها لهم منظّمةٌ خيريةٌ يونانيةٌ. ما قيمةُ دولةٍ نووية، شعبُها بهذا الجوع والحرمان؟! يقضي معظمهم أسابيعَ عديدةٍ بين جدران هذه البنايات المهينة للكرامة البشرية، بين الجرذان والبعوض والأوبئة، وكذلك حرارة شديدة وهراوات رجال الأمن أحياناً. بدت "الخربة" فندقاً بخمسِ نجومٍ مقارنة بالكومباني التّعيسة.

قرّر بشير البليدي مع أسامة العودة إلى سالونيك، لانعدام الأمل في التّسلّل إلى الباخرة وكثرة الجزائريّيْن خاصّة بعد عمليّة السّرقة التي حدثت الليلة الماضية، واستهدفت سيّارة في المدينة، يقال إن جزائريّاً قام بالفعل. كانت التاسعة ليلاً، وكنّا حينها نشحنُ هواتفنا قرب إقامة الفجر حتّى توقّفتْ سيّارة نَفْعِيّةٌ سوداء، واكتفى أفرادها بإشعال مصباحٍ كهربائي، وتفحّصوا وجوهَنا من بعيد. فكّرتُ في الهرب، كما فكّر في ذلك مراد وبشير وآخر مغربيّ، فلا واحد منّا لديه وثيقة. غادرتِ السّيّارةُ، وبقينا في مكاننا، لتعود بعدها بلحظاتٍ، وتفعل الشيء نفسه، فُتِحَ بابها الجانبي، وبقي أفرادها يتأمّلون وجوهنا دون أن ينطقوا بكلمة أو يقتربوا منّا. اعتقدْنا أننا سنُعتَقَل، لكن السّيّارة غادرتْ مجدّداً، وسحبْنا هواتفنا، وتفرّقْنا بسرعة.

في آخر ليلة من رمضان وبعد الإفطار في "الخربة"، خرجْنا إلى المدينة التي كانت صاخبة، ولياليها مليئةً بالحياة والجنون كعادتها، اشتريْنا سجائرَ من ذلك الشّابّ الهندي، وجلسْنا قبالة البحر. "الحبشي" كان قد وصل في الأسبوع الأخير لرمضان، كان يقيم مع حكيم في سالونيك، أمّا حكيم، بقي هناك، لأن هدفه كان في المحاولة برّاً عبر طريق البلقان.

فاجَأنا رجلٌ يونانيّ، كان مع زوجته، وبيده كيسٌ أبيض، قام بتحيّتنا، وسلّمنا الكيس الذي كانت بداخله حلويات.

- إن كنتُم مسلمين، فإن عيدكم اليوم أو غداً؟

- نعم.

- أعلم أنّكم مهاجرون، تقبّلوا هذه الهديّة منّي.

- شكراً على سلوكك الإنساني النبيل.

لم يستوعب الرّفاق سلوكَ الأخ اليوناني، وظلّوا مندهشين من هذا الوعي الإنساني الذي يتجاوز الفروقات القائمة بين البشر كلّها، والتي وضعَها تُجّار الأديان ومَنْ يحترفون الخطابات الشّوفينيّة التي تُباعِد بين النّاس.

عاودتُ الاتّصال بالمهرّب الأفغاني، وبعد مفاوضاتٍ، وافقتُ على سعر 350 أورو للفرد الواحد، كنتُ شبه مُفلِسٍ في الأيّام الأخيرة، فكّرتُ جيّداً في الخروج مع الأفغان، وعدم الرّهان على المحاولة من الميناء القديم، وصلَني مبلغٌ ماليّ من صديقي المغترب سليمان الذي كان بغاية النُّبل والسخاء، حيث يكفيني للخروج والتَّنقّل في أوروبا، بدون عناء.

وصل سيد أحمد الشلفي من سالونيك، وتعرّض للسّرقة في "الخربة"، كان في قمّة الغضب، ويشتم بعبارات نابية، لم يسرقْهُ إلّا جزائري، لا يمكن أن يتسلّل أجنبيٌّ إلى البناية. هذا السّلوك الدنيء جعل الثقة منعدمة بين معظم الجزائريّيْن، ظرفُنا واحد، وليس بيننا غنيّ، ولا سائح بيننا جاء ليستمتع.

السّرقة كانت أكبر ما يجعلني أتفادى الوافدين الجدد، وأتحاشى التّعامل معهم، هناك وعيٌ زائف بين بعض الجزائريّيْن، يتوهّم أن السّرقة دليل "شطارة" أو ذكاء، وهذا ما يبعثُ على الاستفزاز.

أملٌ وخيبةٌ

تسلّلتُ في منتصفِ اللّيل إلى ميناء الأفغان أنا وعبدو، لكنّه عاد بعد أن نفدت بطّاريّة هاتفه، ولم يكن متحمّساً أيضاً. موسى البويري كان هناك أيضاً غير بعيدٍ من الميناء، بيدِه زجاجة خمر "البراندي"، نصحَني بالمحاولة في الباخرة التي ستُقلع مع الفجر باتّجاه ميناء باري الإيطالي، كلّ ما كان عليّ القيام به هو السباحة لحوالي مئتَي متر، ثمّ الانتظار قليلاً، والدّخول في شاحنة النّفايات أو مباغتة حارس البوّابة. اقتنعتُ بفكرته، ومَنَحَني قارورةَ ماءٍ صغيرة، وكيساً لأُخبِّئ فيه هاتفي والمال.

في الواحدة صباحاً، قفزتُ في البحر، كان بارداً، وشعرتُ بالثّياب ثقيلة على جسدي، تقدّمتُ بهدوءٍ صوب الباخرة حتّى لا أُثير الانتباه؛ باخرة تابعة لشركة "super face" وأخرى بمحاذاتها تابعه لشركة "Grimaldi". كانت الحركة شبه معدومة إلّا من بعض عمّال الميناء. في مقدّمة الباخرة في اتّجاه ايطاليا بينما مؤخّرتها كانت حيث البوّابة عند مدخل الميناء، يصدرُ منها هدير خافت، ثمّ توقّفتْ حركةُ دخول الشاحنات. بقيتُ في البحر حوالي نصفَ ساعةٍ، أنتظرُ ثغرةً ما حتّى أدخل من البوّابة التي كانت ناحية اليمين، وبعد أن شعرتُ بغياب الحركة، أمسكتُ بطرف البوّابة التي كانت مُلقاةً على الأرض كمَمَرٍّ للمسافرين والمركبات، لأراقبَ حركةَ الحارس، لم أسمع صوتاً أو حركة إلّا هدير الباخرة، وحفّزني هذا على الخروج والاقتراب أكثر من البوّابة، بل ولمَ لا أدخل أيضاً؟

تأكّدتُ من سلامة المال والهاتف داخل جيبي، ثمّ وضعتُ قَدَمِي اليُمنى فوق البوّابة، وتمسّكتُ بجدار الباخرة، وقفزتُ داخلها دون أن أُصادف أحداً، كانت هناك شاحناتٌ عديدة، سرتُ أسفلها حتّى لا يشعر بي الحُرّاس، تجاوزتُ حوالي أربع شاحنات بحثاً عن مكان أختبئ فيه، معظمها مُغلَقٌ بإحكام، ولم أكن أملك سكّيناً أو شفرة حلاقةٍ حتّى أُمزِّق جزءاً من غطاءِ الشّاحنة السّميك، لأتسلّل بين البضائع، فتّشتُ الشّاحنات كلها، ومن لوحات الترقيم، كان معظمُها متّجهاً إلى فرنسا وإيطاليا.

صعدتُ خلف المقطورة، لأُعاينَ الغطاء البلاستيكي، كان مُتدلِّياً قليلاً من جنباته، ومربوطاً بحَبْلٍ، يَسهُلُ حَلُّهُ، ونجحتُ في تمزيقه ورَفْعِ الغطاء قليلاً، لأجد نفسي بين حبّات البطّيخ الأحمر (الدلاع بالدارجة الجزائرية)، ربطتُ الحبلَ الذي يمرُّ عبر فتحاتِ طرف الغطاء، وَثَبَّتُّهُ عند نتوءات حديديةٍ صغيرة.

كانت المقطورة مظلمةً جدّاً، ومكدّسة بالبطّيخ الأحمر الضّخم، جلستُ في زاويةٍ ناحية اليمين، وسحبتُ من جيبِ السروال الكيس الذي فيه هاتفي، وبعد تشغيله، وصلتْني مكالماتٌ عديدةٌ من الرّفاق، ورسائل على الفيسبوك تسأل عنّي، كانت الساعة تقتربُ من الثالثة صباحاً، وكانت الباخرة ستغادرُ في حدودِ الخامسة، اكتفيتُ بالرّدّ على الرسائل، وأغلقتُ الهاتف حتّى لا تنفد البطّارية.

كانت ثيابي لا تزال مُبلَّلة متَّسخة، بسبب الاحتكاك بالشّاحنات، خلعتُها، وقمتُ بعصرها لتجفّ، وأنا أفعل شعرتُ بحركةٍ قريبة جدّاً عند باب المقطورة، فزعتُ، وتساءلتُ عمَّنْ يقاسمني الشاحنة؟! جنٌّ؟! أم ماذا؟!، حتّى ظهر رأسٌ بشريٌّ وإنارةٌ خفيفة، انبطحتُ بين حبّاتِ البطّيخ حتّى لا يراني، كان شابّاً نحيلاً، لا تظهر ملامحه جيّداً، بسبب الظّلام، شغّل

إنارة هاتفه، ليعرف صاحب الحركة التي شعر بها هو الآخر، لم يجرؤ على الاقتراب، وبقي ثابتاً في مكانه، ويُتمتم.

لم أعرف ما الذي سيقوم به هذا الكائن الغامض، تصاعد هديرُ الباخرة، ومعه تصاعدت وساوس هذا الشبح، كلّ ما فكّرتُ به هو قَذْفه بحبّة بطّيخٍ حتّى لا يقترب منّي، ظلّ ثابتاً في مكانِه، وعرفتُ أنّه جزائريٌّ عندما ألقى التّحيّة، وحدّثني.

- لاباس خويا؟

- بخير، أهدر بالشوي يسمعونا.

- معاك فريد من بومرداس.

- كيف طلعت هنا؟

- طلعت في الثامنة مساء مع الأفغان.

- شحال خلصتهم؟

- 500 أورو.

- بزاف.

- وش تحبّ خو لازم نخرج باه نتهنّى من الدولة والميزيرية.

- عندك الحقّ.

- منين جيت؟

- ميتيلني. وأنت؟

- ساموس.

- صعيبة جزيرة ميتيلني؟

- بزاف من البوطي للحبس وفيها الدّزيريين بزاف وديما مشاكل وقليل اللي يخرج من الحبس.

- كيفاش؟

- سرقة وضراب وخرجة صعيبة، كاين قريب ألف جزائري من عشرة آلاف لاجئ هديك الألف مسيطرة على التسعة آلاف.

- والدولة؟

- الدولة كاين ديما ومرّات تمارس العنف.

-علاش؟

- في الميناء، ولمّا توقع مناوشات بين المهاجرين.

- كيفاش خرجت؟

- في كاميون.

- تبالي راح يقلع البابور لازم نقصو الحسّ.

- شحال باه نوصلو؟

- 12 ساعة.

- بزاف.

- معليش.

- نحاولو نرقدو كي يمشي البابور.

فريد كان مُنهَكاً جدّاً، وتحت تأثير "ليريكا" التي بقي لديه منها بعض الحبّات، دخَّنتُ سيجارَتَيْن دفعةً واحدةً، وشربتُ قليلاً من الماء، وحاولتُ تسوية حبّات البطّيخ الضّخمة حتّى لا تُؤلمني في ظَهْري عندما أنام، كان هديرُ الباخرة قويّا جدّاً، ولم أعرف اتّجاهها مع صخب الموج.

كانت المرّة الثّانية التي أسافر بها على ظهر الباخرة، لكنْ، ليس بِحُرّيّة، مختبئاً وبعيداً عن سطحها الذي سمحَ لي في المرّة السابقة من رؤية البحر من أعلى، وكذلك تأمّل الجميلات؛ نمتُ بعدها وأحلام وردية عديدة تُرافقني، كنتُ خلالها في شوارع روما، بين حدائقها وعند البندقيّة وداخل حاناتها، وأركضُ خلف الجميلات في ميلانو.

أفقتُ في حوالي الثّالثة مساء، فريد كان لا يزال نائماً، من خرائطِ جوجل، ظهر لي أنّه لم يتبقَّ على وصولنا إلّا حوالي ساعة، كلَّمني سيد علي، ثمّ دخَّنتُ سيجارةً، وفتحتُ رسائل الرّفاق الذين تمنّوا لي حظّاً موفّقاً.

- وشراك خويا تقلّقنا عليك.

- الحمد لله مكان والو.

- علابالي طلعت قالي موسى إن شاء الله توصل.

- إن شاء الله خويا سلّم على الجماعة.

- لمهم خلي البابور يحبس وما تنزل حتّى يخرج الكاميون.

- علابالي هكا رني ناوي.

- أيا ربّي معاك سلام.

ابتلعَ فريد ما تبقّى لديه من حبّات "ليريكا"، وأجرى اتّصالاً مع صديقته في الجزائر، ليقومَ بإطفاء الهاتف بعدها.

- لحقنا خو.

- منعرف، ما بقاش لمهمّ حتّى يخرج الكاميون باه نتحركو.

- كيفاش؟

- قصدي أنسى تنزل هنا في الميناء.

- عندي كارطا فرنسية نخرج بها مع les voyageurs.

- ومنبعد عندك تيكي؟

- لا.

- كيفاش تجوز أمالا؟

صمتَ بُرْهَة بعد أن توقّفت الباخرة في ميناء باري.

- اسمع مكلاه الحس، رنا وصلنا وانسى تخرج منّا رايح تفسد علينا كل شيء.

- ما نفسد والو نخرج بلا حسّ.

- ياودي رايح تبهدلنا وش تخسر لو صبرت شوي ونخرجو مع الكاميون.

- تخاف يطول.

- علاش راك مقلّق كاش واحد راه يستنى فيك في باري؟

- لا لا.

- خلاص ريّح عاقل نخرجو مع بعض، وإذا تحتاج الدراهم نعاونك.

تجاهل كلامي، وبدأ يبحثُ عن منفذٍ، ليخرج منه، استفزّني كثيراً سلوكه الأحمق، وشعرتُ بأنّه مجرّد مراهقٍ أنانيٍّ أرعن سيُورّطني.

- اسمع وشبيك هبلت، ياك قتلك اصبر ما تفهمش.

تجاهل كلامي مرّة أخرى، وعندما غادرَتْ معظم الشّاحنات، وبقيتْ فقط الشّاحنة التي كنّا داخلها، بدأ برَفْسِ غطاء الشّاحنة برجله دون مراعاة لمصيرنا، ودون التفكير في عمّال الميناء ورجال الأمن الذين كانوا خارجاً. تمالكتُ نفسي كثيراً حتّى رفستُهُ وطرحتُهُ فوق البطّيخ، وصفعتُهُ.

- وشبي قسامك ما تفهمش نتا؟ يا قُتلك أصبر علاش راك تخسر عليا.

لم يردّ بكلمة، وحاولَ أن يفلتَ من يدي، لأصفعَه مجدّداً، تلك الصّفعة المصحوبة بصراخه عجّلت بقدومِ أمن الميناء، وبسرعةٍ تمّ رفعُ الغطاء، وطلب منّا الحارس اليوناني أن ننزل.

- وش ربحت ينعدين ...

رغبتُ في تمزيقِ وجه هذا السافل المنحطّ الذي سلّطتْهُ عليّ الأقدار الظالمة ورَمي جثّته العفنة في البحر، لأنّه أفسد الخطّة كلّها، كنّا على بُعْد خطوات من تحقيق الحُلم. وضع الأمن الأصفاد في أيدينا، وصعدوا بنا إلى غرفةٍ صغيرة في الطّابق الثاني للباخرة، ثمّ جاء رجلُ أمنٍ إيطالي في عقده الرابع تقريباً، لم يسألْنا كثيراً، فتّشَنا، وسحبَ هواتفَنا، ثمّ طلب أحزمة سراويلنا مع رباط الأحذية، وسأل إن كنّا نحتاج شيئاً، طلبتُ منه بلطف قارورة ماء وقهوة، وكذلك إبعاد وجه النحس عنّي.

ضحكَ قليلاً، وقال:

- القهوة سأحاول، ابقَيَا هادئَيْن فقط.

كنتُ أعلم أنّه ستتمّ إعادتنا إلى باتراس، وتسليمنا للشّرطة هناك، وهذا ما كنتُ أتفاداه.

ظلّ فريد الوغد صامتاً ورأسه بين رجلَيْه، حطّمني تماماً، وقتل أحلامي، ولولا الأصفاد بيدَي، لكنتُ وضعتُ حدّاً لحياته البائسة.

كانت باري الإيطالية تظهرُ من نافذة الغرفة في كامل إغرائها، كلّما أمعنتُ النظر فيها شعرتُ أكثر بالأصفاد تعيقُ حركة يدي؛ كيف ترك هذا المجرم الذي داس على بساتين أحلامي الشّاحنات كلّها، وجاء إلى حيث كنتُ؟!، شعرَ أنّه خسر 500 أورو وخسرَ إيطاليا، وأنّه سيعود إلى السجن مباشرة، وسيندم بالتّأكيد على هذه الكارثة التي تسبّبَ بها. كان يرتعشُ كثيراً، ولا يكفّ عن الحركة، وتوتّره يتضاعف كلّما ارتفع هدير محرّك الباخرة التي ستعود إلى باتراس.

عادَ الشّرطيّ ومعه المياه والقهوة وساندويشان، وقال:

- إن احتجتُما شيئاً، ما عليكما سوى الطَّرْق على الباب.

- شكراً لكَ.

صاحبُ نكبتي ظلّ يرتعش ورأسه منكّس إلى الأسفل، دخّنتُ بلا توقّفٍ، وفضّلتُ تجاهل رؤية باري من النّافذة حتّى لا تقتلني الخيبة، وتدور في ذهني الكيفية التي سأستقبل بها الرّفاق بعد أن اطمأنّوا عليّ، هذا إن أفرج عنّي الأمن اليوناني، سيناريو شنيع لم أتوقّعه مطلقاً. طلبتُ من الشّرطيّ أن يعيد إليّ الهاتف للاتّصال بالرّفاق، لكنّه رفض بأدب.

نام وجه الشّؤم، وأطلق العنان لشخيره، شعرتُ أنّني انتهيتُ، حتّى النّافذة صغيرة لم أكن لأقوى على الخروج منها بعد أن فكّرتُ في تكسيرها، والقفز في البحر، لكن الأصفاد اللّعينة مُثبَتةٌ بإحكام، أرّقتْني كثرة التفكير والسّجائر نفدت. لا هروب من هذا البؤس إلّا بالنّوم الذي فكّرتُ به كَحَلّ، كانت الخامسة مساء، والوصول إلى باتراس مقرّرٌ ليوم الغد في الثالثة فجراً تقريباً.

نمتُ على وقعِ الخيبة وركام إخفاقٍ أثقَل قلبي، تارة أفقدُ الأمل، وتارة أتحمّسُ لمحاولة أخرى، قد تكون ناجحة، كل ما كان يهمُّني أن أُفلتَ من قبضة الأمن، والباقي يمكن تداركه.

أفقتُ في الثانية صباحاً، وطلبتُ من الحارس سجائر، منحَني علبةً، بها ما يكفي لتمضية ما تبقّى من وقت. استيقظ بطلُ خيبتي، وظلّ صامتاً، لم يستوعبْ فداحة فعله إلّا بعد أن توقّفت الباخرة، أجهش بالبكاء كطفل صغير حتّى أثار عاطفتي.

- مكان والو خويا، خيرها في غيرها.

- اسمحلي.

- عادي مكان والو، دوك تفرت معندك علاه تبكي منّا وروح متزيدش تخشن راسك.

منحتُهُ سيجارة، دخّن نصفها حتّى جاء الحارس، وطلب منّا مرافقتَه، لم أصدّق أني في باتراس مجدّداً بعد أن توقّعتُ أني غادرتُها بلا رجعة، سلّمَنا عون أمنِ الميناء إلى سيّارة الشّرطة، كان يقودها شابٌّ يرتدي نظّارة طبِّيَّة، وتجلس إلى يمينه شرطيّة، شَعْرها الأسود الطّويل منسدلٌ، وتدخّن سيجارةً

إلكترونية. لم يتكلّما معنا إلى أن توقّفت السّيّارة عند مركز شرطةٍ صغير غير بعيدٍ عن الميناء.

دخلْنا مكتبَ الاستقبال في المركز، كان يجلسُ فيه شرطيٌّ بدينٌ بزيٍّ مدنيٍّ، يحتسي قهوةً من كوبٍ بلاستيكي كبير، ويشاهد التلفاز، تمّ تفتيشُنا مجدّداً، وعثروا عند فريد على خرطية جزيرة ميتيلني، كانت مُخبّأةً في حذائه، أخذوه، ليكتشفوا بصماته، وبقيتُ مع الشّرطيّ البدين والشّرطيّة صاحبة الشَّعْر المنسدل والوجه الأبيض المشرق.

- من أين أنتَ؟

- ليبيا.

- متأكّد؟

- طبعاً.

- كيف دخلتَ اليونان؟

- دخلتُها برّاً.

- كيف وصلتَ إلى باتراس؟

- من سالونيك.

- لديكَ لجوء؟

- لا.

- تفضّلْ بالجلوس.

- شكراً.

- ممكن أُدخّن؟

- طبعاً.

- شكراً.

عاد فريد مع الشّرطيّ، وبيدِه مجموعة أوراق، حاولتُ فَهْم ما الذي حدث معه بلا فائدة، كنتُ أُنصت لحديثِ الشّرطيّ البدين مع زميله، فهمتُ كلمة "كليبسي" بمعنى "سارق" التي كانت تتردّد كثيراً في حديثهما بيونانية، إيقاعها السّريع لا تفهم معه شيئاً، ثمّ أخذوه خارجاً، وصعدوا به إلى السّيّارة، في انتظار استخراج أوراقٍ، ستُرافقه إلى وجهته المجهولة. كنتُ أُراقبه من خلف زجاج المكتب، ظلّ يبتلع الخيبة والخسارة بصعوبةٍ شديدة، وجسده تقوّس أكثر، ولم يكفّ عن الارتعاش.

بعد ساعةٍ في المركز، قرّر الشّرطيّ البدين أن يُفرِج عنّي دون أن أمرّ على مكتبِ البصمات، ولو حدث ذلك، لكان مصيري مصير فريد نفسه الذي غادرتْ سيّارته إلى مركزٍ آخر تمهيداً لنقلِه إلى أثينا، ثمّ إلى جزيرة ميتيلني، ليُرحَّل إلى تركيا، كما أخبرتْني الشّرطيّة التي رافقتْني خارج المركز، وطلبتْ أن أكفّ عن طَرْح الأسئلة والمغادرة فوراً.

شعرتُ بسعادةٍ غامرة، وتجاهلتُ الخسارة والخيبة، وتركيزي كله كان على لقاء الرّفاق.

عدتُ إلى الخربة في السابعة صباحاً، أخذتُ حمّاماً سريعاً في الطّابق الأرضي للخربة، وصعدتُ إلى الغرفة التي كنتُ أنام فيها، غيّرتُ ثيابي، وتمدّدتُ في مكاني دون أن يشعر بي أحد.

نمتُ إلى غاية الواحدة ظهراً، ولم ينتبه لي إلّا حميمد الذي تفاجأ بوجودي؛

- وش راك دير هنا؟ حسبتك راك في إيطاليا.

- وش تحب خويا، زهري.

- كيفاه؟

- طلعت فالكاميون، ولقيت واحد بومرداسي خرج من عند الأفغان، كي وصلنا حبّ يخرج في الميناء، بقيت نهدر معاه حتّى سمعونا.

- دين الرّبّ، هدا بغل وين راه؟

- أثينا، طلعتلو بصمة.

- وأنت؟

- طحت ليبي.

- معليش، الصحة برك.

- سيد أحمد الشلفي راه خرج لبارح مع بشير الأفغاني وخلص 100 أورو برك.

- أوووو.

- وي.

- بصحتو غدوة نروحو بشير يخدم أفضل من إبراهيم والطّيّب يركب بعد الميزان وجميع اللي خلصو معاه خرجوا.

- نخمم ونقولك، الجماعة لاباس؟

- لاباس.

- البقية كاش ما خرج؟

-سيد أحمد برك.

بعد العصر خرجتُ مع الرّفاق إلى باتراس، كانت ساحرةً جدّاً بعد أن زارها المطر والجميلات بمواكب أُنوثتهنّ، يظهرنَ من داخل الملاهي، ينثُرنَ القبلات، يضحكنَ، يحتسينَ النبيذ، محمّد كان عند الأفغان، وتفاوض مع بشير، واتّفق معه على 150 أورو.

وعَدتُ سيد علي بأن أساهم معه، لندفع سويّاً ثمن الرحلة رفقة عبدو، بقي فقط حميمد وشقيقه مراد كانا ينتظران وصول مبلغ ماليٍّ من قريبهم في إسبانيا.

في مَرْأَبِ شحنِ الهواتف وجدتُ شابّاً فلسطينياً من غزّة يُدعى "مازن"، كان قد وصل الليلة الماضية من سالونيك، مازن حاصل على ليسانس محاسبة، ويحلمُ بالوصول إلى بلجيكا، ويفكّرُ بالدخول إلى ألبانيا، لديه صديق ألباني هناك وعده بالمساعدة، كان قد سُجن لشهرَيْن في مصر بتهمةِ الانتماء لحركة حماس، ثمّ انتقل إلى السعودية التي أكرمتْهُ بالسّجن لأربعة أشهر؛ عروبةُ السُّجُون والمنافي والتشريد.

ليلُ باتراس؛ مشهدٌ مُهرَّبٌ من أساطير اليونان القديمة، الجميلات يقفزنَ من شرفات القمر، ورائحة النّبيذ تُنعِشُ البحر أكثر، الموسيقى متنوِّعة، بإيقاعٍ يداهمُ الأجساد، ويدفعُها للرقص، جلستُ قبالة البحر مع مراد الذي أحضر معه زجاجة براندي وأربع بيرات، لم أكلّمه كثيراً، وضعتُ سمّاعاتٍ في أُذني، وشربتُ البيرة الأولى على دفعَتَيْن، كأسُ براندي، وكأسٌ أخرى حتّى يهدأ رأسي من التّفكير.

تذكّرتُ مسقط الرأس، أُغنيّةٌ أمازيغيةٌ في ملهى عتيق بتقزيرت، أذانُ

الفجر قادمٌ من مسجد بوفاريك، جثثُ رعاة ذاتَ أربعاءٍ أسود بين الجبال التي تفصل المدية عن البليدة. تذكّرتُ أيضاً موظّفة مكتب المُفوّضيّة السّامية لشؤون اللاّجئين في ساموس، أبو علي، ستافروس، أثينا، فارس.

بدأ مراد بالرّقص، وبيده زجاجةُ البراندي، ورأسه إلى الأعلى، ويبتسم بلا توقّف، وسيجارة على طرفِ شَفَتَيْه، نشوةٌ لم تعبث بعقلي منذ أيّام ساموس العظيمة. كانت جلسةَ خمرٍ، جعلها المطر أكثرَ جنوناً.

كنتُ قد قرّرتُ المحاولة في صباح الغد بعد أن تبدّدتْ خيبتي بسرعة، وفي طريق العودة إلى "الخربة" صادفتُ بلال ابن بوفاريك عند مَرْأَبِ شحن الهواتف، طلب منّي سيجارةً، وجلسْنا قليلاً، وبدأ يحدِّثني عن بوفاريك وصربيا وتركيا وعائلته..

تعرّضتْ سيّدةٌ أمامنا لعملية سرقةٍ من طرف شابٍّ جزائريٍّ، وصل حديثاً إلى باتراس، ركضَ خلفه شابٌّ يونانيٌّ، لكنّه أفلتَ منه، واتّصل بالشّرطة، لتأتيَ بعد لحظات، وتُطوِّق المكان عند مدخل البناية، وفي سكّة الترام، وأمسكتْ بالشّابِّ الجزائريِّ هناك مُحاوِلاً القفز من شبّاكٍ عالٍ.

أحبطَني المشهد القبيح بما سيعقبه من تشديد الإجراءات الأمنية على المهاجرين، بسبب حماقة ذلك المراهق الأرعن. لم أتحدّث كثيراً مع الرّفاق في الخربة. كنتُ مُنهَكاً، وبحاجة للنّوم.

أفقتُ في الواحدة زوالاً، كانت هناك جلبةٌ كبيرة في الشّرفة، عبد النور البومرداسي يحكي للرّفاق عن محاولته المخفقة في الميناء القديم، وبقية الرّفاق منهم مَنْ أحضر السّمك من عند المصريّيْن، ومنهم مَنْ جلبَ الفواكه والخضار من السّوق، بقي فقط دورنا أنا ومراد لجَلْبِ الخبز والمشروبات والسّجائر، كانت الحرارة شديدة بعد ليلةٍ، نقر فيها المطر نهد باتراس.

كان مراد متردّداً في الخروج، وأنا أُلحّ عليه من أجل أن نذهب إلى المدينة، لنعود باكراً.

نزلْنا من الطّابق العلوي إلى فناء البناية وصولاً إلى الرّصيف، بعد أن مشيْنا أمتاراً قليلة، سمعْنا صفيراً خلفنا، التفتْنا، لنجد رجلَ شرطةٍ خلف مدخل البناية، أشار لنا بأصبعه، لنتقدّمَ نحوه، ورغم أنه كان بإمكاننا الهرب إمّا خلف البناية أو الدخول إليها، غير أنّنا لم نفعل، لأنّنا اعتقدْنا أنّه تفتيشٌ روتينيٌّ أو سؤال من الشّرطيّ عن شخصٍ ما يقيم معنا في الخربة؛ لا يمكن أن أنسى ذلك الشعور حين التفتْنا ووجدْنا الشّرطيّ خلفنا، شعرتُ أن كلّ شيءٍ قد انتهى، وأن وجودي في اليونان باتَ قاب قوسَيْن أو أدنى.

خاطَبَنا الشّرطيّ مستطيلُ الوجه باليونانية دون أن نفهم شيئاً، قسماته حادّة، وملامحه لا تسرّ، طلبَ منّا أن نسير خلفه عند مَرْأَبِ البناية، حيث كان يجلس شرطيان فوق درّاجَتَيْن ناريَّتَيْن.

- لديكم وثائق؟

- ليستْ معي، إنها في الأعلى.

- من أين أنتُم؟

- ليبيا.

حدّثَ زميله قليلاً، ثمّ نزل من درّاجته، وسحبَ الأصفاد من حزامٍ سرواله، وطلب أن نُقدِّم أيدينا حتّى يضعَها وسط دهشتنا، سرْنا معه حتّى وصلْنا سيّارة شرطةٍ، كانت خلف سكّة الترام، صعدْنا داخلها، وإضافة إلى الحرارة فيها، كنّا نفكّر في مصيرنا.

في الطّريق إلى مركز الشّرطة كان يجلس إلى يمينِ السّائق شرطيٌّ،

لم يكفّ عن التّهكّم دون أن يلتفتَ إلينا، كان يقول "إيطاليا، مافيا .."، دخلْنا المركز، وبقيْنا على أنّنا من ليبيا، وهكذا تمّ تسجيلنا في الحاسوب؛ أنا محمّد سنوسي من طرابلس، ومراد أحمد الخالدي من سرت، تحيطُ بالمكتب، حيث كنّا، خزائنٌ من أدراجٍ عديدة وشاشات كاميرا، في النّاحية الأمامية، تظهر منها غرفٌ بائسةٌ جدّاً، بداخلها مجموعة أفراد، بعضهم نائم، وآخر واقف في الرَّدْهَة، لم أتوقّع أنّنا سنلتحق بهم فيما بعد.

سحبَ الشّرطيّ مفتاحاً من درجِ المكتب، ونزع الأصفاد من أيدينا، ثمّ طلب أن نرافقه، بعدها فتح باباً حديدياً، لنصل عند رَدْهَة صغيرة، على يمينها غرفة ضيِّقة، طلب منّا أن نترك فيها أحزمة السّراويل ورباط الأحذية، ليفتح باباً حديديّاً آخر، بنافذة صغيرة، يؤدّي إلى الزنزانة الكريهة جدّاً، تتكوّن من ثلاثِ غرفٍ، إحداها مخصّصة للنساء، ورَدْهَة وحمّامٌ بابه محتلّ بالصدأ ومغطّى ببطّانية متّسخة.

جلسْنا في الرَّدْهَة دون أن نستوعب ما الذي يحدث معنا، تركْنا هواتفَنا في "الخربة" ومعظم ثيابنا هناك، مراد كان يرتدي شورتاً من الجينز، وشَعْره كثيف، عيناه بارزتان من الدّهشة، ولم يكفّ عن الحوقلة ولعن الشيطان.

- قتلك ما نخرجش.

- عادي مكان والو بلاك يطلقونا.

- قتلك نهربو.

- شكون عرف بللي تخلاص علينا هكا، لو هربنا ممكن يجو ورانا.

- محال يحكمني.

- نفرضو هربنا ومنبعد وين تروح؟

- نرجع سالونيك.

- خممت يطلقونا وإلا كنت نهرب أو نرجع للخربة.

- شكون عرف.

- مكان والو ان شاء الله.

- تخاف يبصمونا.

- تم المشكل.

- إذا طلعت البصمة محال يطلقونا يرجعونا للجزيرة.

- عادي.

سوءُ تقديرٍ منّا أم قضاءٌ وقدر كما يقول مراد، شعرتُ بأنّني مُكبّلٌ في الزنزانة، أجنحتي تمّ قَصّها، رغباتي الجامحة في التّحليق انتحرت، نحن بين جدرانٍ شاهقة، لا تطلّ نوافذها الحديدية إلّا على فناءِ المركز، وبين بشر نجهلهم، كهلٌ أشقر ممدّد بالقرب من الحمّام، يرتدي شورتاً أسود، وحذاء أصفر، وسترة رمادية، يجمع أعقابَ السّجائر، ويُفتّتها، ثمّ يلفّها في ورق التّبغ، ليدخّنها؛ قيل لنا لاحقاً إنّه هولنديٌّ يعاني من اضطراباتٍ نَفْسيّة، ولا يملك وثائق.

أسفلنا شابّ أسمر بجسدٍ رياضي وصدر واسع، كان يدخّنُ بلا توقّف، يقفُ أمامه شابّ آخر أسمر أقصر منه، كان يُفتِّتُ الخبز للحَمَام الذي يطلّ من شبّاك النافذة، كلاهما من "غجر اليونان"، الشقيق الأصغر مُعتَقَلٌ مع زوجته في الغرفة المجاورة، لا يُسمَح له برؤيتها إلّا من خلال الشّبّاك.

في الغرفة المجاورة للحمّام، تجلسُ مجموعة من الأفغان والباكستانيّيْن

مع ألبانيٍّ ويونانيٍّ، وفي الغرفة الأخرى، شابٌّ إيرانيّ وآخر كرديٌّ عراقيٌّ مع كهلٍ كرديٍّ تركيٍّ، هو الوحيد الذي رحَّب بنا؛ "محمّد أمين ناهامات" ابن محافظة ميرسين التّركيّة، خمسينيٌّ، كان أستاذ علم النَّفْس وناشط نقابيٌّ معارضٌ لأردوغان، يقيم في ميونيخ الألمانية مع زوجته وولده، قال إن جواز سفره انتهت صلاحيته في اليوم الذي وصل فيه باتراس متّجهاً إلى باري، تفطّن له حَرَسُ الميناء، وطلبوا منه أن يتّجه إلى أقربِ مقرّ شرطة لتسويةِ وضعيته، لينتهي به الأمر في تلك الزنزانة البغيضة، كان يرتدي شورتاً أسود وقميصاً أبيض، وشَعْره الكثيف إلى الخلف مع خصلات غزاها الشَّيب، أخبرني أيضاً عن شابٍّ جزائريٍّ ينام معهم، ولم يكن غير بطل عملية السرقة التي كانت بالأمس، شعرتُ باستفزازٍ كبيرٍ، ورغبتُ في التّوجّه إليه، وإشباعه ضرباً، وجودنا هناك في أغلب الأحوال بسببه. بعد لحظاتٍ، خرج من الغرفة متّجهاً إلى الحمّام، صدرُه النّحيل مكشوف، ويرتدي شورتاً وردياً، عيناه سوداوان بارزتان، بترهّلات عديدة، تجاهلْناه بعد أن ألقى التّحيّة علينا، عَرَفَنَا، لأنّنا تصادفْنا مرّة في مَرْأَب شحن الهواتف، كان تحت تأثير المخدّرات، وقامت وقتها مناوشات بينه وبين رفاقه.

الخامسة مساء من الفاتح جويليه، عودةٌ من إيطاليا، ثمّ سجنٌ، لم نكن ندري كيف سينتهي بنا، وكم سنمكث به، أم سيتمّ ترحيلنا؛ هواجسٌ عديدة تعبثُ بالنَّفْس، وتُرهِقها.

لم يزُرْنا أحدٌ من الرّفاق، آخر مَنْ رأينا قبل أن نركب سيّارة الشّرطة كان الفلسطيني مازن الذي أوقفتْهُ الشّرطة هو الآخر لاحقاً، وربما يكون قد أخبر الرفاق.

كان هناك هاتفٌ مُثبّتٌ في الرَّدْهَة الصّغيرة التي تؤدّي إلى المكتب، متاحٌ لساعَتَيْن في المساء فقط، لم أكن أملكُ رَقْم هاتف أحدِ من الرّفاق،

كانت ذاكرتي تحتفظُ بأرقامِ كلٍّ من خالي بلخير وكريمو ابن عمّي في الجزائر، فكّرتُ في الاتّصال بأحدهما، ليمنحني رَقْم شقيقي، لأطلبَ منه التّواصل عبر الفيسبوك مع سيد علي، ليحصل منه على رَقْمه حتّى أتّصل به.

اقتربَ منّا شابّ عشرينيٌّ أفغانيٌّ يُدعى "رضوان الله" وجهه بريء، وشَعْره أسود ناعم، ويرتدي سروالاً عسكرياً، وقد مضى على وجوده بالسجن أسبوع في انتظار أن يُفرَج عنه. رضوان الله لطيفٌ وكريم، أخبرناه بأنّنا ليبيان، ولا ندري ما الذي ينتظرنا، أحضر لنا سجائر وقارورة ماء، وبقي جالساً معنا؛

- كل المسلمين إخوتي، إذا احتجتُم أيّ شيء، أنا هنا.

- شكراً، رضوان الله.

كان بغايةِ اللّطف والكرم ابن مدينة جلال أباد شرق أفغانستان، هربَ من الموت الأبدي من تلك البلاد المنكوبة بالحروب والغُزاة.

فُتحَ باب الزنزانة، وتمّت المناداة على مجموعة من المساجين، للإفراج عن بعضهم، وترحيل بعضهم إلى سجون أخرى. غادر التّركيّ محمّد أمين، وطلب أن أنام في مكانه مع الشّابِّ الجزائريِّ، والآخر الكرديّ العراقيّ أمين من أربيل أو "هولير" كما يشتهي تسميتها حين تأتي على لسانه، شابٌّ أشقرٌ طويل، تطلُّ البراءة من عينَيْه الخضراوَيْن، لا يُتقن العربية كثيراً، موجود بالسّجن منذ حوالي شهر، ويحلم بالسفر إلى فرنسا التي يعشقها كثيراً، وقدّم نفسَهُ للشّرطة باعتباره قاصراً. مكثَ في بيتِ الأكراد بباتراس، وقبلها في أثينا.

في معظمِ محافظات اليونان توجد فنادقٌ متواضعة ومبانٍ سكنية، يديرها الأكراد، مخصّصة لبني جنسهم المهاجرين، يحصلون فيها على الإطعام والمبيت المجّاني، كما أخبرني أمين.

في السابعة مساء، فُتِحَ باب الزنزانة المؤدّي إلى رَدْهَة صغيرةٍ، على

يمنيها غرفة النساء، ومُثبّتٌ في جدارها الهاتف الذي يتمّ الاتّصال من خلاله عبر بطاقاتٍ مُعبّأةٍ برصيدٍ، يشتريها -لمَنْ يرغب من المساجين - رجلٌ يتعامل مع الشّرطة، يُطلقون عليه اسم "café new"، وشرح لي رضوان الله كيفيّة التّعامل مع هذا التاجر، وأن لا أُقدِّم له المال إلّا بعد أن يُسلِّمني من النافذة الصّغيرة الاحتياجات، فطلبتُ بطاقة اتّصال وعلبَتَي سجائر وقهوة مركّزة.

السجينان الألباني واليوناني لم تتوقّف الزّيارات عنهما، يحصلان على قارورات مياهٍ باردة وساندويشات وبطاقات اتّصال وسجائر.

لم تتبدّد صدمتي، كانت أوّل مرّة في حياتي أدخل زنزانةً، وأبقى معزولاً عن العالم بين أشخاصٍ، لا أعرفهم، فكّرتُ كثيراً في مصيري، في الغد الذي ينتظرني كيف سيكون؟!.

تمدّدتُ في مكان محمّد أمين مُحاوِلاً الهرب بالنّوم، لكنْ، بلا فائدة، الشّابّ العاصميّ الذي كان معنا في الغرفة نفسها لم يكن مبالياً بوضعه، قدّمَ نفسه للشّرطة كقاصر، ويدركُ أنّه سيتمّ الإفراج عنه بعد أيّام، عاتبتُهُ كثيراً على العملِ الشّنيع الذي قام به، ولم يردّ بكلمة ربّما من الخوف أو من النّدم. سبقَ له وأن دخل السّجن أكثر من مرّة، وأُفرج عنه لكونه قاصراً، وهذا ما شجّعه على التّمادي؛ ثمّ تحادثْنا.

- شحال عندك فاليونان؟

- قريب عام.

- علاش مزالك هنا؟

- كنت في جزيرة كيوس ومنبعد طلعت أثينا لقيت نتاوعنا راك عارف سرقة برك.

- هذي عقليتكم محال تبدلوها.

- صح حاجة مش مليحة.

- رجعنا كامل سراق في عيون اليونانيّينْ بسببكم.

يصمت؛

- علاش سرقت هديك المرأة لبارح؟

- كنت معمر راسي وجماعة طبعوني.

- يسما يخدمو بيك لخاطر أنت مينور ما تخسر والو.

- عندك الحقّ.

- خلّيك من هاد العقلية، وإذا طلقوك اخرجْ من اليونان.

- إن شاء الله، السرقة مش حلّ، مرّة سرقت ساك سائحة بريطانية، لقيت فيها سلسلة ذهب، فيها صليب، وداخله حبة نتع ماس.

- واااااو، وش عملت بهم؟

- بعتهم.

- ومنبعد؟

- راحو غبرة "هيروين" وليريكا.

- يسمى حياتكم تروح هكا، سرقة وحبس حتّى يبعثوك في الصندوق للبلاد.

- الله غالب مكاش اللي يقولك الصّحّ غير اللي يطبعك على راسك.

- ما دام لقيت اللي وريلك كي تخرج منّا، اهربْ من اليونان وما تشوف وراك، وخلّيكْ من السرقة.

- إن شاء الله خو، خليت لاب توب مع كارطا فرنسية في "الخربة" رني حاب الجماعة يبيعوهم ويجيبولي الدراهم.

- زاروك ولا مزال؟

- مزال.

"فؤاد"، حين تحدّثتُ إليه بدا بريئاً جدّاً، وتغيّرت نظرتي إليه، شابّ يافع، لم يبلغ العشرين منه عمره، مقبلٌ على الدنيا بحماسة واندفاعٍ شديدَيْن، يتعزّز خاصّة حين يصادف أبناء جلدته ممّنْ يحملون جيناته نفسها.

جاء "الكافي نيو" يحملُ صينيةً من الألمنيوم، بداخلها طلبات المساجين، وعملاً بنصائح الرفيق رضوان الله، دفعتُ له المال بعد أن سلَّمني علبَتَيْن من سجائر (نوع LM) وبطاقة اتّصال وقهوة.

استغلّ الشَّابُّ الغجريُّ فرصةَ فتحِ بوّابة الزنزانة، ليُحدِّثَ زوجته، وأياديهما تتشابك، كان يوشكُ على تمزيقِ قضبان الحديد، ليصل إليها، شابّةٌ عشرينيّةٌ "تيلدا" جميلةٌ بشَعْرٍ قصيرٍ وعينَيْن بُنِّيَّتَيْن حزينَتَيْن.

لم يتوقّف الشّابّ الغجريّ عن التّحدّث في الهاتف، "أبود" كما تناديه زوجته كان منفعلاً جدّاً وهو يتحدّث مع أكثر من شخص، بدَت قضيّته كبيرة، واستنفد الحيّز الأكبر من وقت استعمال الهاتف، وطابور من المنتظرين الذين شاهدوه وهو يستعمل أكثر من بطاقة اتّصال، ولم يكن يفرغ. أمين هو الآخر يريد أن يتّصل بشقيقه في أثينا، بعدها أخذ شابٌّ باكستانيٌّ السّمّاعة بعد أن أنهى أبود مكالمته.

لا يبالي هؤلاء الشّباب الباكستانيون والأفغان بالسّجن، يتحدّثون بعفويةٍ، ويمزحون بأصواتٍ مرتفعة، وكأن طول بقائهم بالمكان جعلهم يعتادون على الوضع، تدخَّلَ رضوان الله، وطَلَبَ من شابٍّ أفغانيٍّ أن يقدِّم لي دوره في استعمال الهاتف.

- عادي، أخي، دعهُ يتكلّم؟

- هو يتكلّم دوماً، يجب أن تتّصل برفاقكَ، ليعلموا بمكانكَ.

- شكراً كثيراً.

استجابَ له مواطنُه بكل ودّ، لأستلم السّمّاعة، وأتّصل بخالي، لكن الهاتف كان مُغلَقاً، جرّبتُ الاتّصال برقْم ابن عمّي كريمو، وردّ عليّ.

- وشراك كريمو؟

- لاباس.

- عرفتْني؟

- إيه.

- أموركم بخير؟

- الحمد لله.

- رني بلا تلفون إذا تقدر أحكي مع خويا علي قولو يكلّم سيد علي صاحبي في الفيسبوك يلقاه معلّق في صورة بروفايلي، ويطلب منه رَقْمه، ولمّا يعطيهلو خلّيه عندك لمرّة لجاية أعطيهولي.

- أوك مكاش مشكل.

- ربّي يسترك خُويا.

- سلام.

بعد إنهاءِ المكالمة، شعرتُ بارتياحٍ قليلاً، البقاءُ على تواصلٍ مع الرّفاق كان يجعلني أعرف مصيري، وحتّى إن طال بقائي أو قرّروا تحويلي، كان عليّ الاتّصال بهم، لكي يجلبوا لي هاتفي وثيابي.

بعد انتهاءِ الوقت المخصّص للهاتف، أغلقَ الحارس باب الرَّدْهَة الضَّيِّقة جدّاً التي تفصل الزّنزانة عن مكتب الشّرطة، سلَّمَنا الحارسُ وجبةَ العشاء عبارة عن سباغيتي وقطعة خبزٍ في علبٍ بلاستيكيةٍ سوداء، رائحتُها كريهةٌ جدّاً، لا تُشجِّع على فتحها أو تناول ما بداخلها، تركتُها كما هي واكتفيتُ بسيجارةٍ وما تبقّى من قهوة.

أوّلُ ليلةٍ في السّجن، رائحةُ العرقِ والأقدام الكريهة والرّطوبة تزكم الأنوف، مع جحافل البقّ والبعوض، كانت جدرانُ الغرفة مزركشة بكتاباتٍ بلغات عديدة؛ عربية، فرنسية، كردية، فارسية. أسماءٌ كثيرة لمَنْ مرّوا من المكان، كُتبت في الجدار الأمامي هذه العبارة "la Grèce c'est le merde" بدا صاحبها جزائريّاً، قد ضاق ذرعاً باليونان.

النافذةُ إلى الأعلى من الجدار، لا يظهرُ منها إلّا عمارة مجاورة، والسّماء اتّساعها يجعلُ السّجن أكثر وحشةً، ظلّ مراد يُدخِّن بصمت مُتّكئاً على سريرٍ إسمنتي بلا وسادة، ويراقب النّجوم، لم نتحدّث كثيراً، كنّا نتوهّم أنّه سيُفرَج عنّا لا محالة.

نام فؤاد باكراً، أمين بجواره يُبحِرُ ما وراء النافذة، عبود تمدّد عند الباب، ليبقى قريباً من زوجته، مرّر يده تحت الباب، ليُمسك بيدِ شريكته في مشهدٍ حميميٍّ، يتجاوز ظلمة السّجن.

ضجيجٌ قويٌّ في الصّباح، ضجيج قويٌّ، فُتِحَ الباب أكثر من مرّة، عاد محمّد أمين من الزنزانة التي نُقل إليها اللّيلة الماضية، تحدّث مع محامية، ووعدتْه بالإفراج قريباً، كان متوتّراً وهو يحدّثُ أمين بالكرديّة، لم يستوعب العبث الذي يحدث معه، لكنّني حاولتُ النّوم مجدّداً حتّى يمرّ الوقت.

لا أُفُق بالمكان إلّا وجوهُ السّجناء، يتراقصُ القلقُ في عيونهم، الحمامُ يسخرُ من وضعنا، يغازلُ أُنثاه في كلّ وقتٍ، ويتكبّرُ على فتات الخبز الذي نقدِّمه له، معظم رجال الأمن قُساة، يفتحون الباب، ويُغلقونه بقسوة، ويصرخون كثيراً.

أيقظَني رضوان الله بعد الظّهيرة، ليُودِّعني:

- كنْ بخير، أخي، مع السلامة.

- سعيد بمعرفتكَ.

- أنا أيضاً.

- اعتنِ بنفسكَ كثيراً.

- إن شاء الله.

غادر رضوان الله مع مجموعةٍ من الباكستانيّيْن وأفغانيٍّ آخر بعد أن حصلوا على خرطيات.

لم يكفَ محمّد أمين عن الحركة، كان يتمدّد في السّرير، يذهبُ إلى الحمّام، يقفُ في بوابة الزنزانة، يتحدّثُ مع الغجر قليلاً، أمين عاد للنّوم وتركه وحيداً. التفت إليّ، وحاول الحديث معي، ولم أملك القدرة على ذلك.

فُتح باب الزنزانة، ونادى الشّرطيّ على شابٍّ ألبانيٍّ، لديه زيارة، خرج خلفه محمّد أمين متوسِّلاً الشّرطيّ أن يسمح له باستعمال الهاتف.

نُودي على فؤاد أيضاً، قام مُسرِعاً من نومه دون أن يغسلَ وجهه حتّى زاره رفاقه ومعهم عصير وحلويات وعلبة سجائر مع 20 أورو، لم يسمح الشّرطيّ لزوّاره بالحديث معه مطوَّلاً، كان يودّ أن يُخبرَهم عن مكان الكمبيوتر المحمول الذي خبّأه في "الخربة"، ليقوموا ببيعِه، لكنّه أخفق.

كان الوقتُ يمرُّ ثقيلاً في ذلك السّجن الحقير، لا موسيقى ولا تلفاز ولا كُتُبَ أو جميلات يُعبِّرنَ على مأساتنا، لم أتناول الأكل منذ السبت، ذلك اليوم المشؤوم الذي أُلقي فيه القبض علينا بشكلٍ مفاجِئ، حتّى غريزة الهرب التي جئْنا بها من الجزائر انطفأت في تلك اللّحظة التي سلّمْنا فيها رقابنا للشّرطيّ القبيح بكل سهولة. لم يُمسكْ بي شرطيٌّ يوماً سواء في ساموس أو أثينا وسالونيك أو في باتراس التي اختارت أن تسجنني، كنتُ دائمَ الفطنة، لا أمرّ على شارعٍ أو أدخل مركز تسوّقٍ أو ملهى إلّا بعد أن أمسح المكان، وأتأكّد من خُلوّه من الأمن.

الكهلُ الهولندي يُتمتم مع نفسه، ومنشغلٌ بجَمْع أعقاب السّجائر، ومراقبة الشّمس من نافذة الرَّدْهَة، يشاغبه أحياناً فتى باكستانيّ، يصرّ دوماً على سؤاله:

"where are u from?"، ليردّ عليه الكهل بالإجابة نفسها "Im from Amsterdam". الغجريّ وشقيقه يتكلّمان قليلاً مع البقية، ويُدخِّنان بلا توقّف.

لم يكن أحدٌ يعرف الوقت بالسّجن، كنّا نُدركه في أثناء تقديمِ الوجبات ووقتِ استعمال الهاتف.

أخذتُ السّمّاعة بعد أن فرغ الغجريّ الأسمر أبود من مكالمته التي أنهاها منفعلاً، وقبضة يدِه تضرب الحائط بقوّة. كلّمتُ ابن عمّي.

- صح كريمو.

- لاباس.

- خويا كاش جديد؟

- رني كلمت علي خوك وراه يستنى في رد صاحبك سيد علي عليه.

- صحيت خويا، سلّم عليهم.

محمّد أمين هو الآخر تحدّث مع محاميته، وشعَر بارتياحٍ بعد أن أخبرتْهُ بوصول قضيّته إلى المحكمة التي ستُفرِج عنه بعد أيّام.

دخل شرطيٌّ ومعه وجباتُ العشاء، يُسلّمُها بعد أن يقوم بالمناداة على السّجناء، اكتفيتُ بالخبز فقط وكأس كَوكا كولا قدّمه لي محمّد أمين الذي تناول عشاءه كاملاً، واستغرب إعراضي عنه.

ما يُعذِّبُ في السّجن أن تجهل متى يُفرَجُ عنكَ، وكم ستمكث به، تتمدّدُ الأيّام، وتصبح أطول مع دوّامات تفكيرٍ لا تنتهي.

كانت ليلتي الثّانية بالسّجن، نمتُ باكراً رغم الحرارة المرتفعة.

صباحاتُ باتراس داخل السّجن لا يصدرُ منها إلّا هديل الحمام، وشَغَب ذُكُوره على الإناث، وصوت بابِ الزنزانة وهو يُغلَق ويُفتَح مُحدِثاً صخباً عارماً.

ظُهُورُ البصمةِ

نُوديَ علينا صباحاً نحن اللّيبيّان، ارتفع خفقان قلبي، واستبشرتُ باحتمال الإفراج عنّا، أيقظتُ مراد، غسَلْنا وُجُوهَنا، ودخَّنتُ على الرّيق، لتبديد بعضٍ من توتّري، خرجْنا من الزّنزانة والأصفاد بأيدينا رفقة الشّرطيّ الذي نادى علينا، وطلبَ أن نجلس غير بعيدِ عن المكتب.

بدأ الاستجواب مع مراد للتّأكّد من هويته، بقي مُصرّاً على كونه ليبيّاً، عرفتُ أنّه سيتمّ تبصيمُنا، ليتأكّدوا من هويّتنا الحقيقية، وهذا ما كنّا نخشاه، لأن البصمة التي قدّمناها في ساموس تتضمّن معلوماتنا الشّخصيّة.

رافق مراد شرطيّاً بزيٍّ مدنيٍّ إلى طابق علوي، وكان في المكتب شرطيٌّ، وإلى يساره شرطيٌّ آخر، كلاهما يرتدي لباساً مدنيّاً، كما كلّ رجال الشّرطة هناك. لم يتوقّف عن النّظر إليّ بنظراتٍ فيها ريبةٌ وقسوة وتوعُّد. ثمّ بدأ في استجوابي.

- متأكّدٌ أنّكَ ليبي؟

- نعم.

- متأكّد مرّة أخرى؟

- نعم، أنا ليبيّ.

سألني زميله مُحاوِلاً استدراجي:

- أنتَ من وهران؟

- أنا من طرابلس.

بعد مرور حوالي عشرِ دقائق، عاد مراد، وبقي معزولاً عنّي، وبيد مرافقه الشّرطيّ مجموعة أوراق، حاولتُ جاهداً التّكلّم معه بلا فائدة، كان مضطرباً ومُشوَّشاً، وفي اللّحظة التي حاول الجلوس فيها، همسَ لي:

- البصمة طلعت.

- اوووو والحلّ؟

- اتفرت.

-عادي كما جات تجي.

صرخ الشّرطيّ، وطلب أن نصمت.

بعد أن تأكّدوا من جزائريّة مراد، جاء دوري لتقديم البصمات، رافقتُ الشّرطيّ الذي طلب منّي أن أُسرع في المشي، تعمّدتُ التّماطل وعدم الإسراع، حاول سَحْبي من ذراعي دون أن يتكلّم، لأتصلّب أكثر، احمرّ وجهُهُ، وشعر بالاستفزاز، لكنّه خضع، وبقيتُ خلفه حتّى وصلْنا مكتب التّبصيم.

دخلتُ المكتب، وطلب الشّرطيّ أن أضع أصابع اليد اليمنى، فعلتُ دون أن أضغط جيّداً على زجاج آلة البصمة الإلكترونية، الأمر نفسه مع اليد الأخرى، انتبهَ لذلك، وحاول أن يضغط على كفّي، وغمز زميله من أجل أن يفعل بقوّة.

فَعَلَهَا النّذل، وظهرت بياناتي على شاشة الحاسوب، وطلب بعدها أن أذهب إلى مكتبٍ آخر عند سيّدةٍ خمسينيّةٍ شقراءَ متجهّمة، لتأخذ لي صورةً مع لوحة ترقيم، وضعتْها على صدري.

شعرتُ بانقباض شديد بعد أن ظهرتْ هويتي الحقيقية.

وفي طريقِ عودتنا إلى المكتب الرئيس للشّرطة، حاول مجدّداً ذلك الشّرطيّ التّافه أن يدفعني، وبقوّة:

- تحرّكْ بسرعة، لديّ عمل كثير.

- لا تدفعني، دعني أمشي حُرّيّة.

- قلتُ تحرَّكْ بسرعة؟

ابتعدتُ عنه، وبقيتُ واقفاً:

- ماذا تريد منّي؟ أنا هنا بلا وثائق فقط، ولستُ إرهابياً أو تاجر مخدّرات، لا تكن عدوانيّاً معي، أنا أحترم هذه البلاد، وأحترم شعبها، وأريدكَ أن تحترمني لا أكثر.

صَمَتَ، وبقيَ يتأمّلني، وسبقتُهُ في المشي، ليسبقَني هو الآخر، وضحكتُ عليه في أعماقي، لأنّه لم يستفزّني أكثر، وإلّا كنّا سنتعارك، وتتعقّد أوضاعي.

وجدتُ مراداً في مكانه والأصفاد بيَدَيْه.

توجّه الشّرطيّ بالحديث إلينا:

- لماذا تكذب؟

لم يردّ عليه أحد.

- لمَ لم تخبراني بأنّكما جزائريان؟

تجاهلْناه بعناد جزائريٍّ واضح. لم يكن ليفعل شيئاً ذلك الغرّ الأمرد، كان منفعلاً جدّاً وهو يتحرّك في كرسي المكتب، ثمّ وقف، ولاحظتُ قِصَرَ قامته ونُحُوله، وجهه أبيضُ، وعيناه ترسلان إشاراتٍ عدوانية، كنتُ مستعدّاً لضربةٍ مباغتة منه، لأنيّ لم أرتحْ لنظراته، أَمَرَ معاونه أن يفتحَ لنا باب الزّنزانة، ليقوم برفس مراد على مؤخّرته، التفت إليه مراد متحدّياً، لكن الأصفاد منعتْهُ من تحطيم أنفه، لم ينزعْها عنه إلّا بعد أن فتح الباب. سرتُ خلف مراد وبعد أن مشيتُ قليلاً، شعرتُ برفسةٍ خفيفةٍ على قَدَمِي اليُمنى، لم أتوقّعها من ذلك الأمرد المخنَّث، التفتُّ نحوه، وكان يقول "لمَ تكذب؟"، لم أخاطبْهُ، باغتَني بعيداً عن الكاميرا المثبَّتة أعلى السّقف حتّى لا ترصده، ولم يجرؤ على الاقتراب منّي بعدها، لأنّه يعلم أن الرَّدْهَةَ المؤدّية إلى أغراض السّجناء، لا توجد بها كاميرا، ولن ينجوَ منّا، إن فكّر في استعراض عضلاته الناعمة.

عاد إلى الوراء، وبقيتُ أنظر إليه باحتقار، كمحاولة استفزاز حتّى يدنوَ أكثر، لكنّه كان جباناً، لم يفعل، ودفعني معاونُهُ إلى الزّنزانة؛ يا لهم من أشباه رجال! كان يمكنني أن أتمادى معه، اغتنم فرصة تواجده مع معاونيه، كما أنّه تفادى كاميرات المراقبة خشية أن يتطوّر الأمر لاحقاً، إن تعرّض لنا. "يا أبناء الـ..... تخدعون بلا أدنى رجولة، أتمنّى فقط أن يُفرَج عنّي قريباً، وأنسى أوروبا، وأُخصِّص وقتي، لأُفتّش عنكم في ملاهي وأسواق وحدائق باتراس، وأتبوّل عليكم بكلّ متعة نيابةً عن كل مهاجرٍ ضعيف، فكّرتُم في الاعتداء عليه".

عرف محمّد أمين أنّنا جزائريون، ضحك كثيراً وهو يداعب شَعْرَه.

- من أوّل يوم لم أقتنع بأنّكم من ليبيا.

- كيف؟

- هكذا، لم أصادف في أوروبا ليبيّاً مقارنةً ببقية العرب خاصّة الجزائريّيْن والمَغَارِبة والمصريّيْن والسّوريّيْن، ماذا حدث معكم؟

- عرفوا هوياتنا من خلال البصمات.

- تبّاً لهم! ماذا سيحصل معكم الآن؟

- لا ندري، ولا يهمّني صراحة، أغلب الظّنّ أن نُحوَّلَ إلى سجنٍ آخر، إن لم يفرجوا عنّا. طلبوا منّا قبل الدخول إلى الزنزانة أن نُوقِّع على مجموعة أوراق، ولم يسمحوا لنا بقراءتها، رأيتُ منها عبارة واحدة بالعربية "مغادرة الأراضي اليونانية"، أعتقد وثيقة طَرْد ربّما.

- أتمنّى ذلك، الطَّرْد يساعدكم، صحيح.

- نعم، بإمكانكَ أن تتجوّل به بحُرّيّة.

- كم مدّتهُ؟

- من أسبوع حتّى شهر.

- لماذا قدّمتُم أنفسكم كليبيّيْن، وليس كجزائريّيْن؟

- اللّيبيون هنا قلّة غير معروفة، ثمّ إن بلادهم تعاني من الحرب، لا يتعرّضون لإجراءات مزعجة مثلنا نحن الجزائريّيْن الذين يُحبّوننا كثيراً (بسخرية).

يضحك محمّد أمين:

- لماذا هاجرتَ من الجزائر؟

- لا يوجد أمل هناك.

- متزوّج؟

- لا.

- درست؟

- نعم، تخرّجتُ في الجامعة.

- الجزائر فيها بترول، صح؟

- وفيها مافيا أيضاً.

يضحك؛

- حتّى تركيا غارقة في الفساد.

- غير معقول، تركيا أجمل من الجزائر كما رأيتُ، وتبدو متطوّرة مقارنة ببلادنا الغنية والأكبر.

- يبدو لكَ ذلك، نعم، تحقّقتْ قفزات تنموية في تركيا مع مجيء العدالة والتّنمية، لكن الفساد بقي كما هو، ومع أردوغان أنا خائف على تركيا التي سوف تتمزّق في العشر سنوات المقبلة.

- لهذه الدرجة؟

- نعم، الاستبداد والتّورّط في حرب سورية، واستغلال الانقلاب العسكري لتكميمِ الأفواه وقمع الحُرّيّات لن يمرّ بخير على تركيا، أنا كرديٌّ، ولا أشعر بأنّني مواطنٌ تركيٌّ، لغتي غيرُ رسمية، وصلاح الدين ديمرتاش

الزعيم الكرديّ في السّجن، وطَرَدَ أردوغان معظم نوّاب حزب الشّعب الكرديّ من البرلمان، كيف تريدني أن أتفاءل؟

- محزنٌ حقّاً.

- لم أحصل على تقاعدي، ومعظم رفاقي في المهنة تمّ طَرْدهم أو اعتُقِلوا بتهمة المشاركة في تدبير الانقلاب العسكري.

- لذا هربتُ إلى ألمانيا، صح؟

- بالضبط، زوجتي تقيمُ هناك مع عائلتها منذ سنوات، ولدينا ولدٌ تخرّج مؤخّراً في الجامعة.

قبل وقت استعمال الهاتف، نُودي على مراد الذي زاره شقيقُهُ حميمد رفقة عبد النّور، لكونهما يملكان وثائق عكسَ بقية الرّفاق، لم تدُم الزّيارة إلّا بضعَ دقائق لا أكثر. جلب حميمد معه علبتَي سجائر LM ولم يُفلِحْ في الحديث معنا، لأنّ الحارس منعه. فؤاد كان ينتظر زيارة رفاقه، لكنْ، بلا فائدة.

اتّصلتُ بابن عمّي كريمو مجدّداً دون أن أحصل منه على هاتف سيد علي الذي لم يكن قد قرأ رسالة شقيقي بعد.

حدّثني أمين الكرديّ عن جزائريَّيْن، كانا بالسّجن قبل مجيئنا، أحدهما نُقِل إلى زنزانةٍ أخرى، والآخر تمّ تحويله إلى سجن أثينا، طلبتُ منه أن يصفهما لي، وفهمتُ من عربيّته الرّكيكة أنّه أشقرٌ، قضى معهم خمسة أيّام، اعتقدتُ، بشكل شبه أكيد، أنّه حليم الميلي.

أمين عربيتُه مزيجٌ من الفصحى واللّهجة العراقية ومفرداتٍ إنجليزية،

معجبٌ بهويّته الكرديّة، وينتظر بشَغَف إعلان كردستان استقلالها عن الحكومة المركزية في بغداد نهاية السنة، ومع ذلك يحبّ صدّام حسين في مفارقةٍ عجيبة من كرديٍّ حارب طويلاً قادةُ قوميته صدّاماً. كان يغنّي بالكرديّة أغانٍ حزينة للمطرب الكرديّ التّركيّ أحمد كايا، ويردّد معه محمّد أمين بصوته الدافئ.

شعرتُ بالحنين لليالي باتراس، اشتقتُ شرفة "الخربة" لأغازل البواخر المتّجهة إلى إيطاليا، كان يصلني صوتُ أغاني الراي من غرفتنا وسيد علي يرقص.

اشتقتُ كثيراً لتلك المُدُن الصاخبة بأغاني الصّيّادين وأحلامِ المهاجرين ورقصات غجرياتٍ، لا يأبهنَ لدوريّات الشّرطة.

استحمّ محمّد أمين، وغسل ثيابه، ومنحَنا قارورة غسول الشَّعْر، لنستحمّ، وطلب من الكهل الهولندي أن يستحمّ، لكنّه تجاهله، ورغم رداءة الحمّام، مَرَرْنَا تِباعاً عليه، وغسلْنا أقمصتَنا تفادياً لأمراض جِلْدِيّة، قد تُصيبنا.

في حقيبة هذا النقابيّ الكرديّ زجاجةُ ويسكي، توسّل الحارس أن يمنَحه كوباً منها، ويأخذ البقية، لكنّه رفض بحُجّة أنّه تعاطي الكحول ممنوعٌ داخل الزنزانة.

بعد هذا الرفض، بدأتُ الحديث معه:

- تبّاً لهم من أوغاد! شربتُ كثيراً في أحد شواطئ باتراس بعد أن تناولتُ طبقاً من السمك المشوي.

- هنيئاً لكَ.

- أتمنّى أن نخرج من هنا قريباً.

- إلى أين تنوي السّفر بعد خروجكَ من اليونان؟

- ممكن النمسا.

- جيّد، لا تنسَ أن تزورَني في ميونيخ، لديّ مطعم هناك مع صهري.

- أتمنّى ذلك.

- شكراً لكَ.

محمّد أمين مثقّفٌ يساريٌّ، تبادلْنا طيلة اللّيل الحديث عن الدولة العثمانية وأتاتورك وابن عربي وروايات أمين معلوف، أورهان باموق، إليف شافاق، ناظم حكمت، إسماعيل كاداريه، عمر الخيّام، وجلال الدِّيْن الرّوميّ الذي يُحبّه كثيراً. لا يعرفُ عن الجزائر إلّا زيدان والأمير عبد القادر. استغربَ أيضاً خلال حديثنا شيزوفرينيا الجاليات المسلمة في أوروبا، أصحابها يُصوِّتون في الانتخابات على الأحزاب العلمانية في أوروبا، من أجل الحصول على امتيازات اجتماعية، لكنْ، في بلدانهم الأصلية يُصوِّتون للأحزاب الإسلامية.

ليلةٌ ثالثةٌ في السّجن، زال فيها بعضٌ من توتّري، وسلّمتُ بالأمر الواقع، واعتقدتُ أن بقائي لن يتجاوز الشّهر، كما قال لنا ذلك الشّرطيّ الأمرد "بسبب هذه الكذبة، ستبقى شهراً هنا".

بعد منتصف النهار، استيقظتُ على وَقْعِ جلبةٍ كبيرة، أُفرج عن الشّابّ الألبانيّ وبعض الباكستانيّيْن، وجاء أفراد آخرون من أفغانستان وإيران، لم أجد محمّد أمين، لم أعرف إن كانوا قد أفرجوا عنه أو حُوِّل إلى سجن

آخر، بعدها أخبرني مراد أنّه غادر في التاسعة صباحاً بعد أن استلم من الحارس وجبات الإفطار، وساعد عاملة النّظافة على جَمْعِ القمامة، وتمنّى لنا إفراجاً قريباً.

كنّا قد دخلْنا في اليوم الرابع، والجديد الذي قمتُ به هو أنّني واظبتُ على الاستحمام لمرّتَيْن في اليوم.

لا بوادر للأمل، وبدا لنا أنّه قد حُسِمَ أمرنا، وسنُنقَل إلى سجن ألادابون في أغلب الأحوال. فؤاد ينتظر أيضاً أن يُفرَج عنه أو تأتي جمعيةٌ إنسانيةٌ تضمن فيه لدى الشّرطة كما حصل معه سابقاً.

بدأتُ الاعتياد على السّجن بعد أن زالت تلك الرّهبة التي شعرتُ بها أوّل يوم، غادر الغجر في ذلك الصباح إلى المحكمة التي ستفصل في قضيتهم، كان محمّد أمين قد أخبرني أنّهم متّهمون بسرقةِ منزل أحد الأثرياء، وعندما عادوا مساء، كانوا مُحبَطين جدّاً، حكمتُ عليهم المحكمة بثلاث سنوات، والحُكم نافذ، كما حاول أن يُفهِمَنا عبدو، وكانوا سيُنقَلُون إلى سجن آخر في يوم الغد. لم تتوقّف زوجة عبّود عن البكاء وأطفالها الثلاث.

كنتُ أنتظرُ دوري أمام كابينة الهاتف حتّى دخل شابٌّ قصيرٌ نسبيّاً، بجسدٍ رياضي، على وجهه كدماتٌ عديدة، كان مرعوباً جدّاً، ولا يقوى على الكلام، وعينه تفيضُ بالدّموع، أدهشه وضع السّجن حتّى أنّه لم يعرف أين يتّجه ولا أين يجلس، بقي واقفا أمام الباب غير مستوعبٍ ما يجري معه.

اتّصلتُ بابن عمّي كريمو، وحصلتُ منه على رَقْم هاتف سيد علي، وقبل أن أسحبَ البطاقة من الهاتف، اقترب منّي هذا الشّابّ المرعوب الذي كان يرتدي قميصاً أبيض، به صورة للفاتنة "مارلين مونرو" وهي تبتسم، وشورتاً رمادياً قصيراً.

- هل تسمح لي بإجراء اتّصال مع شقيقي، لا أملك بطاقة.

- عادي، تفضّلْ.

-شكراً لكَ.

بعد أن هاتف شقيقه، أعاد لي البطاقة، وشكرني كثيراً. - غداً سأشتري بطاقة، وإن احتجتَ أيّ شيء، لا مشكلة.

- عادي صديقي، أهمّ شيء أنّكَ اتّصلتَ بشقيقكَ.

- شكراً مجدّداً.

- ماذا حدث معكَ؟

- أنا ألبانيٌّ، وأنتَ؟

- جزائريّ.

- البقية أيضاً؟

- نعم. جزائريون.

- سعيد بمعرفتكم.

- سعداء بكَ أيضاً.

شكير شابٌّ ألبانيٌّ في منتصف العقد الثالث، يقيمُ في فرانكفورت الألمانية، دخل اليونان من مقدونيا عبرَ شاحنة سنة 1996 ولم يكن يتجاوز حينها الـ15 سنة. اشتغل سنوات طويلة في جزيرة ميتيلني قبل أن يتّجه إلى أثينا، ليقرّر بعدها الانتقال إلى ألمانيا، بسببِ أزمة التّقشّف في اليونان التي عاش فيها أكثر من خمسة عشر سنة، ويملك وثائقها.

كان قد مضى على ذهاب شكير إلى فرانكفورت سنتان، وجاء من ألمانيا مُروراً بإيطاليا، ليصل باتراس من ميناء باري متّجهاً إلى أثينا، ليُواصلَ رحلته إلى العاصمة الألبانية "تيرانا"، حيث تنتظرُه خطيبته التي أراد أن يفاجِئَها بهدية بمناسبة عيد ميلادها، لكنْ، بعد نزوله من الباخرة في ميناء باتراس تعرّض لتفتيشٍ دقيقٍ، وسُحبَتْ منه وثائقه، واقتيد إلى مركز الشّرطة، وأخذوا بصماته، لينهالوا عليه بالضّربِ، لاشتباههم فيه أنّه قد شارك في عملية سرقةٍ قبل سنوات مع مجموعة من الألبان. كان متأثّرا جدّاً، وبالكاد يقوى على الحديث، لم أرغبْ في مواصلة الكلام معه بعد أن تأثّرتُ لوضعه، ونصحتُهُ بأن يتمدّد في السّرير أو أن يأخذ حمّاماً حتّى يتجاوز بعضاً من صدمته، لاحقاً رفض تناول العشاء، ولم يستجبْ له الحارس عندما طلب منه أن يقتني له مشروباتٍ وأطعمة، كما أنّه بقي متوتّراً، يجلس، ثمّ يتمدّد، ثمّ يقوم بالدوران في الزّنزانة مُحاوِلاً تجاوُز صدمة الضّرب الوحشي الذي تعرّض له من الشّرطة دون مبرّر، وكان أيضاً مُتوجِّساً منّا قليلاً، كان يحملُ معه مبلغاً كبيراً من المال، يتجاوز 4000 أورو، لم يتوقّف عن التّقلّب في فراشه، والتّردّد على الحمّام.

قلتُ له:

- صديقي، بإمكانكَ أن تنام دون أن يُزعِجَكَ أحد، أنتَ مع ثلاثة جزائريّيْن، ولن يجرؤ أحد على الاقتراب منكَ.

بابتسامة أجاب:

- شكراً لكَ.

كان مُتوجِّساً من الغجر، ويونانيّ التحق بنا قبل ساعة، ولم يكفّ عن دخول غرفتنا حتّى نَهَرَهُ مراد. ذلك اليونانيّ المسكين مُدمِنُ هيروين، ويعاني

من مشاكل نَفْسِيَّة، لم يتوقّف عن مشاغبة الهولندي، والعبث بأغراضه وإزعاجه حين يكون مُنشغِلاً بمراقبة النّجوم من النافذة، وقبل منتصف اللّيل لم يتوقّف عن المناداة على الحارس المناوب الذي صبر عليه كثيراً، لكنّه بعد مدّة أتى مُسرِعاً، ودفع عليه الباب بقوّة، أيقظت شكير من نومه، وهجم عليه بعنف، لكن المدمن كان يشتمه بكلامٍ نابٍ، ترجمه لنا شكير، لننفجرَ بالضّحك على مَسْمَعٍ من الحارس العجوز، بعدها تدخّل أبود، وأنقذ المدمن من يد الحارس، وأكرمهُ مراد بسيجارة نظير شجاعته.

في صباح اليوم الموالي، نُودي علينا مجدّداً أنا ومراد، أخبرَنا فؤاد بأنّهم سيأخذوننا إلى المستشفى، من أجل فحوصاتٍ طبِّيَّة، ليُفرِجُوا بعدها عنّا. لم أتحمَّس كثيراً، لأن الشّرطيّ الأمرد الذي خدعَني برفسة على قَدَمِي هو مَنْ كان سيُرافقنا .. يا له من حظّ!

صعدْنا سيّارة زرقاء من نوع "سكودا" والأصفاد بأيدينا، كان الشّرطيّ السَّيِّئ هادئاً، وعامَلَنا باحترام، جلستُ خلفه ومراد خلف السّائق الذي بدا طيّباً. لم يجرؤ الشّرطيّ الأمرد على الاتّكاء بظَهْره على الكرسي، خوفاً ورعباً من أن يتعرّض لعمليّة خنق منّي، "لهذه الدرجة أنتَ جبان!".

وصلْنا إلى المستشفى بعد أقلّ من خمس دقائق، بقيْنا بالأصفاد حتّى دخلْنا قاعة الاستعجالات. نزعها عنّا، وقال "تفضّلْ، صديقي"، استغربتُ منه كلمة صديقي، كان بعيداً عنّا ممّا يشجِّع على الهرب.

- وش مراد نهربوا.

- اصبرْ بلاك يطلقونا.

- محال نثيق فيهم ياودي خذ رايي نهربوا هاد الوغد ما يخوفش، كف وركلة ونهربوا بين المرضى.

- اصبرْ راح نخسروها على أرواحنا.

دخل مراد أوّلاً. أُخِذَت عيّنات من دمه، وحقنوا ذراعه، والشّيء نفسه حصل معي، رافقَني الشّرطيّ الذي أصبحتُ صديقه إلى القاعة، كانت الممرّضة لطيفة جدّاً، طلبتْ منّي أن أكشف على ذراعي، لتحقنني، كنتُ أراقبها وهي تمسحُ بالقطن المعقّم ذراعي تمهيداً للحقنة؛

قال لي الشّرطيّ:

انظرْ إلى السّماء، لا تنظرْ إلى ذراعكَ وهي تحقنكَ؟

قلتُ له:

- أين المشكلة، لو نظرتُ؟ لن يرعبَني ذلك.

لم يردّ بكلمة، وطأطأ رأسه.

بعد أن خرجتُ إلى الرّواق، وجدتُ شابّاً آخر مع مراد، سبق وأن لمحتُهُ في "الخربة". شابٌّ أسمرُ يرتدي سروالَ جينز أسودَ وقميصاً مزركشاً، كان منفعلاً جدّاً، ويرغبُ في الهرب مثلي، الأصفاد لم تُسحَب منه عكسنا.

رافقَنا الشّرطيّ الذي لم يتوقّف عن مناداتي بـ "my friend" إلى طابقٍ آخر للمرور على راديو سكانير، بقيْنا في الرّواق ننتظرُ دورنا، تحمّستُ للهروب أكثر من أيّ وقت، مرّ مراد، ثمّ الشّابّ الآخر ويُدعى نبيل، ليأتي دوري.

كنتُ بلا أصفاد، ولم يدخل معي الشّرطيّ الأمرد إلى غرفة السكانير، كان بها سريرٌ، ونافذتها تطلّ على طريقٍ سريع، لكن الكشف تمّ بسرعة دون أن أجد فرصةً للاقتراب من النّافذة، والقفز منها خارجاً، بقيتُ أفكّرُ

كيف أُباغتُ الممرّضة، وأقفز دون مراعاةٍ للمسافة التي تفصلُ النّافذة عن الأرض، ثمّ طَرَقَ الشّرطيّ الباب، وردّت عليه الممرّضة بأن بإمكانه الدخول.

خرجتُ بعد أن ضيَّعتُ شبه فرصةٍ للهرب، غادرْنا المستشفى إلى مصلحةٍ طبِّيَّة أخرى، أخذوا نبيلاً، واستغرقَ وجوده هناك حوالي عشر دقائق، لم ندخل نحن الاثنَيْن، اكتفى الشّرطيّ الأمرد بنبيل فقط.

عُدْنا إلى السّجن، نبيل كان يتوقّع أن يُفرَج عنه بعد أن قضى أيّاماً في سجنٍ آخر، وأسبوعاً حيث كنّا، لم يُخفِ انفعاله وغضبه، ولم يتقبّل فكرة العودة إلى السّجن مجدّداً بعد أن وعدوه بالإفراج، وقامت بينه وبين الشّرطيّ مناوشةٌ حادّة، وبقي يصرخ ويشتم ويضرب الباب بعنفٍ حتّى جاء الشّرطيّ الأمرد، فتح الباب وهو يصرخ مُحاوِلاً ضربه، ردّ عليه نبيل بسَيْلٍ من الشّتائم باليونانية، لم أفهم منها شيئاً، ليمدّ الشّرطيّ رِجْلَهُ، ويحاول ضربه، ثمّ أمسكه نبيل من قميصه، وحاول أن يسحَبه إلى الدّاخل بعيداً عن الكاميرات، لكن أفراد الشّرطة تدخّلوا، وحاولوا إنقاذ زميلهم الأمرد الذي احمرّ وجهه، وشعر بأنّه لن ينجوَ، بينما اجتمعْنا نحن حول نبيل حتّى لا يُخرِجوه بالقوّة أو أن يعتدوا عليه، ليخرجوا في النهاية ومعهم الأمرد مُنكّس الرأس.

نبيل من الشلف غرب الجزائر موجودٌ في اليونان منذ سنة ونصف، وصل إلى إيطاليا مرّتَيْن، واكتُشف أمره في ميناء أنكونا وباري، بسببِ غباء مرافقيه، روى لنا تفاصيل محاولتِه الأخيرة في باري بكثيرٍ من المرارة بعد أن غيَّر مكانه إلى شاحنة أخرى قبل وصول الباخرة إلى الميناء، بسببِ خلاف بين مرافقيه حول مَنْ يكون أوّل مَنْ يقفزُ من الشّاحنة بعد خروجها من الميناء، ليُفتضَح أمره، ويذرف دموعَ الخيبة وهو يرى من نافذة الغرفة التي احتُجز فيها باري وهي تبتعدُ عنه، وأنّه كان يفقد تدريجياً عذوبة

هوائها الذي لم يشعرْ بمثله من قبل. وصل أيضاً إلى صربيا وكرواتيا، ولم ينجحْ في الوصول إلى سلوفينيا.

اليوم الثاني لشكير جعله يسترجعُ بعضاً من قوّته، تعرّف على نبيل الذي تبادل الحديث معه باليونانية، شكير نجح في استمالةِ شرطيٍّ، ودفع له رشوةً من أجل أن يمنحَه هاتفه، ليسحَب منه رَقْم هاتف شقيقته، يعرفُ هذا الألباني المخضرم جيّداً كيف يفكّر اليونانيون، ولم يتوقّف عن شتمهم؛

- شعب مغرور وأناني ومتعجرف، أجمل ما في بلادهم نساؤهم الجميلات اللواتي يَسْتَحِقْنَ المعاشرةَ من الخلف، ودون واقٍ ذكَريٍّ.

- تمهّلْ، يا شكير، ما هذا؟، ليس كلّهم، فيهم الطَّيِّبون. لينفجر الرّفاق بالضّحك.

انتبهْنا إلى عدم وجود الغجر، أخبرَنا محمّد أمين الكرديّ أن الشّرطة نادَت عليهم باكراً، الهولنديّ تعوّد على طلبِ السّجائر دون حرج.

قال مراد:

- اعطيه مسكين هذا راه كما الولي الصّالح.

لم يكن الجنون بادياً على الهولندي، يتكلّمُ الإنجليزية بطلاقة، وبلكنةٍ هولندية مع قليل من الفرنسية.

نجَح شكير في استمالةِ شرطيٍّ آخر، سهّل عليه التّواصل من هاتفه مباشرة؛ "بالمال تشتري الذمم، وتنكح العالم"، كما يقول محمّد شكري.

الشّابّ الإيراني الذي وصل اللّيلة السّابقة بقي معزولاً عن الجميع غير مستوعبٍ حُلمه الأوروبي الذي انتهى إلى هذا الحال، كان يقفُ عند الباب

مطوَّلاً هرباً من الواقع الذي لم يألَفه، يضعُ صليباً في عنقه، عاش في تركيا أربع سنوات، ويحلمُ بالوصول إلى بريطانيا، حيث تقيم زوجته كما يقول.

- أنتَ جزائري؟

- نعم.

- تُتقن الفرنسية؟

- تقريباً.

- Bonjour camarade

- Bonjour

ضحك، وقال لي:

هل تعتقد أنه سيُفرَجُ عنّي؟

- لا أدري، أتمنّى ذلك.

لا يعترفُ فرشاد بما يُسمّى ولاية فقيه التي يتّهم رموزها بالفساد والرجعية، يعدّ نفسه مسيحيّاً، كما يفعلُ بعضُ المهاجرين ظنّاً منهم أن ذلك يُسهِّل عليهم الحصول على اللّجوء.

بعد غروب اليوم ذاته، سمعْنا صراخاً شديداً في مكتبِ الشّرطة، صمتَ الجميع لمعرفة ما الذي كان يحدث، لكن الصّراخ لم يتوقّف ومعه الضّرب أيضاً، اقتربْنا من الباب، لكن الحارس طلب منّا أن نبتعد، لكي يُفتَح الباب للسّجين الجديد الذي كان يصرخ بقوّة.

شابٌّ رومانيٌّ أصلع، عيناه خضراوان، يرتدي قميصاً وشورتاً بلون أزرق،

قطّب حاجبَيْه حين دخل، وبدأ يُبرِز صدره وكتفَيْه، دخل غرفَتَنا، وقال "من أين أنتُم؟"، قام نبيل من سريره، وطلب منه سيجارة، بدأتُ أضحك، لأن زميلنا الرّومانيّ أجاد التمثيل، وبدوره نبيل عرف كيف يضعُه في حجمه الطّبيعيّ.

حصل شكير من شرطيٍّ على أوراقِ البوكر، عاد إلى وضعه الطّبيعيّ بعد أن تحدّث مع عائلته وخطيبته، وعثر له شقيقه على محامٍ، وأراد بعض الترفيه في ذلك السّجن الموبوء، كان يُنصِتُ إلينا نحن الجزائريّيْن راغباً في معرفة ما الذي نقوله، وعن سبب ضحكنا ونحن نستمع لحكايات نبيل حتّى يضحك معنا، كان يريدُ أن يندمج معنا حتّى لا يشعر بالعزلة أو الاغتراب.

حلّ اليوم السّادس، وهاتفُ سيد علي مُغلَق، ما أثار شكوكي وتوتّري. فؤاد عزلوه في غرفةِ النّساء مع مراهقٍ باكستانيٍّ، أمّا الرّومانيّ، فقد استيقظ باكراً، ولم يكفّ عن الصّراخ في الباب، استفزّني كثيراً، وفكّرتُ في ضربه على صلعتِه حتّى يصمتَ، بعدها أخذوه خارجاً، ثمّ عادوا به في منتصف النّهار، وكان محمّد أمين الكرديّ قد غادر باكراً دون أن يراه أحد، في اليومَيْن الأخيرَيْن، كان حزيناً وقليل الكلام بعد أن سئم البقاء بالمكان.

في الظّهيرة، تضاعف هيجان الرّومانيّ، وكان يعتدي على الباكستانيّيْن، مَنَحَهُ نبيل قطعة قماشٍ طويلة، وطلبَ منه أن يُجرِّب شَنْقَ نفسه، فربّما تنجح تمثيليّته، ويُفرجون عنه، وفعل ذلك، وبدأ في الصّراخ والتّخبّط دون أن يهتمّ به أحد، ونبيل يكاد يموتُ ضحكاً.

هاتفتُ سيد علي مساء، أخيراً وجدتُ هاتفَه مفتوحاً.

- لاباس سيد علي.

- الحمد لله وشراكم؟

- بخير، إذا تقدر ابعثلنا تلفوناتنا مع القشّ شوف عبد النّور ولا حميمد.

- علاش وش كاين؟

- بلاك يحوّلونا.

- حليم قالولي طلقوه راه في أثينا كان تما فالحبس قبل ما يحكموكم.

- أوووو.

- هكا سمعت، إن شاء الله يطلقوكم.

- آمين، اتهلا سيدعلي كما وصيتك، سلّم على الجماعة.

- إن شاء الله خويا يبلغ.

في صباح اليوم السابع، وكان يوم أحد، لم نعثُر على الرّومانيّ، وجاءت وُجُوهٌ جديدة، حتّى الهولندي لم نجده. أخذتُ حمّاماً، وتناولتُ الإفطار، شكير كان في المكتب يتحدّث مع محاميه بكلّ حُرّيّة، ودون أن تُوضَع له أصفاد، "إنّه المال، يا صاح".

صارت الزّنزانة أكثر ضِيقاً، وصخبها لا يهدأ، صرخ نبيل بعد أن أيقظَتْهُ فوضى المساجين.

- اسكتوا شوي ينعدين ،،،،،

لم يُكمِل نبيل نومه حتّى ثيابَه التي غسلها اللّيلة الماضية لم تكن قد جفَّتْ بعد.

كان مراد يلعبُ البوكر مع شكير، ويحتسي القهوة، شكير كان كريما

جدّاً معنا، يشتري لنا كلّ صباحٍ قهوةً وقارورات مياه باردة، كنّا نرفض، لأنّنا نملك المال، لكنّه كان لا يستجيب، ويُصرُّ على إكرامنا.

كنّا نُسلِّمُ السّجائر لفؤاد من النّافذة العلوية في الجدار الذي يفصلُنا عنه، كان دائمَ الشَّغَب مع المراهق الباكستاني، ويريد أن يعود بيننا. بعدها جاء شرطيٌّ، ليتأكّد من أن مكان الحقنة التي أخذناها لعيّنات الدم لم ينتفخ، لأنّه لو حدث العكس، فيعني أن هناك ميكروبات في جسدكَ.

في حدود الواحدة زوالاً، طلبَ منّا الشّرطيّ الاستعداد للخروج، أنا، مراد، نبيل وشكير. لم يستوعب فؤاد ذلك، وبدأ يصرخ من باب غرفته حتّى يغادر معنا، لكنْ لم يستجِب له أحد، تسلّمْنا أحزمة السّراويل مع أربطة الأحذية، لكن الأصفاد التي كانت قادمة مع الشّرطيّ لم تكن لتُبشِّر بالخير؛ صار لديّ فوبيا منها.

وقعتْ مناوشةٌ بين نبيل وشرطيٍّ اجتهد في توضيحِ فكرة أنّه سيُفرَج عنه غداً أو بعد غد؛

- ماذا عنّا نحن الاثنَيْن؟

- غداً سيُفرَج عنكما؟

لم أُصدِّق عينَيْه، هم بشرٌ مثلنا، وليسوا ملائكة، يمكن أن يكذبوا علينا، كما نكذب عليهم، الفرقُ أنّهم يستغربون أنّنا نفعل.

بقي شكير في المكتب يتحدّثُ مع الشّرطيّ الأكثر ثرثرةً وضجيجاً من زملائه جميعهم الذين عرفناهم بالسّجن.

غادرْنا نحن الثّلاثة إلى وجهةٍ مجهولة، كان نبيل مغتاظاً جدّاً، ولم يثِقْ

في وعود الشّرطة، مراد أيضاً كان مُتوجِّساً. توقّفت بنا السّيّارة عند مدخلِ مركزِ شرطةٍ صغير. صعدنا عبرَ درجٍ معدنيٍّ متهالك، يؤدّي إلى مكتبٍ، به رجلُ أمنٍ بزيٍّ الشّرطة، طلب منّا أن نضع الكيس الذي به أربطة الأحذية وأحزمة السّراويل داخل غرفةٍ يمين مكتبِ الاستقبال، نزعوا الأصفاد من أيدينا، ورافقَنا الشّرطيّ إلى غرفةٍ، بابها حديديٌّ أصفر، وتنبعثُ منها رائحةٌ كريهة. الزّنزانة الجديدة بها نافذةٌ تطلّ على ساحةِ مقرّ الشّرطة وحمّامٍ صغير جدّاً وأربع أَسِرَّةٍ فوق بعض.

بأنفاسِ الخيبة التي كان ينفثُها، قال نبيل:

- من حبْس لْحبس، يا دين الرّبّ.

- مشكّيتش يطلْقونا.

- أنا تاني رني شاك فيهم تبانلي رايحين يوزّعونا على سجون أخرى.

- بزاف يا خويا أنا فوت ستّة أشهر في حبس كورينتس، ومحال نزيد نفوت ستّة أشهر أخرى.

- بزاف صح، بصح كنت تخرج نبيل مكلاه تبقى هنا.

- عندك الحقّ هذي بلاد لحباس شوف في العلام نتاعهم مرسومة الغرية (قضبان حديدية) نتع الحبس.

ضحكَ مراد، وتمدّد على السّرير الذي بدا له مريحاً مقارنةً بأسِرَّة الزّنزانة الأولى سيّئة السّمعة.

- نبيل دخلت برّاً لليونان؟

- وي كانت ليلة كحلة.

- كيفاه؟

- كي وصلنا كومنتيني لقينا سيّارة بيجو 205 حابسة عند دار، كانت الشّتاء قوية بزاف والبرد وما قدرناش نكملو المشي.

- ومنبعد؟

- قطعنا خيوط تحت الفولون (المِقود) وقلّعنا بيها.

- شحال كنتو؟

- أربعة، بعد اللي مشيْنا قريب نصّ ساعة سمعْنا البوليس ورانا، زدت فالسرعة والمطر يطيح بزاف، لقيْنا سيّارة بوليس في الطّريق، تجاوزْناها وبقاو ورانا حتّى حاصرونا لمّا خرجْنا من الطّريق السريع حتّى حبست السّيّارة.

- ومنبعد وش صرا؟

- كسرونا بالهراوات والكوتبيات على الوجه والصدر، يرفدو ويخّبطو فينا عالسّيّارة حتّى تكسّرت لي ضلعة في كتفي، مزالها عوجة لدرك، ركّزو عليا أنا بزاف، لأني كنت السّائق كي جريتهم، لمُهم بقاو مدّة وهم يضربو فينا، ويعفسو على رؤوسنا ووجوهنا حتّى خلاص مقدرناش نقاومو.

- عرفوكم بلّي دزيريين؟

- لا لا، لو عرفوا كارثة، راحو بنا من مدينة حتّى أخرى، ووصلنا سالونيك، طُحنا فلسطينيّيْن، ومنبعد دخلونا حبس كورينتس.

- راك مجاهد، يا نبيل، هههههه.

بينما كان نبيل يواصل سردَ مغامراته، سمعْنا صوتَ شكير، قام مُسرِعاً، وأطلّ من نافذة الباب:

- شكير، شكير، نحن هنا.

عادَ شكير بعد لحظاتٍ مع الشّرطيّ، وفتح له الباب، ليبقى معنا، لم أعرف إن كان قد دفَع لهُ رشوةً أم أنّه تعاطف معه. ثمّ نادى عليه، ليجلب له ساندويشاً وقهوةً وقارورة مياه.

الهدوء في الزّنزانة كان مُحفِّزاً قويّاً على النّوم، باستثناء شكير، لكنّنا نمْنا جميعاً بلا تردّد بعد أن دخّنّا آخر سيجارةٍ تقاسمناها نحن الثلاثة.

السّجن به غرفٌ عديدة، ولم يكن ممكناً التواصل مع البقية أو معرفة هويّاتهم.

لم تهزمْني السّجون أو تُؤثّر على رغبتي في مواصلة الحُلم. السّجونُ مفيدةٌ لمراجعة الذات، وسَبرِ أغوار الرّوح، والقيامِ بعمليّةِ جردٍ لما مضى.

كان الشّرطيّ المناوب لطيفاً، جلَب لنا كلّ ما طلبناه منه، وقبل المغيبِ سلّمَنا العشاء من النّافذة الصّغيرة للباب، رميناه مباشرةً في دلو النّفايات لردائته. لعبَ شكير ونبيل ومراد البوكر حتّى منتصف الليل، وأنا بقيتُ لساعاتٍ قرب النّافذة، أتأمّلُ ما يجري في الخارج، حركةٌ متواضعة، والهدوءُ يغلبُ على تلك النّاحية من باتراس. شعرتُ برغبةٍ شديدة في تهشيم النّافذة والقفزِ مهما كانت النتائج، السّجن يخنقُ الروح، يحاصر الجسد، ودَدتُ لو أطير إلى ساموس، لأُخبرها بما فعلتْ بي باتراس.

تصبحُ الحياةُ جميلةً عندما نكون في السّجن، نشتاقُ لأبسط التفاصيل: أبواق القطارات، هدير البواخر، عزف الموج، أضواء الملاهي الزاهية ... لا يدخلُ أحدٌ إليه إلّا ويترُك اسمه واسم دولتِه ومدينتِه والتّاريخ الذي زار فيه الزّنزانة، كتاباتٌ عديدةٌ على الجدران والسّقف. مراد سار على دربِ مَنْ مرّوا، وبدأ بنَقْشِ اسمه على الجدار.

الثّانية صباحاً، كانت السّجائر توشك على النفاد، شكير نام بعد أن هزمه مراد في لعبة البوكر، أمّا نبيل، فكان في جعبتِه الكثير من الحكايات؛

- غدوة نخرجوا مزال الحال نزيدو نحكيو شوي.

- تعبت، يا نبيل، لو صح يطلقونا السكرة عليا.

اكتفى بالضّحك.

كنتُ أتخيّلُ مشهَد الإفراج عنّا وأنا سعيد، وأسحبُ نَفَساً عميقاً من سيجارتي، وأبحثُ عن أقربِ ملهى، لأُخبر الكأس عن ظلمة السّجون وقبحها.

نمتُ في الرّابعة صباحاً، وتركتُ نبيل ومراد يتبادلان الحديث عن أوضاعهم في الجزائر قبل مغادرتهم لها. استيقظَ شكير في السّادسة صباحاً، وظلّ يصعد إلى السّرير، ثمّ ينزل، ولا يكفّ عن غسلِ وجهه.

شعرتُ بالبرد، وغادرني النّوم، صوتُ محرّكِ شاحنةٍ أو حافلةٍ في الخارج، الدّخان يصلُ حتّى الغرفة، استيقظ مراد، وبعد أن خرج من الحمّام، أطلّ من النّافذة، وقال مرتبكاً:

- لحالة رهي تخوف، يا جماعة!

- علاه غير الخير؟

- كار زرقاء رهي بارا.

- وش قصدك؟

- وقيل يدونا فيها.

- وين؟

تشفى نهار الأوّل كيما حكمونا؟

- ايه.

- قالنا البوليسي يدّوكم أثينا ويطلقوكم.

- رني شافي، يسما عندو الحقّ.

- رايحين ألادبون في أثينا.

- باينة زهر داير كي ،،،!

شرحتُ لشكير الحديثَ الذي دار بيني وبين مراد وهو الآخر ذُهل. نبيل كان لا يزال نائماً.

نبّهَنا الشّرطيّ بطُرُقٍ على الباب طالباً منّا الاستعداد للخروج، باستثناء نبيل الذي أيقظَه مراد من أجل أن نُودِّعه؛

- اتهلا في روحك خويا نبيل.

-اتهلاو في ارواحكم بزاف.

- نتلاقاو إن شاء الله.

شكير هو الآخر ودَّع نبيلاً، وتمنّى له إفراجاً قريباً.

رافقَنا الشّرطيّ إلى غرفةِ أغراض المساجين، سحبْنا الكيسَ الذي توجد به أربطة الأحذية وأحزمةِ السّراويل، ثمّ دخَلْنا معه إلى المكتب، حيث وُضِعَت الأصفاد في أيدينا بشكل سريع، تحطّمت معها كلّ إمكانيّة الإفراج عنّا.

سجنُ ألادابون

ركِبْنا في الحافلة أو "الغالوفة" كما يُسمِّيها الجزائريون والمُخصَّصة لنقلِ المساجين، لونها أزرقُ داكنٌ، مقسَّمةٌ إلى غرف صغيرة، بها أربع كراسٍ متقابلة. بعد صعودِنا، نُزعت منّا الأصفاد، وبقيْنا داخل تلك الأقفاص المخيفة، حيث النوافذُ صغيرةٌ جدّاً.

كان شكير أمامنا، وعلى يمينه شابٌّ أفغانيٌّ، يلفّ السّجائر، ويُدخِّن، طلبتُ منه سيجارةً، ولفّ لي سيجارَتَيْن دون تردّد.

لم نتمكّن من معرفةِ مسار "الغالوفة"، ولم يكن يظهرُ من النّافذة سوى البحر. تذكّرتُ زجاجةَ الويسكي التي حدّثَنا عنها محمّد أمين في سجن باتراس. مرّ عليّ طيف فؤاد، لم أعرف ما الذي حلّ معه. ثمّ استسلَمنا جميعاً للنّوم الذي لم يكُن لنا منه نصيبٌ الليلة الماضية.

أفقتُ بعد ساعة، كانت الحافلة لا تزال تسير، شكلها المخيفُ من الدّاخل جعلني أتخيّل إمكانية انقلابها وتعرُّضِنا لحادثِ سَيْرٍ.

نادى عليّ شكير من شبّاك قفصه، وسأل إن كنتُ أحتاجُ سيجارة.

قلتُ:

- أجل، وليعذرني الرّفيق الأفغاني، إن أمكن سيجارة أخرى.

- بكل سرور، صديقي.

- شكراً لكَ.

بعد أن لفَ سيجارَتَيْن، نادى على الشّرطيّ، من أجل أن يقدّمها لنا.

رائحة السّيجارة جعلت مراد يستفيق من نومه، سَحَبَ أنفاساً من سيجارته، ومسح عينَيْه، وأطلّ من النّافذة، ثمّ استدار إليّ، وقال:

- تقول مجرمين، يا دين الرّبّ.

- رنا رايحين محكمة لاهاي.

- لا لا، غوانتانامو.

كان شكير منشغلاً بالحديثِ مع الأفغاني، وبعد أن سمعَنا نضحك، حاول أن يعرف السّبب.

- ماذا هناك، يا شباب؟

- مراد تذكّر حبيبتَه وهو في طريقه لحبلِ المشنقة.

- يا له من عاشق! لقد تأثّرتُ لأجله.

- مراد، اكتب وصيّتك لحبيبتِك حتّى أرسلها لها.

- لا تُصدِّقه، يا مراد، سيأخذُها منكَ بعد أن تُشنَق.

ضحك شكير بصوت مرتفع؛

- أنتَ شرّيرٌ، يا رفيق.

توقّفت الغالوفة المرعِبة، وكان شكير قد انشغل مجدّداً بالحديث مع الشّابّ الأفغاني، وكان معنا في الحافلة كهلٌ يتجاوز السّتّين، ثيابُه رثّةٌ

جدّاً، ووجههُ نحيل، وجسدُه مقوّس، لم أعرف سبب وجود هذا المسكين حيث كنّا.

بعد خروجنا من القفصِ المُوحِش المتنقّل، تحرّرت أيدينا من الأصفاد المزعِجة. تجاوزْنا نفقاً صغيراً، لنخرُج أمام قبوٍ قذرٍ جدّاً، تغطّي بِركٌ مائية أرضيّتَه، والنّفايات منتشرةٌ في كلّ ناحية، ثمّ دخلْنا قاعةً كبيرة، تكدّستْ بها حقائب عديدة، معظمها مَرميٌّ على الأرض.

غيّر الشّرطيّ رأيه، وطلب أن نصعد إلى الطّابق العلوي عبرَ درجٍ حديديٍّ، تجاوزْنا أكثرَ من طابق حتّى توقّفْنا خلف الشّرطيّ الذي فتح نافذةً صغيرة في الباب، وتكلّم مع زملائه الذين فتحوا لنا الباب، ودخلْنا إلى المكتب، ثمّ سلَّمَهم رزمةً من الأوراق، وغادر.

فتّشَنا شّرطيّ آخر، وبعد أن عثر لديّ على المال، سأل إن كنتُ أرغب أن أتركه معه أو أن يبقى لديّ؛

- أُفضّلُ أن يبقى معي.

- إن سُرق منكَ، لن نتحمّل المسؤولية.

- لن يجرؤ أحدٌ على ذلك.

- أنتَ أدرى.

وضعْنا الكيسَ البائس الذي يحوي الأحزمة وأربطة الأحذية في غرفةٍ مجاورة للمكتب، ثمّ مشيْنا خلفَ الشّرطيّ الذي كان يمشي وكأنّه ثمل، كان هناك عددٌ صغير من المساجين الذين يطلّون من الأبواب بصدورهم المكشوفة ووجوههم الصفراء التي تروي الكثير، بعدها دخلْنا رواقاً، يضمّ غرفاً عديدة، كلّ غرفة حائطها الأمامي مكشوف ومُسيّجٌ بقضبان حديدية.

أوّلُ ما قمتُ به هو البحثُ عن المرحاض لأتبوَّل، كان مُقرِفاً جدّاً، وبلا إنارة، ويشتركُ مع حمّام دافئ بباب واحد، بعدها أخذتُ حمّاماً سريعاً، وعُدتُ إلى مراد، وفضّل شكير الالتحاق بنا رفقة الأفغاني رغم أنّه وجد بعض المساجين الألبان.

الأفغانيُّ الشّابّ كان هادئاً، ويُدخِّنُ باستمرار، بادر إلى الحديث معنا يُدعى "رستم" كما عرّف نفسه، يقيم في اليونان منذ ثلاث سنوات، اعتُقل بتهمة التّهريب وتزوير جوازاتِ سفرٍ، وحُكِم عليه بخمس سنوات، كان سيقضي منها عاماً واحداً فقط، كما قال، لأنّ يوماً واحداً في سجونِ اليونان يُعدّ بمثابةِ يومَيْن، وسيكون في السّجن الفلاّحيّ في خانيا بجزيرة كريت، بالتالي سيشتغل في الحقول، وتُخفَّض له الأيّام بمقدار مردوديّتِه، كما يقول.

رستم فارسيٌّ من أقلّيّة الهزارَا، يتحدّثُ اليونانية والإنجليزية بطلاقة، حين سألتُهُ عن وضعِنا، أجاب بأنّنا سنقضي بذلك المكان ستّة أشهر. بعدها قدّم لي رَقْم مهرّبٍ جزائريٍّ، يقيمُ في أثينا قال إنّه بارعٌ في تزوير الهويّات.

كان لديّ بطاقةُ اتّصال، تبقّى فيها بعضُ الرّصيد، اتّصلتُ بسيد علي في باتراس، لكنّه لم يرُدّ إلّا في الاتّصال الثاني بعد أن أفاق من نومه؛

- لاباس، سيد علي.

- الحمد لله خويا، وينراكم تقلّقنا عليكم؟

- رنا في ألادبون.

- جاء لبارح عندكم حميمد وعبد النّور ومعاهم تلفوناتكم واللّبسة وما لقاوكمش.

- بدلونا الحبس والصّباح طلعونا أثينا.

- معليش خويا، كوراج برك بلاك يطّلقوكم إن شاء الله، رني حيكت مع خوك.

- مليح.

- قولو يعطيك رقمو.

- مع اللّيل نجيبولك.

- أيا اتهلا وسلّم عالجماعة.

- يبلغ خويا.

- سلّم على مراد.

- ربيّ معاكم.

- سلام.

تمدّد رستم ومراد أيضاً، شكير كان يتكلّم مع أبناء بلده، بينهم رجلٌ بقميصٍ داخلي وشَعْرٍ بُنِّيٍّ طويل متموّج، يغطّي أكتافه، ويضعُ قلادةً ضخمةً على صدره، بدا زعيم مافيا، وآخر كان يرتدي سروال جينزٍ أزرقَ، وسترةً صفراءَ، ولحيتُه كثيفة، زارنا في غرفتِنا، وعرف من شكير بأنّنا جزائريون، خاطبَني بالفرنسيّة التي يُتقنها، لأنّه عاش عشر سنوات في مرسيليا، خمسينيٌّ كريمٌ جدّاً وطيّب، جلب لنا طبقَ طعام من الأرز والدجاج، اعتُقل بسببِ مخالفةٍ ضريبيةٍ، ويقيمُ في اليونان منذ حوالي عشرين عاماً، كما قال.

تقاسمتُ الأكل الذي جلبه الألباني مع مراد، واحتجْنا إلى السّجائر، ناديتُ على شكير، وطلبتُ منه أن يسأل مواطنيه عن "الكافي نيو".

- تكلَّمْ مع الشّرطيّ، ليبيع لكَ ما تريد.

- شكراً لكَ.

"استونوميا"، أي شرطي باليونانية، ناديتُ هكذا، ليأتي الشّرطيّ الذي بدا جديداً في مهنته.

معظمُ أنواعِ السّجائر لديهم غالية جدّاً، أدناها بـ 2 أورو.

اشتريتُ علبةً على مَضَض. وبعد أن تمدّدتُ في مكاني، دخل شابٌّ أسمرُ، يرتدي شورتاً أسودَ قصيراً، تُزيِّنُ أوشامٌ كثيرةٌ صدرَهُ العاري، وكذلك كتفَيْه.

- وشراك البلاد ça va؟

- لاباس.

- اعطيني بريكي.

بعد أن أشعَل سيجارته، جلسَ قُرب رستم، ليتحدّث معه، حسِبتُهُ جزائرياً من غليزان أو وهران، خدعتْني لهجتُه الجزائرية التي يتحدّثها بطلاقة، كان بلغارياً كما أخبرني شكير، وأتقن اللّهجة، بسبب تعامله الطّويل مع الجزائريّيْن خاصّة في السّجون.

لم أقوَ على النّوم مقارنةً بمراد الذي بدأ يشخر، لمحتُ ضخماً بشورتٍ أزرق، وجثّةٍ بدينة، يمشي في الرّواق مُستعرِضاً عضلاته ومؤخّرته، قليل من الشَّعْر فوق رأسه، وشعيرات طويلة أسفلَ ذقنه، يضعُ قرطاً في أُذنه اليمنى، وأشكالٌ عجيبة من الوشم في صدره وظَهْره.

لم يتوقّف عن النّظر إليّ كلّما اقترَب من واجهةِ غرفتنا حتّى أثار

حفيظتي، بعدها توقّف وتحدّث باليونانية، فهمتُ أنّه يطلبُ سيجارة.

- "دينيخي" (لا يوجد باليونانية).

مع العلم أنّ علبةَ السّجائر كانت تظهرُ من أمام الوسادة، واستغرب من إجابتي، وبقي ينظر إليّ، ثمّ أكمَل مشيَهُ، لكنّه عاد مجدّداً؛

- من أين أنتَ؟ (أبوويسي).

- ألجيريانوس (جزائري).

غادر مباشرةً دون أن يلتفت، ربمّا لأنّه يعلم أن هذا القوم حين يتعاركون في السّجون يستعملون الحديد وشفرات الحلاقة، كما أخبرني نبيل ذات مرّة؛

- يخافو الدّزيريين بارسكو يضربو بالحديد ويخسرو الوجه بالموس.

لم أفكّر في استعمال هذه الأساليب البشعة، كلّ ما كنتُ أريده أن يبتعد عنّي، وأن لا يكون ثقيلاً أو يحاول أن يتسيّد عليّ في السّجن من أوّل يوم، كما هي عادةُ بعض المساجين المخضرمين في تعاملهم مع الوافدين الجُدُد.

كان الرجل الألباني الذي يتحدّث الفرنسية قد أخبرني عن جزائريٍّ يقيم معهم، حين وصلْنا كان نائماً، وفي السّادسة مساء، دخل غرفتَنا، وألقى السّلام علينا.

- وشراكم لخاوة؟

- لاباس، الحمد لله.

- وشراك أنت؟

- بخير منين جيتو؟

- باتراس.

- شابّة باتراس.

- حلوة.

- وش درتو، إن شاء الله؟

- ورق برك.

-ااه، مكان والو، كاش ما تحتاجو؟

- صحيت خويا.

- دوك نرجع، ندوش ونجي.

- بصحتك خويا.

يُدعى سمير، من مدينةِ زموري ببومرداس، يقيمُ في اليونان منذ تسع سنوات، ولا يملك أوراق إقامة، في الثلاثين من العمر، على كتفه الأيمن وشم، جسده رياضي، وشَعْره أسودُ خفيف، وعيناه حادَّتان، وصوته خافت.

بعد أن أخذ حمّاماً، عاد إلينا، منحتُهُ سيجارةً، وجلبَ معه قهوة، لم يكُن يَرى في قضيّتنا ما يستدعي الاهتمام.

- يطلڤوكم خو، هاد القوانين ظهرت فالسنوات الأخيرة برك مع كثرة المهاجرين، من قبل أدنى شيء كانوا يركّزوا عليه هو الأوراق، كيفاه راها البلاد؟

- مقودة.

- رني ملي كانت القهوة تسوى 10 دينار ما شفتش للبلاد (وهو يضحك).

- علاش ما رجعتش؟

- محال نرجع مزال شوي وزيد اللي يجي من هديك البلاد يقولك رهي غير تزيد تخسر وين ترجع خو؟

- والديك عايشين؟

- ايه.

- الحمد لله، ارجع شوفهم على الأقلّ؟

- كاين التلفون ديما نحكي معاهم.

- كاش ما تخدم هنا؟

- بريكول برك؟

- والورق؟

- أولاش.

- علاه؟

- في وقتنا مكاش اللي يخمم فالورق.

- ودوك؟

- دوك لازم نخدمهم.

- وش كنت تخدم فالبلاد؟

- كل مرة كيفاه؟

- قريت؟

- وي، جامعي.

- دين الرّبّ.

- جامعي، وما لقيت خدمة وتحوسني نرجع للبلاد؟ الجوع ولا الرجوع.

- عندك الحقّ.

- امالا كنتو في باتراس؟

- وي.

- مع اللّيل يتبدّل هاد القروب (الفريق) نتع البوليس ونسقسي اللي يجو بعدهم على وضعيتكم.

- صحيت.

سمير مهاجرٌ مخضرم، لا يرغبُ في العودة إلى الجزائر أو المغادرة إلى دولٍ أوروبيةٍ أخرى، يرى أن اليونان التي قال عنها "وهران وفيها الأورو" رغم أزمتها المالية، أفضلُ بكثيرٍ من باقي الدول الأوروبية سواء من ناحية المستوى المعيشي أو "النافيغاج" كما يُسمّيه المزدهر بكثرة؛

- لقدام مكان والو خو اللي كانوا معايا وراهم في فرنسا وإيطاليا وألمانيا قالك اليونان خير في كل شيء.

لم أستوعبْ كلامه، ربّما خِبرته الطّويلة مقارنة بنا جعلَتْهُ يصل إلى هذا الاستنتاج.

تقلّبتُ كثيراً في السّرير الإسمنتي المغطّى ببطّانيّةٍ سميكةٍ جدّاً، تنبعثُ منها الحرارة.

السّجون اليونانية - كما لاحظتُ إلى الآن - غير إنسانية تماماً، وتتنافى مع معايير حقوق الإنسان التي يتشدّق بها الاتّحاد الأوروبي، التواجد في هذه الأمكنة البائسة يُعزِّز شعور التواجد في العالم الثالث، ربّما اليونان كذلك حكومتها نسخةٌ عن الحكومات العربيّة سيِّئةِ السّمعة.

طلبتُ من سمير أن يرافقَني إلى الباب الخارجي، لنرى إن جاءت فرقة الشّرطة لمناوبة اللّيل، قدّم للشّرطيّ أسماءَنا، ليبحث عن ما يخُصُّنا في الحاسوب.

بعد دقائق، عاد الشّرطيّ، وأخبر سمير بأنّه سيُفرَجُ عنّا بعد شهرَيْن أو ثلاثة، شعرتُ بسعادة غامرة، مدّة ستمرّ حتماً، ولتكن ستّة أشهر. المهمّ أنّها ستمضي بالنّهاية، وأحصل على خرطية أو طرد يتيحُ لي التّحرّك بحُرّيّة حتّى أغادر اليونان بلا إزعاج. مراد لم يثقْ في كلام الشّرطيّ، كان واقفاً عند نافذةِ الرّواق، ويطلّ منها على الزّنزانات المقابلة.

لا ماءَ صالحٌ للشّرب في ذلك القبو الحقير المسمّى سجناً، ومعظم المساجين يشترون قارورات مياه من "كانتينا" الشّرطة، كنتُ مع سمير عند الباب ننتظرُ الشّرطيّ حتّى يجلبَ لنا المياه والسّجائر، ليتقدّم من البابِ ذلك الضّخم صاحب كرة الشَّعْر الصّغيرة المتّجهة إلى الأعلى، أخبرني سمير أنّه غجريٌّ يونانيّ "بهلول"، وضحك كثيراً حين أخبرتُهُ بأنّه غادر بمجرّد أن قلتُ له بأنّني جزائري، كان يحتاج 50 سنتاً على ثمنِ قارورة ماء، ولم يجدها عند سمير، وقدّمتُها له عن طِيْب خاطر.

الجناحُ الذي كنّا فيه يُدعى "ميتاغوغو"، وهو عبارة عن مركزِ تحويل

المساجين إلى سجونٍ أخرى، حدّثني عنه فؤاد الذي قضى فيه حوالي شهر.

كان سمير سيغادر في يوم الغد إلى سجن "كوردلو" بعد أن جاء من الحبس الفلاّحي في جزيرة "كريت"، ليمضي ما تبقّى له من محكومية.

وزّع علينا الأخ الألباني صاحب اللّحية العشاءَ، عبارة عن حبّاتِ طماطم وبيض مسلوق وبرتقال وقطعة خبز وشوكولاطة.

احتجتُ أن أهاتفَ سيد علي، لكي يمنحني رَقْم هاتف شقيقي في الجزائر، لكن الشّرطة لم تكن تملكُ بطاقات اتّصال، وشكير هو الآخر لم يكن يملكها، سأل صاحب الشَّعْر الطّويل والقلادة الضّخمة إن كان يملكُ واحدة، هذا الأخير لم يتردّد في مَنْحها لي، حصلتُ من سيد علي على رَقْمِ هاتف شقيقي، وشكرتُ صاحب الشَّعْر الطّويل على كرمه. ثمّ سألني شكير إن كنتُ أحتاجُ سجائر أو قهوة أو شيئاً آخر، وكنتُ بحاجة لولّاعة فقط، ومنحني واحدة.

علمتُ من سمير أن صاحب القلادة الضّخمة محكومٌ بالمؤبّد "صوفيا باليونانية".

- "اللبانة" (كما يسمِّيهم سمير) يديروها للرود وكي ينحكمو يخلصوها.

كان صاحبُ المؤبّد يبدو هادئاً واثقاً من نفسِه، وبغاية الرّقّة، تغيَّرتْ نظرتي للمساجين من خلاله، كنتُ أعتقدُ أنّهم أشرارٌ مُتوحِّشون.

الألبان يُشكِّلون أكبرَ جاليةٍ في اليونان التي تُعدّ وجهتهم المفضّلة نظراً للقُربِ الجغرافي وسهولة الدّخول إليها.

اللّيل في السّجن معزوفةٌ ثقيلةٌ ومُملّة، كنتُ أشعرُ بالثّواني تمرُّ كالأعوام، جحافل البقِّ تستيقظُ، وغيابٌ للإنارة، الألباني صاحب اللّحية كان قد مرّ على أَسِرَّتِنا، وأشعلَ النّار في جوانبها حتّى لا يتسلّل إلينا البقّ.

دخّنتُ كثيراً، ووجدتُ صعوبةً في النّوم، كانت مشاعري مُختلطة، وحاصرت الخيبةُ والنّدم واليأس ليليَ الكئيب. العزاءُ الوحيد في ذلك أن الوضع لم يكن سيدوم، ولم نكن متّهَمين بتُهمٍ ثقيلة غير عدم حيازة الوثائق.

كانت ساموس تُطلّ من النّافذة، تستعرضُ مفاتنها، وتغازل قلبي.

زارني غيفارا في السّجن، وقبل أن يغادر تركَ لي سيجاراً كوبياً فاخراً،

ربّتَ على كتفي، وابتسم.

حدّثَني عن السيرا مايسترا والمونكادا،

ناظم حكمت مرّ من هنا، وأخبرني عن العداوات التّاريخيّة بين الأتراك واليونانيّيْن، ونصحني بالبقاءِ شامخاً رغم أنفِ السّجن والسّجّان.

اسيقظَ مراد باكراً على غيرِ عادته، وأيقظني معه لرؤية الرّفاق الجُدد الذين كانوا معنا في ساموس. غسلتُ وجهي، وتقاسمتُ معه حبّةَ برتقالٍ، ثمّ رافقتُهُ إلى غرفة رفاقِ ساموس.

كانوا أربعةً، معظمهم دخل ساموس بعد مغادرتي لها، عرفتُ واحداً منهم فقط من نواحي بوفاريك يُدعى "بدرو "، كانت ملامحُهم مُتعَبة، وأحدهم مصاب في رِجْله، ويدُهُ بها حروق.

- بدرو وشراك؟

- بخير خويا.

- غير الخير؟

- جماعة حرقو "التميمة" نتع ساموس.

- علاه؟

- باه يطّلقونا.

- ومنبعد؟

- جابونا هنا باه يروحو بينا لحبس "كوردلو" ثلاثة أشهر ومنبعد يحاكمونا.

- بصح كيفاه حرقوها؟

- شعلو النار فالزاورات حتّى جات الحماية باه طفاوها.

- كارثة.

- قريب متنا.

- ربيّ ستركم.

كان بدرو غيرَ مبالٍ بما ينتظره، يُدخِّنُ ويسأل عن بقية الرّفاق الذين خرجوا من الجزيرة، وقبل أن نُنهي حديثنا، نادى عليهم الشّرطيّ، قمتُ وسلّمتُ عليهم جميعاً، وقلبي يعتصرُ ألماً على حالهم، خشيتُ أن تُوجَّه لهم تهمة تخريبِ أملاك الدولة، وقد يُحكَم عليهم بسنوات في سجونِ اليونان القذرة.

أخذوا سمير باكراً مع معظمِ المساجين، بقي فقط شكير الذي كان قد تحدّث إلى محاميته.

- سأغادر إلى سجن كوردلو أيضاً.

- وبعدها؟

- سيُفرَج عنّي.

- أتمنّى ذلك.

- المهمّ نبقى على تواصل.

- كنْ بخير، شكير الطَّيِّب.

- سلام.

لم يمضِ على مغادرةِ شكير إلّا ربع ساعة حتّى سمعْنا الشّرطيّ ينادي علينا، كانت العاشرة صباحاً، سحَبْنا كيس كوابيسنا، ووُضعَت لنا الأصفاد، ثمّ رافقْنا شرطيّاً بزيٍّ مَدَنيٍّ إلى طريقٍ آخر غير الذي دخلْنا منه أوّل يوم إلى "ميتاغوغو".

مرَرْنا على قاعة انتظار، بها زوّارٌ كُثُرٌ، بعدها تجَاوزْنا ساحة واسعة حتّى دخلْنا بنايةً أخرى، ولم يشتغل المصعد الكهربائي الذي يؤدّي إلى الطّابق الأخير إلّا بعدَ محاولاتِ عديدةٍ من الشّرطيّ.

خرجْنا من المصعد إلى رواقٍ صغير، طَرَقَ الشّرطيّ المهذّب بزيّه المَدَنيّ على الباب، وبعد ثوانٍ، كنّا في رواقٍ آخر طويل، يتوسّطه مكتبٌ، وبه ثلاثُ مهاجع، يطلّ من أبوابها مساجين؛ سألتُ الشّرطيّ "كم سنبقى هنا؟"، ليردّ "ترحيلٌ إلى ساموس". تفاجأتُ بالقدر الذي فرحتُ.

على جدارِ مكتبِ الشّرطة لوائحُ عديدة لوزارة الدّاخليّة ومكافحة الهجرة غير الشّرعيّة باليونانية والإنجليزية والفرنسية والعربية والفارسية، تتضمّن حقوق وواجبات المساجين مع لافتة ضخمة لمنظّمة الهجرة الدّوليّة. نُزعَتْ منّا الأصفاد، وسلّم الشّرطي مجموعةَ أوراقٍ إلى زملائه في المكتب.

أخذَنا شرطيٌّ آخر إلى غرفةٍ مجاورة لأحد المهاجع، وفتَّشَنا، أخذ منّي المال، ليتركه داخل المكتب مع تدوين اسمي وكمّيّة المبلغ المسلَّم.

دخلتُ مع مراد المهجعَ الثالثَ "دلتا تريا"، استقبلَنا شابٌّ مغربيٌّ مهذّبٌ جدّاً "موح صحراوي"، رافقَنا إلى غرفةٍ مجاورة للحمّام، لنرتاح، استقبلْنا أيضاً "زينو" شابٌّ عاصميٌّ. أخذنا حمّاماً دافئاً، وحصَلْنا من الرّفاق على ثيابٍ ومناشف وغسولِ شَعْر.

لمحتُ حليم الميلي نائماً. كان هناك. وليس في أثينا كما اعتقَدَ سيد علي.

كان مهجعاً من سبعةِ غرف، خمسةٌ في الرّواق الأوّل، والبقيّة في الرّواق الثاني، الأفغانيون والهنود والباكستانيون والبنغاليون وبقيةُ شعوبِ شرقِ آسيا كانوا يقيمون في ثلاث غرف، أمّا الجزائريون والمَغَارِبة وبقيةُ العرب، كان لديهم ثلاث غرف، والغرفةُ المتبقّيةُ كان يقيم فيها ثلاثة شباب من جورجيا، وآخر من بولونيا.

النّوافذ كثيرةٌ، وتطلّ على المهجع الخامس، ويقابلُنا من فوق مهجعُ النّساء. أقَمْنا في غرفةٍ، هي مُصلّى في الوقت نفسه، ينامُ فيها مصريٌّ وسوريٌّ وعراقيٌّ.

يقعُ "ألادابون" وسط أثينا، وهو أكبرُ سجنٍ للأجانب في اليونان، ومقارنةً بالسّجون التي مررْنا بها، كان نظيفاً ومريحاً، وبالإمكان رؤية الشّمس، بالإضافة إلى التهوية التي لم تكن تتوقّف؛ لكنْ، يبقى سجناً في النّهاية، هو يُكبّلُ الإنسان حتّى ولو كان قصراً.

نمتُ في سريرِ العراقي "أثير" الذي غيَّر مكانه إلى غرفة أخرى، يناديه الجميع "صدّام"، شابٌّ من بغداد، أمسك به أمنُ المطار بعد أن حاول

السّفر إلى بلجيكا بجواز سفرٍ بلغاريّ مزوّر، قال إنّه خسِر أكثر من 11 ألف أورو منذ دخوله اليونان قبل سنة، وكان يريدُ العودةَ إلى جزيرةِ ساموس التي يقول إنّه خرجَ منها داخل حقيبة سفرٍ. فلسطينيّ دفع له 200 أورو. أثير حلاّقٌ ماهر يحلمُ بالوصول إلى بلجيكا رغمَ الخسائر كلّها، كان قد مرّ على تواجده بالمكان ثلاثة أسابيع.

وزّع "موح صحراوي" وجبةَ الإفطار علينا، عجائنَ وبيضاً مسلوقاً وبرتقالاً.

يقيمُ موح صحراوي في اليونان منذ عشر سنوات، لديه مطعمٌ في أثينا، قضى شهرَيْن في سجنِ "كوردلو"، بسببِ مخالفةٍ ضريبيةٍ، ونُقِل إلى حيث كنّا، لأنّه بلا وثائق، أربعينيٌّ أسمرُ بدينٌ قليلاً، وطيّبٌ بحجم الصحراء.

أفاقَ بقيةُ المساجين الجزائريّيْن. رشيد من بوفاريك لديه أقدمية بالسّجن مقارنةً بالبقيّة، رحّبَ بنا، وجلبَ لنا أغطيةً وبطّانيّاتٍ، وليد من الرغاية، شابٌّ حيويٌّ بجسدٍ ممتلئ، صاحبُ دعابةٍ وطُفُولةٍ، تصرخ من عينَيْه، خرجَ من جزيرةِ خيوس، وألقيَ عليه القبض في الحدود البلغارية اليونانية، وجِيءَ به إلى "ألادابون" منذ أسبوع رفقَة غلام التيارتي القادم من ساموس، ويقيمُ في المهجع الخامس.

زين العابدين هو الآخر من بومرداس، أُلقي عليه القبض في سالونيك بعد أن عاد من صربيا، وكان قد مضى على وجوده شهران.

زينو العاصميّ ابن بوزريعة 35 سنة، عاش خمس سنواتٍ في تركيا، وتسع سنواتٍ في اليونان، صاحبُ نكتةٍ ومهاجرٌ مخضرم، مثقّفٌ يُتقنُ خمس لغاتٍ، ولديه نزعاتٌ علمانية، شَعْره أسود خفيف، وعيناه زرقاوان، قامتُهُ معتدلة، وصدره بارز، قال إن أصوله تركية.

زارَنا حليم الميلي بعد أن استيقظ من نومه، وأخذ حمّاماً؛

- وشراكم لخاوة؟

- بخير.

- قالونا راك في أثينا؟

- رني هنا معاكم.

- كنت في باتراس؟

- إيه.

- كان معاك نبيل الشلفي؟

- إيه.

- وينراه نبيل؟

- خليناه في باتراس.

- مسكين.

حكموني مع عبد النّور البومرداسي، هو طلقوه وأنا شدّوني، لقاو معايا نسخة من الخرطية نتاعو، رحت للمحكمة حكمولي عام غير نافذ ومنبعد جابوني هنا.

- ولاد الحرام.

- وش راك ناوي تدير؟

- ما فهمتش.

- والحلّ؟

- ما بان والو، قالك راهم يرجعو للجزر ومنبعد للترك.

- مشكلة.

- هداك رشيد انتع بوفاريك عندو هنا أربع أشهر ورايحين يرجعوه لجزيرة ميتيلني كاين اللي فوتو عام هنا ومنبعد رجعوهم للجزر ، ولّا تدير لجوء تستنى هنا ثلاث أشهر باه يعطوك الرد وإذا رفضوك الجزيرة ومنها للترك.

- يسمى حصلة.

- راك تشوف يا خويا.

رشيد يبيعُ السّجائر والبسكويت وبطاقات الاتّصال، غرفتُهُ جميلةٌ ومُرتّبةٌ، وجُدرانها مُزيَّنةٌ بأعلامِ بريطانيا وكندا، وزخارفُ عديدةٌ من الورق ومعجون الأسنان على السّطح. ينامُ معه زينو العاصميّ، وشابٌّ آخر من تبسة، أُلقي عليه القبض في سالونيك، وكان يريدُ العودة إلى جزيرة خيوس، يُدعى سليمان، شابٌّ عشرينيٌّ أنيقٌ جميلُ الطّلّة، طَموحٌ جدّاً، لهجتُهُ التّبسيّة المميّزة تجعلُهُ مألوفاً بسرعة.

يتردّد الرّفاق من جورجيا على غرفة رشيد؛ إيريك الجورجي يضعُ نظّارة طبّيّة، ويتكلّم بعض المفردات الجزائرية، علاقتُهُ وطيدة جدّاً بالجزائريّيْن، على غرار رفيقه الآخر "تيموكا".

اللّيلة الأولى في "ألادابون"، الحرارة مُنخفضة، وانعدامٌ لروائح الأقدام والعَرَق والرّطوبة وغياب البقّ.

استيقَظْنا على خبرِ ترحيلِ رشيد في الصّباح الباكر إلى جزيرة ميتيلني، قضى حوالي عام في السّجون، منها سبعةُ أشهر في سجنِ كورينتس قادماً إليه من ميتيلني، بتُهمةِ التّخريب والشّغَب رفقةَ مجموعةِ من الجزائريّيْن والتّونسيّيْن، والأربعة أشهر الأخيرة في "ألادابون".

في الحالات كلّها، كنّا سنعود إلى ساموس، الأمر لم يكن ليتوقّف حيث كنّا، وكان وقتها احتمالٌ كبيرٌ أن نُرحَّل إلى تركيا وفقاً لاتّفاقية مارس المشؤومة في 2016 بين تركيا والاتّحاد الأوروبي التي تنصّ على ترحيلِ المهاجرين الذين لم يحصلوا على لجوءٍ إلى بلدِ الانطلاق "تركيا".

الوضعُ كان حرِجاً، وخياراتُنا محدودة جدّاً، إمّا العودة الطّوعيّة إلى الجزائر أو العودة إلى الجزر، ثمّ تركيا، وبين الخيارَيْن، كان للرّفاق حلّ وسط لتبديد بعضٍ من توتّرنا؛

الحلّ الوسط؛ أن كلُ مَنْ يتقدّم بطلبِ العودة إلى الجزائر بعد أن يمرّ على القنصل الجزائري في أثينا، يُنقَل إلى مخيّم "موندليزا" خارج أثينا، وهو مخيّم مُغلَقٌ، فيه إمكانية الهرب، وفي حالة الإخفاق في الهروب منه، هناك فرصةٌ أخرى في مطار تركيا قبل إقلاع الطّائرة إلى الجزائر.

كانت لـ موح صحراوي ابن مدينة غولمن "كلميم" جنوب أغادير علاقة جيّدة مع الشّرطة، تميّزت بالاحترام المتبادَل خاصّة مع كلٍّ من لافرو وماريو، يورغو وديميتري. البقية عنصريون جدّاً، وعدوانيون.

يدخلُ رجالُ الشّرطة ثلاثَ مرّاتٍ في اليوم لِعَدِّ المساجين، وليد أصرّ على العودة إلى جزيرة خيوس مهما كانت النّتائج، ولم يكن متحمِّساً لفكرة الهرب من مخيّم موندليزا، حليم متردّد، ومراد كذلك، أنا لم أستقرّ على قرار .. إلّا العودة إلى الجحيم الذي هربتُ منه.

كنوعٍ من التّحايل على مَلَلِ السّجن، كان المساجين يقفون عند النّوافذ المُطلَّة على مهجعِ النّساء، سجيناتٌ من جنسياتٍ عديدة؛ روسيات، ألبانيات، جورجيات، بلغاريات، أوكرانيات، رومانيات، عربيات، وإفريقيات. يظهرنَ من النّوافذ، ويخاطبنَ المساجين، وبدورهم يبادلون رفيقاتِ السّجن عباراتٍ غزلية، أحياناً تكونُ بذيئة، ومرّات تتحوّل إلى

صداقات وتبادُل القهوة والسّجائر وعقاقير النّوم بالفواكه والأطعمة عبر كيسٍ يُرفَع إليهنّ بحَبْلٍ من قماش.

جمال المغربي قضى شهرَيْن بالسّجن، يقيمُ في اليونان منذ تسع سنوات، معظمها كان في باتراس، وكان هناك مغربيٌّ آخر يُدعى عدلان الوجدي (من وجدة المغربية)، شابٌّ هادئٌ وخجولٌ يقتربُ من عقده الرابع.

السّجيناتُ جميلاتٌ، يظهرنَ مع المساء، يخنقُهنّ السجن، وتُزعِجهنّ الحارسات، يرغَبنَ في البوح، يضحَكنَ علينا، يتدلَّلنَ، ويستعرِضنَ أُنوثتهنّ. جميلاتٌ ناعماتٌ، لكنّهن حزيناتٌ، يا إلهي! كأن أحزانَ العالم كلّه اجتمعت في عيونهنّ البريئة، يُدَخِّنَّ حشيشاً، يصلهُنّ من جورجيا، ويطلبنَ عقاقيرَ النّوم هرباً من قضبانِ السّجن؛

ماريا من الغرب الرّوسيّ، صوتها يُنصتُ له الحمام، تبكي حين تتذكّرُ والدتها المريضة، تمسحُ بيدها البيضاء الطّويلة خدَّها الأبيض، عيناها الخضراوان تصبحان جمراً حين تبكي، شَعْرها لا يكفّ عن مغازلةِ السّماء، وهي تشكو جحيم أثينا.

الاتّصال مع الرّفاق كان مشكلة، زينو وسليمان يملكان هاتفَيْن، وجمال له هاتف أيضاً، والجورجيون كان لديهم هاتفٌ أيضاً مُزوّد بشرائح، بها أنترنت، كانوا يُخبّؤونها في السّقف بالقُربِ من الحمّام، وتُشحَنُ هناك، ولا تُسحَب إلّا في مناوبةِ مجموعةٍ معيّنةٍ من الشّرطة التي لا تقومُ بحملاتِ تفتيشٍ فجائية، كما تفعل مجموعات أخرى. وغالباً ما تُستعمَل ليلاً. تُسرَّبُ الهواتف إلى الدّاخل خلال الزيارات، حيث تتمُ تخبئتها بين الأطعمة.

عندما يدخل شرطيٌّ من المجموعات التي تقوم بالتّفتيش والمراقبة وعَدِّ المساجين، يردّد سجين ما كلمةً متّفقاً عليها، وهي "باباك"، وبعد

أن يسمعه مَنْ يكون في حالة اتّصال يتوقّف بسرعة، ويُخفي الهاتف داخل ثيابه الدّاخليّة أو تحت الفراش.

طلب منّي زكي المصري الذي ينامُ على يميني سيجارة بعد أن سرَّحَ شَعْره، يناوشُ كثيراً الباكستانيّيْن، لهجتُهُ المصرية عذبةٌ، صوتُهُ خشنٌ، لكنّه ودودٌ يقيمُ في اليونان منذ أربع سنوات، اعتُقل في مدينةِ كافالا شمالَ اليونان، بسببِ عدمِ حيازته على وثائق، انتقل بين عدّة مخيّماتٍ وسجون، في فترة تقتربُ من السّنة. زكي الصّيّاد ابن طنطنا لم يرغب في العودة إلى محروسة المشرق، يُحبّ الجزائريّيْن، ويبادلونه الحُبّ، ويتكلّم مفرداتٍ جزائريةً، جسده الممتلئ جعله يتحرّشُ بالباكستانيّيْن والشّرطة، يستحمّ كثيراً، ويغضبُ عندما يقتربُ أحدٌ ما من مكانه أو يعبثُ بأغراضه.

دخل في مناوشةٍ حادّةٍ مع أسوإ شرطيّ يُدعى "أندريا" بلغةٍ يونانية، لكنتُها مصرية، لم يتوقّف عن شَتْمِ أندريا، وضَرْبِ رأسه في القضبان الحديدية للباب، مُطالِباً بمقابلة "ديكيتيس" قائد السّجن، ليفهم منه سببَ بقائه بالسّجن هذه المدّة كلّها، لكنْ، لم يستجِبْ له أحد.

غرفة الجورجيّيْن أنيقةٌ جدّاً ومُعطَّرة، لطفاء جدّاً، لكنّهم شرسون حين يتعرّض لهم أحد.

مرّت الأيّام بسرعة، كانت هناك ساحةٌ خارج المهجع، بها ملعبُ كرةِ قَدَمٍ صغير، نخرجُ إليها ثلاث مرّات في الأسبوع، يلعبُ بعض الرّفاق كرةَ القَدَمِ، والبقيةُ تكتفي بالمشي.

نجحَ زكي في مقابلةِ نائبِ قائد السّجن، وأخبروه أنه سيُرحَّلُ إلى "موندليزا"، ودَّعْناه بحرارة، كان حزيناً، وشعرَ بأن المخيّم سيكون فخّاً له.

موح صحراوي دائمُ الضّحك، مهتمٌّ بالسّياسة، ويعرفُ منطقة البلقان

جيّداً، بحُكم تجارته هناك قبل سنوات. اتّصلتُ بشقيقي، وطلبتُ منه بعد أن منحتُهُ فاكس القنصليّة الجزائرية في أثينا أن يرسلَ لي نسخةً عن بطاقة التّعريف وشهادة الميلاد حتّى أقابل القنصل، ليمنحَني الموافقة على العودةِ إلى الجزائر، كما اتّفقتُ مع مراد وحليم وزين الدِّيْن.

دعاني شابٌّ أفغانيٌّ من كابول لطيفٌ وبريءٌ لشربِ القهوة للتّعارف، يُدعى "ناويد"، صوتُهُ طُفُوليٌّ، ولحيتُهُ سوداء خفيفة، وشَعْره كثيفٌ، بعينَيْن سوداوَيْن حادَّتَيْن، اختلط فيها الأمل بالحزن، والخيبة بالبراءة، كان مُتواجِداً منذ شهرَيْن، والتحق به قبل أسبوعَيْن شقيقه الأكبر "حبيب الله"، كان مُترجِماً بالجيش الأمريكي في أفغانستان، اعتُقِل في مطارِ جزيرة ميكونوس، يُتقنُ الإنجليزية، وقليلاً من اليونانية، عشرينيٌّ خرّيجُ جامعة، كان نسخةً عن مواطنه "رضوان الله" الذي تعرّفتُ عليه في باتراس، يحفظُ القرآن الكريم، لكنّه لا يُتقنُ العربية، وهذا ما يبعثُ على الحَيْرة.

تحدّثْنا عن أفغانستان قبل الغزو السّوفينيّ وبعدها، وعن ما يُسمّى مجاهدين عرب وعن بن لادن وطالبان وتدميرِ تمثالِ بوذا والملاّ عمر وعبد الرشيد دوستم والغزو الأمريكي لبلاده مطلع الألفية، ناويد ضحيةٌ لتلك الهمجيّات كلها التي ابتُلِيَتْ بها بلاده. طُغاةٌ وجلّادون ومرتزقةٌ وتُجّارُ حروب ومخدّرات وطابور غزاة وجوارٌ متآمِر، يحلم بالوصول إلى بريطانيا، دفعَ أَموالاً كثيرة للمهرّبين من أفغانستان حتّى يصل اليونان مروراً بتركيا.

المُصلّى يشرفُ عليه شابٌّ كرديٌّ من كوباني السّوريّة "دليل" اعتُقِل في مطار أثينا متّجهاً إلى روما بجوازٍ إسبانيٍّ مُزوَّر. يعاني من التهابٍ في يَدَيْه، ومع ذلك، لم تهتمّ به عيادة السّجن.

يسقطُ المطر في فناءِ السجن، تسقطُ حبّاته على الورد، ينقرُ زجاجَ النّوافذ، يشتدّ أكثر، وتشتدّ معه رغباتي في الهروب.

عند بوّابةِ المهجع كتاباتٌ عديدةٌ على الجدار، أرقامُ هواتف محامين عرب ومُترجمين وجمعياتٍ إنسانية وسفارات عربية وأخرى أجنبية. كتاباتٌ عديدةٌ تُعبِّرُ عن تذمّرها من اليونان وسجونِها، وأخرى تتُوقُ للحُرّيّة .. شدّتْني كثيراً عبارةٌ كُتِبَت بالعربية "الدّاخل إلى هنا مفقود، والخارج مولود".

طلبتُ من موح صحراوي أن يسأل الشّرطيّ "لافرو"، وهو من أنبل رجالِ الشّرطة هناك، وأكثرهم تعاطفاً مع المساجين، خمسينيٌّ مفتول العضلات أصلعٌ بملامح تفرض احترامها. بعد أن بحثَ عن اسمي في الحاسوب، أخبرَ موح بأنّ القادمين من الجُزُر سيعودون إليها، ثمّ يُرحَّلون إلى تركيا.

"ليس هذا وقتَ العودةِ إليكِ، أيّتها الحبيبة ساموس.

لن يتركُوني حُرّاً في رحابكِ، لو كان الأمرُ كذلك، لعدتُ إليكِ سباحةً حتّى أبلُغ نهدَكِ السّخيّ".

كان معظم الرّفاق مُصلِّين، يُؤذِّن "دليل" عندما يقتربُ كلّ موعد للصّلاة، يخاطبُ من النّافذة سجينةً كرديّةً جميلةً من سورية.

إطلالةُ السّجينات كانت بمثابةِ حديقةِ وردٍ، تُبهِجُ أرواحَنا الهائمة، قليلاتٌ منهنّ يتحدّثنَ الإنجليزية، لكن لغة المساجين لا تحتاج لترجمة، يكفي أن تبتسم كريستيانا حتّى يتعدّل مزاج المهاجع المكتظّة بالأحلام والهواجس.

توصّلْنا إلى شبهِ اتّفاق بين الرّفاق على ضرورة الإقدام على خطوة العودةِ الطَّوعيّة من أجل الهرب، إلّا حليم كان مازال متردّداً، ووليد كذلك، كان هذا الأخير لا ينام إلّا بعد أن يُحدِث ضجيجاً عند الباب، يغنّي بصوتٍ مرتفعٍ عن الغربة والأُمّ والبحر.

صباحات السّجن كانت تأتي متأخّرة، لا يقطعُ نومها إلّا عراكٌ بين المساجين أو قدومُ بعضهم ومغادرتهم. جاء وافدٌ جديد، جزائريٌّ يمشي بعصى طبِّيَّة، وبدا مُتعَباً ومُنهَاراً، يُدعى "نسيم" ابن مدينة بجاية، خرج من ساموس عبرَ شاحنة دهستْهُ في ميناءِ أثينا بعد توقّف الباخرة، كان مُختبئاً عند العجلات الأخيرة للمقطورة، خدعتْهُ إنارةُ الشّاحنة حين اعتقدَ أنّها متوقّفة، فنزل وقبل أن يبتعدَ عن العجلات، انطلقت الشّاحنة، ومرّت عليه عجلاتها الأخيرة، فصرخ بشدّة، وأُغمي عليه مباشرة، ليجد نفسه بعد ساعات في المستشفى، كان معه قاصرُ جزائريٌّ أيضاً، فُزع لما حدث، وهرب وهو يصرخُ بشدّة. تقدّم بعدها حُرّاس الميناء منه، سائق الشّاحنة وممثّل السلعة الموجودة فيها الذي كان ينتظرها في الميناء تركاه مَرميّاً على الأرض، ولم يتصرَّفا. المسافرون الذين نزلوا من الباخرة هم مَن اتّصل بالشّرطة بعد أن هالهم المشهد، لتأتيَ بعد لحظات، وتنقله إلى المستشفى.

يحكي نسيم مأساته بشكلٍ يجعلُ الدّمع ينهمر، كان في تلك الحالة بين الحياة والموت، ومع هذا حاول ممثّل الشّركة والسّائق الاعتداء عليه، وقع صراخٌ في رواق المستشفى بين أفرادِ الشّرطة والأطبّاء والسّائق، وكذلك قائد رحلة الباخرة، حيث منعوا عنه استعمال الهاتف، ليتّصل بشقيقه في فرنسا، ولا يُنكرُ نسيم، وسط هذا التّوحّش والغضب الأعمى، تضامُنَ أطبّاء ورجال شرطةٍ معه، لم يتركوه في المستشفى، وإنما جِيء به إلى السّجن، ليعود إلى ساموس مجدّداً .. يا لها من حكومةٍ متوحّشة، تبوّلت على إرثِ أفلاطون!

إصابةُ نسيم كانت عند الركبة التي طحنتْها العجلات تقريباً، رمّمها الأطبّاء بالبلاستيك ومعادن أخرى، منعوا عنه الهاتف، ولم تُقدَّم له أدويةٌ، تُخفِّفُ عنه الآلام الحادّة التي كانت تمزِّقه.

نسيم 21 سنة، يتيمُ الوالدَيْن، كان حلّاقاً في الجزائر، وأخفق في الحصول على فيزا إلى فرنسا، ليلتحق بشقيقه هناك، واختار المحاولة عبر طريقِ تركيا اليونان، لينتهي إلى ذلك الحال، أخبره الطّبيب أنّه لن يمشي على رِجْله المصابة إلّا بعد سنة؛ صباحٌ مُفجِعٌ حقّاً!.

أقام نسيم رفقة زينو وسليمان، الرّفاق كلّهم تعاطفوا معه، وكانوا يسهرون على راحته حتّى يتجاوز محنته.

اتّصلتُ بالقنصلية الجزائرية، لأحصل منهم على رَقْم الفاكس حتّى تُرسَل وثائقُنا إليهم، حصلتُ من موظّفِ القنصلية عليه، ووعدني بأن يزورنا القنصل في أقرب وقت.

مرّ الأسبوع الأوّل في انتظار مرورِ القنصل علينا، ونسيم لم يطرأ جديد على وضعه، كان يملكُ في حقيبته التي تركها عند الشّرطة شريحة هاتفٍ مُعبّأة برصيدِ أنترنت، ومعها شاحن هاتف، تحايل سليمان على الشّرطة، وتظاهرَ بجَلبِ الثّياب لنسيم من حقيبته، وجَلَبَ معه الشّريحة والشّاحن بعد أن خبّأهما في ثوبه الدّاخليّ.

مرزاق الحراشي الذي كنّا نجهلُ أخباره وصل صباحاً من سالونيك، كما أخبرني موح صحرواي، لا يمكن رؤيته أو التّحدّث معه إلّا من خلال البابِ المُغلَق الذي يفصل المهجعَيْن الثّالث والخامس، نضعُ الأُذن على الباب، ونتكلّم بصوتٍ مرتفعٍ قليلاً حتّى نفهم على بعض.

مساءً سُمح لشقيق نسيم برؤيته في القاعة المخصّصة للزّيارات، شقيقه الذي يقيم في فرنسا متزوّجٌ من يونانية، وكَّلَ له ثلاثة محامين فرنسيّيْن، واثنَيْن آخرَيْن من اليونان، من أجل إخراجه من السّجن، وإتمامِ نقاهته الصِّحِّيَّة في أثينا. رفض الأمن اليوناني بشدّة، ولم يوافق، أخبروه بأَن أقصى ما يمكن أن يفعلوه معه هو تسهيلُ إجراءاتِ ترحيله إلى الجزائر خاصّة وأن

جواز سفره معه، قرّر شقيق نسيم أن يرفع دعوى قضائية ضدّ الحكومة اليونانية لدى المحكمة الأوروبية لإنصاف شقيقه، لكنْ، لا يوجد هناك مَنْ يمسحُ عار حكومة ألكسيس تيسبراس يساريةِ التّوجّه من هذا الجرم اللاإنساني .. فَقَدَ نسيم الأمل في الإفراجِ عنه، واختار تسجيلَ نفسِه في قوائمِ العودة الطَّوْعيّة.

مرزاق الحراشي اقتنع أيضاً بفكرة العودة الطَّوْعيّة كحيلةٍ للهرب، لكنْ، لم تصله بعد وثائقه إلى القنصلية.

الوقتُ المخصّصُ لاستعمال الهاتف محدودٌ جدّاً، يُستعمَلُ للضّرورة القصوى فقط خاصّة نهاراً، أمّا ليلاً ومع مناوبةٍ لا تُثيرُ المشاكل، نستعمله بحُرّيّة مع تركيزِ الانتباه على الشّرطة، وتركِ أحدنا في الباب للحراسة، وعند طارئ ما يردِّد الكلمة المتّفق عليها "باباك، باباك".

ناويد يُصلّي صلاة العشاء، بصوته العذب، يقرأ على المُصلّين آية الكرسي، يخشعُ بِصِدْقٍ كصُوفيٍّ ولهان. هذا البشتوني الأصيل يسهرُ حتّى الفجر عند الباب، حيث تتوفّرُ الإنارة، ليقرأ القرآن، لكنْ، لا بوادر للتّطرّف في سلوكه، يتحدّث عن جمالِ الأفغانيات وجلسات الهيروين الطّويلة في كابول، يتذكّرُ نبيذاً تركيّاً، ويحلمُ بضباب لندن الذي لن ينقشع إلّا بعد وصوله إليها.

كان هناك كرديّ إيرانيّ يُدعى "أحمد درويش" يردّد ليلاً مووايل كردية، تمزّق الروح، كان يجلسُ مثل دراويش الصّوفيّة، ويخفض رأسه إلى الأسفل، ويغنّي بنحيبٍ حادّ جدّاً، كأنّ أحزان العالم اجتمعت في حَنْجَرَة هذا الهارب من قُبح الملالي، يمقتُ كثيراً آيات إيران، ويصفهم بالفاشيست الذين صادروا حُرّيّة قوميّته. يمنحُه موح صحراوي حبّاتَ برتقال حتّى يغنّي له موال "دلالي" و"دنيا".

زينو لا يكفّ عن مشاغبةِ رجالِ الشّرطة، ولا يتعبُ من مغازلة السّجينات، لغتُهُ اليونانيةُ الجيّدةُ التي يُتقنها قراءةً وكتابةً، تُسهِّلُ عليه الحديثَ مُطوّلاً مع رفيقاتِ السّجن.

استغنيتُ عن سجائرِ LM ، وعوَّضتُها بسجائرِ اللّفّ من نوع "كابنو"، يُباعُ في كيسٍ أنيق مُرفَقٍ بأوراقِ التّبغ وفيلتر، وجدتُ صعوبةً بادئ الأمر في لَفِّ السّجائر، وكان مراد يلفّ سيجارَتَيْن، واحدةً له، وأخرى لي، وأحياناً نتقاسم سيجارةً بيننا، كنوعٍ من التّقشّف.

الأكراد يطلقون عليها اسم "كوباني"، والعرب يُسمّونها "عين العرب"، والدواعش أطلقوا عليها اسم "عين الإسلام" في حربهم مع تنظيم pkk للسّيطرة عليها، هكذا يتحدّث دليل عن مسقطِ رأسه كوباني التي فرّ منها قبل سنةٍ إلى أربيل شمال العراق، ليقرّر الدخول إلى تركيا، ثمّ اليونان، دفع 800 أورو لمهرّبٍ حتّى يخرج من جزيرة "خيوس"، في أثينا كان يقيم في إقامة الأكراد التي حدّثني عنها أمين رفيق زنزانةِ باتراس، اتّفق مع مهرّبٍ آخر على سعر 1500 أورو حتّى يُزوِّر له جوازَ سفر، ويحاول به إلى أوروبا، لكن حظّه البائس عجَّل بقدومه إلى ألادابون.

في نهاية الأسبوع، نُودي على زكي المصري، من أجل ترحيله إلى "موندليزا". وظهر حزنٌ في عينَيْه. في أيّامه الأخيرة، بقي شبه معزول عنّا، يستفيقُ بعد العصر، ويذهبُ إلى غرفة الجورجيّيْن، ليستعمل الهاتف، لأنّها بعيدةٌ عن بابِ المهجع. دخل في عراكٍ مع الباكستانيّيْن، شاركَهُ فيه بعضُ الجزائريّيْن وشاب جورجي، لم أُوافق على هذا الفعل المشين، لأنه "حڨرة"، بعدها تعالت صيحات رفاقهم من بقية المهاجع حتّى تدخّلت الشّرطة، وفضَّت الاشتباك.

رغم أن أعداد مساجين جنوب شرق آسيا أكثر من خصومهم، لكن

معظمهم تعرّض للضّرب. توجدُ أقلّيّةٌ جزائرية مع بعض العرب في المهاجع الأخرى، وأحياناً يتعرّضون للضّرب من الباكستانيّيْن، يستفزُّني منطقُ الأغلبية العِرْقيّة كثيراً، ويفضحُ الوباء الذي يحمله هؤلاء، ولم يغادرهم حتّى بعد أن غادروا أوطانهم.

جمع زكي أغراضه بعد أن استحمّ وسرَّح شَعْره كعادته، ودّعَنا ودموعه تلمعُ في عينَيْه.

السّجن يشبهُ الحياة، لا شيء يدوم فيه إلّا مَنْ يترك أثره الطَّيِّب.

تتماطلُ القنصلية كعادتها، ودوماً يردّ علينا الموظّف بالعبارة المُمِلَّة نفسها "اصبروا قريب ونجو عندكم".

نسيم قدّم طلباً لمكتبِ الشّرطة، من أجلِ تحويله إلى "موندليزا" تمهيداً لعودته إلى الجزائر كما نصحه موح صحراوي وزينو، بقاؤه في السّجن مع هذا الوضع الصِّحِّيِّ غير إنساني أبداً، طعامٌ غير صحِّيٍّ، ولا يسمح له باستقبال أطعمةٍ ومشروبات وفواكه من شقيقه. غربةٌ وسجنٌ ومرضٌ، سوء حظٍّ يُلاحقُ نسيم، أسوأ ما قد يحصلُ مع المهاجر هو المرض داخل سجون اليونان، احتمالُ الموتِ وارد جدّاً.

في يومِ الأحد من الأسبوع الثاني قَدِم وافدٌ جزائريّ آخر يُدعى "حمزة المازوني" من غليزان، وصلَ باري الإيطالية من باتراس، واكتشف أمره في الباخرة بعد وصولها الميناء. بتواطُؤٍ وتوجيهاتٍ من موح صحراوي نجح حمزة في تسليم هاتفه إلى الرّفاق.

غافل الشّرطة عند رواق المهاجع، وتقدّم من بابِ مهجعِنا، وسلّم الهاتف لمحمّد بسرعة فائقة.

التقيتُ حمزة مرّة واحدة في ساموس عند خيمة "يويو"، كان مُحبَطاً

جدّاً ومُتعَباً، ظهرت له بصمةُ ساموس في باتراس بعد أن رجع من ميناء باري، ليُنقل إلى ألادابون تمهيداً لترحيله مجدّداً إلى ساموس؛

- على سلامتك حمزة.

- يسلّمك خويا.

- معليش نتا درت اللي عليك.

- عادي خويا الصّحّة برك.

- راك تشوف نسيم مسكين مش ساهلة كل واحد ومكتوبه، كاين اللي يوصل وكاين اللي يموت وكاين اللي يرجع للبلاد.

- هذي هي "الحرقة" مش قصّة دراهم أو قفازة، نتا وزهرك.

- صح.

كان نسيم سيغادر في الغد إلى موندليزا، تغيّرت ملامحه قليلاً، وذهبَ عليه الشّحوب، اعتنى به الرّفاق جيّداً خاصّة سليمان التّبسيّ الذي كان يرافقه إلى الحمّام، ويُعينه على الاستحمام.

يلعب مراد البوكر والدومينو مع الرّفاق والجورجيّيْن. عدلان هو الآخر ماهرٌ في البوكر، جمال المغربي يحتفظُ بهاتفٍ عتيق، ولديه شرائحُ اتّصال عديدة، يتّصلُ بها مع محاميته وشقيقه في فرنسا، لم يكن يبخلْ علينا في الاتّصال بالرّفاق في باتراس.

في صباحِ الاثنَيْن، جمع سليمان أغراضَ نسيم، وغيّر له ثيابه، ليغادر إلى موندليزا، عانقتُ نسيماً، وتمنّيتُ له الشّفاء العاجل. ودّعَنا والدّموع تنهمرُ من عينَيْه، هذا الأمازيغي الشّامخ لم تهزمْهُ الإصابة، بل عَدَّها جولةً أولى فقط، لن تؤثّر على رغباته في الوصول إلى أوروبا، ولو بطُرُقٍ أخرى.

انتقلتُ للإقامة مع زينو وسليمان، مراد بقي مع وليد وزين الدِّيْن وعدلان.

زينو يجادل بتمكُّنٍ في السّياسة والتّاريخ والدِّيْن، وأحياناً يتعصّبُ لمواقفه، مُعجَبٌ بالدراما التّاريخيّة السّوريّة خاصّة "ربيع قرطبة" الذي يحفظُ بعض المشاهد خاصّة الحميمية منها بين المنصور بن أبي عامر وأوروا البشكنجية "الصُّبْح".

لم يأتِ القنصل، أصرَّيْنا على لقائه خوفاً من شبحِ ترحيلنا إلى ساموس.

تمكّن مرزاق الحراشي من التّحايل على الشّرطيّ، وتقدّم من بوّابة مهجعنا، ليُحدّثنا؛

- مرزاق على سلامتك.

- يسلّمك خويا وش درنا؟

- كما تفاهمنا، الهربة.

- لازم.

- كاين تلفون فالديلتا نتاعكم؟

- كاين إيه.

- مليح أهدر مع الدار يبعثولك نسخ نتع شهادة الميلاد للقنصلية باه ما يرجعوك لمونداليزا.

- إن شاء الله.

- اتهلا.

مرَ أسبوعٌ آخر دون أن يزورَنا القنصل.

تأتي "الكانتيتا" مرّة واحدة في الأسبوع، نشتري ما يكفينا من سجائر اللّفّ لمدّة أسبوع، وأحياناً حين تنفد منّا، نستلف من بقيةِ المهاجع أو تزوِّدنا السّجينات الجميلات، وأحياناً يتكفّل "حبيب الله" بالحصولِ عليه من مواطنه في المهجع الخامس "أبو الفضل".

نال "تيموكا" حُرّيّتَه. وكان سيغادر يوم السبت. حصل اللّيلة الماضية على زجاجة ويسكي وصلتْهُ من زائر، أدخلَهَا بسهولة، كان نخبَ وداع الرّفاق، شرِبْنا بفرحٍ، كما لم يحدُث من قبل، وأرسل ما تبقّى من الويسكي إلى السّجينات عبر الكيس الأسود الذي يُرفَع بحبل من قماش.

في السادسة من صباحِ السبت، طاف رجال الشّرطة على المهاجعِ لإخراج مساجين ساموس، كانوا بزيٍّ مَدَنيٍّ مبعوثين من الجزيرة لاستلام المساجين، وبسرعة جمع أثير العراقي أغراضَهُ، كان سعيداً جدّاً هذا الحلاّق الذي يملكُ موهبة الرسم أيضاً، في الليلة الماضية حلق لنا شُعُورَنا، وبعدها حدَّثَنا بلهجته العراقية الفخمة عن سفرياته في إيران ولبنان وجورجيا التي أنفق فيها مالاً كثيراً على جميلاتها اللواتي سهرنَ معه.

نجونا نحن الأربعة، أنا ومراد وحمزة وحليم، مرزاق نُوديَ عليه، لأن وثائقه لم تصل بعد إلى القنصلية، عكسنا نحن الذين وصلت الوثائق قبل أيّامٍ، وسلّمَنا شرطيٌّ أوراقاً، وقّعنا عليها تمهيداً لِلقاءِ القنصل، حزنتُ على مرزاق، وخشيتُ عليه من مصير مجهول في ساموس وفي تركيا التي لن يبقى فيها حُرّاً، وإنما يُخيَّر بين السّجن أو العودة إلى الجزائر، لوَّحَ لنا مرزاق بيده من بعيد، وعلى ظَهْره حقيبة وابتسامة، لم تتوقّف حتّى أُغلق

الباب، وكان معه غلام التيارتي أيضاً الذي رفض التّقدّم بطلبِ عودةٍ طوْعيةٍ تمهيداً للهرب.

في المساء، فتحَ وليد حسابه في الفيسبوك، واتّصل بغلام، وأخبره بأنّه أُفرِج عنه مع أثير ومرزاق بعد أن وصلوا مخيّم ساموس، يا لها من مفارقة عجيبة، أثبتت كذبَ رجالِ الشّرطة الأوغاد! نشر غلام صورة له مع مرزاق وأثير في شاطئ ساموس وهم يحتسون البيرة، ويرقصون فرحاً بالإفراج عنهم وعدمِ ترحيلهم إلى تركيا، "هنيئاً لهم الحُرّيّة".

لو عرفتُ أن الأمور ستجري بذلك الشّكل، كنتُ عُدتُ معهم إلى الحبيبة ساموس التي أشتاقها كثيراً، وأحاول مجدّداً للوصول إلى أثينا وإتمام رحلتي، لكنْ، مَنْ كان ليدري؟ اللعنة على الأمن اليوناني المخادع.

سارت الخطّة كما أردنا، كنّا فقط ننتظرُ مجيء القنصل.

صباح الثلاثاء داهمَني ألمٌ حادٌّ في بطني، فَقَدْتُ معه الشّهية وشعور بالغثيان المتواصل ورغبةٌ في النّوم، كنتُ أكتفي بالماء والتّدخين، وأتفادى الضّجيج، وفي المساء، خرجتُ إلى ساحة السّجن، مشيتُ كثيراً بلا فائدة، ظلّ الألم مستقرّاً، يحفرُ في أمعائي، لم أقوَ على المشي بعد أن صرتُ أتقيّأ حتّى الماء. انتبهَ لي مراد وموح صحراوي الذي تحدّث مع الشّرطيّ لافرو من أجلي، وحصل منه على حبوبٍ ومسكّنات، خفّفتْ قليلاً من ألمي، وليد حصل من سجينة ألبانية على مشروبٍ من الأعشاب، يُسهِّل الهضم.

اخترتُ النّوم في غرفةِ وليد، لأنّها هادئةٌ وباردةٌ ليلاً حتّى أرتاح قليلاً من الضّجيج، لكنْ، في صباح اليوم التالي تضاعف الألم، ولم يرحمْني، استفزّني كثيراً، حتّى الماء كانت ترفضه أمعائي بعد دقائق، وحين يهدأ الألم الحادّ، أنامُ لساعات، لأستيقظَ على موجاتِ ألمٍ أخرى، كأنها سكاكينٌ، تمزّق أعماقي على مهل.

ارتبك الرّفاق، ووقفتُ عند الباب، لم يهتمّ بي أحد، بدأتُ أشتم وأصرخ بما تبقّى لديّ من قوّة، وأضربُ بقبضة يدي القضبان الحديدية والجدران.

خرج ناويد، ربَّتَ على كتفي، وطلب منّي الصبر، ثمّ تحدّث إلى شرطيٍّ عنّي، لكنَه تجاهله. جاء حليم ومراد وخلفهما محمّد، وطلبوا أن أتمدّد أمام الباب بعد أن وضع لي وليد غطاء، وجلب معه وسادة، ظلّوا يصرخون بشدّة، ويضربون الباب بأقدامهم، ويشتمون.

التحق بهم زينو، وطلب الشّرطيّ المناوب، ولم يكن غير "أندريا" الذي تجاهل وضعي، هدّده زينو بحَرْقِ المهجع وتحطيمِ الباب، إن لم يأخذوني إلى المستشفى.

استجابَ أخيراً ذلك الشّرطيّ الذي اعتقد أنّني أُمثّل أو أرغب في دخول المستشفى من أجل الهرب. فتحَ لي الباب، ورافقتُ شرطيَّيْن إلى السّيّارة، ركبتُ في الخلف والأصفاد بيدي، كانت معي قارورةُ مياه وحريقٌ هائل مشتعلٌ في حلقي وشَفَتَيّ، دخلتُ قاعة الاستعجالات في المستشفى الذي يقع وسط أثينا، كانت مزدحمة جدّاً بالمرضى والزّوّار، جلستُ في كرسي متحرّك.

كان الشّرطيان اللذان رافقاني بغاية اللّطف، نزعا عنّي الأصفاد، وبقيتُ داخل قاعةٍ صغيرةٍ، أنتظرُ دوري، والألم يتضاعف كثيراً، بدأتُ أصرخ وأضرب الجدار حتّى يضعوا حدّاً لهذا الألم المميت، قاعة الاستعجالات مختلطةٌ، وهي الأخرى مكتظّةٌ بضحايا حوادث سَيْر وحرائق ومعظم المرضى كبارٌ في السّنّ، ورغم الألم كان ذهني في السّجن عند الرّفاق الذين سيقابلون القنصل، المرض كان سيحرمني من لقائه، وسيغادرون قبلي. يا للخسارة!

كنتُ أتوقّعُ أنه بعد أن حقنتِ الممرّضةُ الجميلةُ ذراعِيَ أن يُفرَج عنّي، لكنْ، لم يحصل ذلك.

غادر الشّرطيّان اللطيفان، وجاء فريق آخر، وبمجرّد أن عرفوا أنّني جزائري من خلال الوثيقة التي سلّمها لهم الطبيب، وُضِعَت الأصفاد بيدَيّ مجدّداً خوفاً من احتمال الهرب.

ضحكتُ كثيراً على بلادة ذلك الشّرطيّ الغرّ، بعد أن خضعتُ لكشفِ الأشعّة، عُدتُ إلى قاعة الاستعجالات، ثمّ جاء طبيبٌ يُتقنُ الفرنسية، سألني عن آثارِ عمليَّتَيْنِ في بطني وسببِ إجرائهما، جاء بعده بروفيسور مصريٌّ مُسنٌّ، راح يسأل الأسئلة نفسها.

فَقَدْتُ الأمل في عودتي إلى السّجن بعد أن أُجرِيَت لي فحوصات الدّم والقلب، وقام الطّبيب ذو اللحية السوداء الكثيفة بتثبيتِ أنبوبٍ في عضوي الذَّكَريّ، وبعد هذه الإجراءات الطِّبِّيَّة، تمّ نَقْلي إلى الطّابق العلوي، ودخلتُ جناحاً بغرفٍ عديدة، كانت الساعة تشيرُ إلى منتصف اللّيل. بقي الشّرطيّان خارج الغرفة عند الباب، من النّافذة، يظهر مَعلَمُ "أكروبوليس" والإنارة تحيطُ به من كلّ جانب.

أولُ ليلة في المستشفى وثلاثُ ليالٍ أخرى دون أن أعلمَ كيف سينتهي وضعي.

كلَ صباحٍ أتوجّهُ مع ممرّضٍ أو ممرّضة إلى الطّابق الأرضي عبر المصعدِ الكهربائي لإجراء كشفِ الأشعّة، لم تنفعِ الأدوية في إزالةِ الانسداد المعوي. وفي اللّيل، جاء إليّ ممرّضٌ شابّ، وغيَّر ثيابي، وحَلَقَ شَعْري من أعلى الصدر حتّى أسفل البطن، أدركتُ حينها أن العملية قادمة لا محالة.

كنتُ أقضي معظم الأيّام الأولى نوماً، بسببِ مفعول الأدوية والمسكّنات، أستغلُّ فرصة تواجد أفراد الشّرطة الذين يتناوبون على حراستي حتّى أُجري اتّصالاً مع الرّفاق في السّجن وفي باتراس، قبل أن أغادر السّجن وضعَ في جيبي أحدُ الرّفاق، أعتقد موح صحراوي أو وليد ورقة نقدية من فئة 20 يورو مع ورقة أخرى، فيها أرقام هواتف الرفاق ..

نفعتْني الـ 20 أورو في اقتناءِ بطاقةِ اتّصال، تكفّل شرطيٌّ طيّبٌ بشرائها من متجرِ المستشفى.

صرتُ أميّزُ بين الطَّيِّب والسَّيِّئ من رجالِ الشّرطة الذين يتناوبون على حراستي، بعضهم يكتفي بالتّحيّة، والبعض يبادرُ إلى الحديث معي بعفوية، تتجاوزُ ثنائية مهاجرِ سجين وشرطي جاء لحراسته.

يأتي ثنائيُ المناوبة الأوّل فجراً، ليغادر بعد منتصف النهار، يخلفُه ثنائيٌّ آخر من الواحدة ظهراً إلى غاية العاشرة مساء، وثنائيٌّ مناوبٌ أخير من العاشرة مساء حتّى الفجر. تقريباً كلّ مَنْ مرّوا كانوا طيّبين سواء رجالاً أو نساءً.

اتّصلتُ بسيد علي من هاتف مُثبّتٍ في خارج الجناح الذي أُقيم فيه، وطلبتُ منه أن يُخبرَ شقيقي، ويُطَمئِنَ الرّفاق في السّجن على وضعي من هاتف مُثبَّتٍ في خارج الجناح الذي أُقيم فيه، وطلبتُ منه أن يُخبرَ شقيقي، ويُطَمئِنَ الرّفاق في السّجن على وضعي.

المرضُ يهزمُنا

في مساءِ السّبتِ، أخبرتْني الشّرطيّة الشّقراء الطّويلة التي تتحدّث العربية قليلاً عن موعد عمليّتي الذي حُدِّد في حدود الخامسة.

كان الطّبيب صاحب اللّحية السّوداء يزورني كلّ صباحٍ رفقة طبيبة ودودة جدّاً، وفريقٍ طبي آخر للاطمئنان على وضعي، ولم يُخبراني عن احتمال خضوعي لعملية، حتّى البروفيسور المصري أيضاً كان يتظاهر بعدم المعرفة.

عندما حان الوقت جاء ممرّضٌ، ومعه سريرٌ طبِّيٌّ، ليأخذني إلى قاعة العمليّات التي تقع في الطّابق الثاني. قاعةٌ واسعةٌ ونظيفة جدّاً، تنبعثُ منها رائحةٌ منعشة وموسيقى هادئة.

بعد تثبيت أجهزة نبضات القلب والضّغط، نبّهتْني الممرّضة المسؤولة عن التّخدير، لأستعدّ للحقنة، سألتُها قبل أن تفعل عن طبيعة العملية.

- لا يوجد هناك ما يدعو للقلق رغم أنّها دقيقة نوعاً ما، وتتطلّب شجاعة منكَ.

- عادي، ليست عمليّتي الأولى.

- جميل حتّى الجرّاح محترف.

الجرّاح المحترف كان يجلسُ قرب النّافذة، يعبثُ بهاتفه، ويدُه تداعبُ لحيته.

قدّمتُ ذراعِي لممرّضة التّخدير، وأفقتُ على صوت الممرّضة نفسها بعد الواحدة صباحاً وهي تقول "Mr ramdani your operation is finished, you can stand up"، شعرتُ لدى سماع جُملتها أنّه آخر فصل في مشروع هجرتي الذي أنهاه المرض دون أن أحسب له حساباً، لأنّني كنتُ في أوج رغباتي وطموحي، فرغم الخيبات كلّها بقيتُ لآخر لحظة مُصمِّماً على المحاولة، لكن ذلك الظّرْف دَاهَمَ حُلمي، وحطّمه تماماً.

كنتُ مُنهكَاً جدّاً وعاجزاً حتّى عن تحريكِ يدي وباقي الأطراف، بسبب التّخدير الطّويل وطبيعة العمليّة التي كانت خاصّة بانسداد الأمعاء، وبعد أن مرّرتُ يدي على بطني في مكانِ العملية، شعرتُ بالدّهشة، كان الجرحُ كبيراً جدّاً (45 غرزة معدنية)، حمَلَني ممرّضٌ، ووضعَني في سريرٍ، ونقلَني إلى غرفتي.

تحسَّستُ الجرحَ مجدّداً، يا للهول! الجسد الذي حملني في البحر، وتجاوزتُ به الحدود، وأعانني على الهرب من الشّرطة، صار خارج الخدمة إلى أجلٍ غير مُسمّى.

فتحَ الشّرطيُّ البابَ بهدوء، وحدّثني:

- أعتقدُ أنّكَ الآن بخير.

- بخير أفضل من السّابق.

- جيّد.

- هل تحتاج شيئاً؟

- لا، شكراً لكَ.

- ليلتكَ سعيدة، في الأحوال كلها، أنا هنا إن احتجتَ شيئاً.

- شكراً.

الممرّضاتُ بلا استثناء متفانياتٌ في عملهنّ، لم يبخلنَ عليّ بشيء، جمعتْني بهنّ علاقةٌ إنسانية جميلة، وتجاوزتُ بعضاً من محنتي.

لم أتحرّك من فراشي إلّا بعدَ ثلاثة أيّامٍ من العمليّة، كنتُ أمشي بصعوبة، وبمساعدة الممرّضة.

كسرَ المرضُ المفاجِئ ظَهْري، صارت قَدَماي ثقيلَتَيْن جدّاً، وأُحسّ بالكثير من الدوخة بسبب الأدوية، وليلاً كنتُ أعاني كثيراً بسبب الأرق، وفقدتُ الكثير من وزني.

لم يبخل عليّ الشّرطيّ الجميل الذي يُتقِن الفرنسية ببطاقاتِ الاتّصال، وكانت برفقته شرطيةٌ بزيٍّ مَدَنيٍّ، هي الأخرى كانت ودودةً جدّاً وكريمة، بعد منتصف النّهار ودَّعاني، ليحلَّ مكانهما ثنائيٌّ آخر.

في اليوم الخامس، اتّصلتُ بحميمد، لأعرف منه الجديد، بخصوص الرّفاق في السجن؛

- لاباس حميمد.

- الحمد على سلامتك، السوال عليك.

- بخير ربّي يسترك، الجماعة كاش خبر عليهم.

- الجماعة الأسبوع الجاي يروحو، جازو قبل يومَيْن على القنصل.

- بصحتهم.

- هدرولو عليك وقالهم نروح عندو.

- مزال ما جاش.

- بلال نتع بوفاريك تعرفو.

- إيه.

- مات، ربّي يرحمو.

- أوووو كفاش؟

- شفت وين كنّا نشارجو التلفونات؟

- إيه.

- هداك البنيان طاح عليه.

- يا لطيف، مع مَنْ كان؟

- كان وحدو.

- وهدوك الغجر اللي يسكنو تما؟

- راحو وجا في بلاصتهم (مكانهم) دزيري ومرتو مغربية ما صرالهم والو.

- ربّي يرحم بلال.

- جاء عندهم القنصل وبلاك أيام ويهبطوه.

- ربّي يرحمو.

- آمين.

- سلّم على الجماعة.

- يبلغ واتهلا في روحك.

- صحيت خويا.

فاجعةٌ كبرى، رحل الرّجل الطّيّب الشّفّاف دائمُ الابتسامة، رحلَ بلال قبل أن نلتقي مجدّداً، لقائي الأخير به كان عند شاطئ باتراس، شعرتُ أنّه يودِّعني:

"ألفُ رحمةٍ وأزكى سلام على روحكَ النّقيّة، يا بلال، سأفتقدكَ، أيّها النّبيل".

مرَ عليّ أسبوعٌ في المستشفى، لا القنصل جاء، ولا الدّكتور سمح بمغادرتي، كنتُ أرغبُ بشدّة في العودة إلى السّجن حتّى أغادر مع الرّفاق، لكن البروفيسور المصري أيضاً لم يسمح، ولكنّه سمح لي بالأكل:

- صحّتك كويسة.

- الحمد لله.

- تأكل لحمة ولا فرخ؟

- فرخ.

- بعد شوي يوصلك.

- تسلم.

بعد أن سمحوا لي بتناوُلِ الطعام وشُربِ الماء، ونزعوا ذلك الأنبوب المزعج عن عضوي الذّكَري، صرتُ أمشي وحدي، بدون مساعدة من الممرّضة، كنتُ أطلُّ من نافذةِ الغرفة، وأراقب أكروبوليس العظيم الذي ينامُ نهاراً، ويستيقظُ ليلاً؛ آلهة اليونان كلها تجلسُ فوق أعمدتِه مساء، لتمنح البركة للسّيّاح والعشّاق.

"أكروبوليس امنحي بعضاً من قوّتكِ، لأقفز من النافذة".

وعدني البروفيسور المصري بأنّ الغُرز المعدنية ستُنزَع الاثنَينْ الذي سيكون بعد يومَيْن، بعدها بإمكاني الخروج.

في الغرفة المجاورة، كانت تنام سيّدةٌ يونانية في غيبوبة، يزورها شابٌّ يُدخِّنُ كثيراً عند النّافذة، وتصلني الرائحة التي كانت تعانقُ روحي، واشتقتُها، لأنّني مُنِعتُ عنها، بسببِ وضعي الصِّحِّيِّ. نظرتُ إلى الشّرطيّ المناوب وهو يعبثُ بهاتفه، بدا طيِّباً، يُدعى ماريوس من جزيرة كريت، تعرَّفنا على بعض. وبعد حديثٍ قصير، طلبتُ منه سيجارة، واعتذر لكونه لا يُدخِّن، لكنّه لم يمانع في طلب سيجارة من ذلك الشّابّ الذي بدوره قام بلَفِّ سيجارة، جلبها لي الشّرطيّ ماريوس. سُعِدْتُ بها كثيراً، ودخلتُ الحمّام، لأُدخّنها، وبقي ماريوس في بابِ الجناح حتّى يُنبِّهني، إذا ما جاء الطّبيب فجأة. كانت السّيجارة كفيلة بجَعْلِ العمليّة الجراحية على قسوتها تبدو بسمةً ساخرةً في الوجهِ المعدني الكريه للعالم السافل.

الممرّضة صاحبة الشَّعْر الكستنائي القصير والعينَيْن الخضراوَيْن العميقَتَيْن، ورغم جدّيّتها المفرطة، حدّثتْني بلُطفٍ وبعذوبة بعد أن حقنت مجموعةً من الأدوية بقارورة المصل المثبّتة في عمود المينيوم؛

- أنتَ جزائري؟

- نعم.

- أنا أيضاً عربية.

- جميل، من أين؟

- أبي فلسطينيّ، وأُمّي روسية.

- رائع، من أوّل يوم شعرتُ أن جمالكِ فيه مسحةٌ عربية، تتحدّثين العربية؟

- لا.

ابتسَمتْ كربيعٍ شاميّ، شَفَتَاها بلون الكرز، تُزيّنان أسفلهما شامة، زادتهما جمالاً.

- أنتِ يونانية؟ أم عربية؟ أم روسية؟

ابتسمت:

- أنا يونانيةٌ في النّهاية.

- طبعاً.

- بعد أن تخرج من السّجن، إلى أين ستذهب؟

- قد أبقى في اليونان.

- جميل.

- أنا اليوم هنا حتّى المغيب، أبقى في خدمتكَ، إن احتجتَ شيئاً.

- شكراً جزيلاً.

تردّدتْ على غرفتي آخر مرّة، وابتسمتْ ببراءة كرز يافا.

صباح الأحد جاء الدكتور ومعه ممرّضٌ، نزع معظم الغُرز المعدينة، وترك عدداً قليلاً منها، كانت معه الطّبيبة الودودة بشَعْرها الأسود القصير، وعينَيْها البُنّيّتَيْن الواسعَتَيْن.

- أنتَ أفضل الآن؟

- نعم.

ربّتَت على رِجْلي اليُمنى، وقالت مازحةً:

- تعال نتشاجر، أعلمُ أنّكَ ستهزمني.

ضحكتُ من دعابتها.

أخبرني الدكتور صاحب اللّحية السّوداء بأنّ العمليّة تتطلّب نقاهةً تتجاوز الخمسة أشهر، بحيث غير مسموحٍ لي الجَري أو حمل شيء ثقيل، بالإضافة إلى حميةٍ غذائيةٍ صارمة. نصائحه جعلتْني أفكّر مباشرة في العودة سريعاً إلى الجزائر، خمسة أشهر حتّى يندمل الجرح، وحميةٌ غذائية معيّنة، ولياقةٌ بدنيةٌ شبه معدومة، لكن السّجن كان في انتظاري.

بعد مغادرة الدّكتور مع فريقه الطِّبِّيِّ، شعرتُ بأنّني تحطّمتُ تماماً، وبأنّ حُلمي قد تبخّر نهائياً.

أخبرتُ سيد علي بما انتهى إليه وضعي، وكان حزيناً جدّاً لأجلي؛ "أيّها الرّفيق المقدام، لا يمكن أن أواصل رحلتي معكَ، الدروب كلّها التي خضْناها معاً من ساموس إلى أثينا وسالونيك، ثمّ باتراس لم يعد يسعفْني جسدي لمواصلة أخرى".

بعدها جاء البروفيسور المصري الذي وعدني بالمغادرة في الغد، كشف على بطني، ولاحظ وجود غُرز معدنية لم تتمّ إزالتها كاملاً، انفجرَ غاضباً، وطلبَ من الممرّضة أن تنادي على الطّبيب صاحب اللّحية السّوداء، وبعد أن جاء تحدّث معه مُطوَّلاً بنبرةٍ حادّة وغضب، لأنّهم تركوها في الجرح، ثمّ جاء ممرّضٌ يجرُّ عربةً معدنية، بها معقّمات وشراشف طبِّيَّة، ونزع ما تبقّى من غُرز.

التزم البروفيسور المصري بوعده بكلّ شهامة؛

- قلتلك بكرى تطلع كده ولا لا.

- كده، يا باشا.

- ربّنا معاك.

- الله يخلّيك.

في صباح الاثنَيْن جاء شرطيّان من "ألادابون"، وأمراني بالاستعداد للعودة إلى السّجن، ارتديتُ قميصي الذي كنتُ قد غسلتُهُ ليلة الأحد، وبقيتُ في الرّواق، أنتظرُ استلام الشّرطيّ ملفِّي الطِّبِّيّ من الطّبيب. لم تأتِ الممرّضة الفلسطينية لأُودِّعها، حتّى إني لم أسألها عن اسمها.

نصائحُ الطّبيب تركت بداخلي إحباطاً رهيباً، فَقَدْتُ معه الاهتمام بتلك الممرّضة الفاتنة التي ظلّتْ تتردّد على غرفتي، وتبتسم دون أن أشعر بها. كان ذهني منشغلاً بخيبةِ الحُلم واحتمالِ عودتي إلى البؤس الذي هربتُ منه.

في تمام العاشرة، رافقتُ الشّرطيّ إلى ساحة المستشفى، ودَّعتُ مَنْ صادفتُ من الممرّضات والأطبّاء.

شكراً لكرمكم النّبيل.

شكراً لأرواحكم الإنسانية النادرة.

لتحفظكم الآلهة اليونانية جميعها القديمة منها والجديدة.

بفضلكم نجوتُ من الموت.

شكراً أيضاً لرجال ونساء الشّرطة الذين تناوبوا على حراستي، وكانوا بمنتهى الصّفاء والتّعاون.

عُدتُ إلى السّجن مجدّداً، استقبلَني الرّفاق بحرارة.

- الحمد لله على سلامتكَ العربي.

- يسلمكم.

- هذا حدّ الشّرّ، إن شاء الله.

أَذْهَلَهُم كثيراً حجمُ الجرح، اقتربَ منّي ناويد الأفغاني، وعانقَني كثيراً؛

- لم أكفّ عن الدّعاء لكَ في صلاتي، أخي.

- باركَ الله فيكَ.

- لن ينقصَكَ شيء معي، أنا في خدمتكَ.

- شكراً لكَ، أخي العزيز.

عانقَني مرّة أخرى ناويد العذب.

لفّ لي مراد سيجارة، كان سعيداً بقُربِ موعدِ مغادرته في الغد مع حليم وحمزة ووليد وزين الدِّيْن، وحدّثني؛

- هدرنا مع القنصل عليك.

- ما جاش عندي.

- لو جاء عندك كنت غدوة تروح معانا.

- علاش غدوة ماشيين؟

- إيه، هدرنا مع المصري نتع منظّمة الهجرة الدّوليّة، وقال غدوة تمشو في العاشرة صباحاً.

- شوف داك الزهر يا دِيْن الرّبّ.

شعرتُ بالخيبة أنّني لن أغادر مع الرّفاق، بسبب عدم مروري على القنصل.

قضيتُ اللّيلة الأخيرة معهم، تأمّلتُ وجوههم البريئة مليّاً، احتفظتُ في أعماقي بأصواتهم الملوّنة بالخشونة والاندفاع والنّقاء، وفي الصباح، أيقظني مراد والرّفاق لتوديعي، كنتُ عاجزاً عن توديعهم، ومتأثّراً بجرح العمليّة التي حالت دون مرافقتهم، عانقتُهُم بشدّة بعد أن جمعوا أغراضهم، كانوا سعداء جدّاً، وكنتُ سعيداً أيضاً من أجلهم رغم كلّ شيء.

اغرورقت عيناي بالدّموع، لكنّني تحدّيتُها، وبدورها سالت دمعةٌ من عينَي وليد، وهو يعانقُني ويقبِّلُ جبيني. حرقةُ الوداع حرمتْني من الحديث معهم بطلاقة.

سأشتاقُكُم، أيّها المغامرون.
وداعاً، أيّها الرفاق.
وداعاً، يا ملح الجزائر.
وداعاً، أيّها الجيل الناجي من محرقة البهتان.
وداعاً وداعاً، وفقط
سأشتاقكم.

أحببتُهم كثيراً، واعتدتُ عليهم، وتعلّقتُ بهم

أحببتُ شجاعتَهُم، إصرارَهُم، جُنُونَهُم، صَبرَهُم، نقاءَهُم، وشهامَتَهُم

معي في مرضي. الوداعُ لا يعني أنّنا لن نلتقي مجدّداً، يا أنبل مَنْ صادفت من الجزائريّيْن في رحلتي التي شُيّعَت إلى مثواها الأخير.

لم يأخذوهم إلى "مونداليزا"، كما كان متوقّعاً، بل أخذوهم مباشرة إلى مطار أثينا، وكانوا سيهربون في مطار اسطنبول، كما تمّ الاتّفاق.

في صباح الأربعاء، فتحَ موح صحرواي هاتفَهُ، ووصلتْهُ رسالةٌ من وليد، يُخبرُه فيها بأنّهم في إيطاليا، لم أستوعبْ كلام محمّد، وظننتُها مزحة، لكن كلامه كان صحيحاً، انتظروا أربع ساعات في مطارِ اسطنبول لركوب الطّائرة المتّجهة إلى الجزائر. بعد إقلاع الطّائرة، طلبوا من المضيفة خمراً، ليفتعلوا مناوشةً، تطوّرت إلى شجارٍ بين وليد وحليم، لم يتقبّلْهُ الرّكّاب وقائد الطّائرة الذي كان يقترب من الأجواء الإيطالية، حيثُ حطّت طائرته في باليرمو جنوب إيطاليا بعد خروج الوضع عن السّيطرة، بعدها حطّت الطّائرة في المطار المحليّ للمدينة، وصعد رجال الشّرطة، وأنزلوا الرّفاق، ورغم تظاهُر مراد وحمزة بأنّهما جزءٌ من عمليّة الشّغَب المفتعَلَة، منعتْهم الشّرطة من النّزول، كان حظُّهم تعيساً جدّاً، وإلا رافقا وليداً وحليماً وزين العابدين وآخر بومرداسي إلى مركز الشّرطة التي احتجزتْهم لنصفِ يوم، ثمّ أفرجتْ عنهم، واتّجهوا بعدها إلى ميلانو، ثمّ إلى روما تمهيداً لانتقالهم إلى باريس.

سُعدتُ كثيراً من أجلهما، وليد وحليم من البداية كانا غير مُتحمِّسَيْن لقرار العودة بذريعةِ الهرب في "مونداليزا" أو مطار اسطنبول، لكن حُلمهم اللّذيذ تحقّق دون العودة إلى الجُزُر.

أيقنتُ حينها أن لعبة الحظّ لها دورها المفصليّ في الهجرة، الحظّ الذي لم يُسعِف حمزة ومراد اللّذَيْن أكملا رحلتهُما إلى الجزائر.

تذكّرتُ عبارة وليد في ليلته الأخيرة بالسّجن "لو كتب ربّي وجزتْ معانا

عالكونسيل كي نركبو ألعبها طحت وخلي جرحك يسيل بالدم ونبدا أنا نعيط حتّى تهبط الطيارة في إيطاليا"، لم يحدث ذلك كله مع الأسف، الحظّ البائس حال دون أماني وليد النّقيّة.

اتّصلتُ مساء بالقنصلية عن عدم إدراجي مع بقيةِ الرّفاق، واعتذر الموظّف بسببِ وضعي الصِّحِّيِّ الذي لا يسمح لي بالمغادرة، وقال إنّهم وضعوا لي برنامجاً لزيارة القنصلية يوم الخميس. كلامه البارد جعلَني أرغب في الشَّتْم بقوّة.

في صباح الخميس، رافقتُ الشّرطيّ إلى القنصلية الجزائرية في أثينا بعد أن أُخِذَتْ لي صورٌ وبصماتٌ في مكتبٍ واسعٍ، يقعُ في الطّابق الثاني للسّجن، كنتُ لا أزال أمشي بصعوبةٍ، بسببِ العمليّة، والجرح يندملُ ببطء.

أثينا كانت نائمة، تتقلَّبُ في سرير الدلال، أكروبوليس يظهر من بعيدٍ وهو يداعبُ شَعْر سائحة فرنسية، من نافذة السّيّارة، رأيتُ أفواجاً من السّيّاح يتجوّلون في أهمّ معالمِ أثينا رفقة مرشدين سياحيّيْن، يطوفون باهتمام حول مسرح ديونيسيوس.

توقّفت السّيّارة في الشّارع الذي تقعُ فيه القنصلية، بعد أن اقتربْنا من مدخلها، كان العَلَمُ الجزائري يُرفرفُ أعلى البوّابة، صورة الرئيس في قاعة الاستقبال، موظّفُ القنصليّة رحّب بنا.

شعرتُ بتعاسةِ داخل القنصليّة، كلّ ما فيها يُذكّرني بالوَهْم الذي هربتُ منه، جاء القنصلُ شابٌّ أربعينيٌّ مهذّبٌ، مَدّ يده، وصافحني:

- صحتك بخير.

- الحمد لله.

- تهبط للبلاد.

- إيه.

- ربّي يشفيك وتوصل بخير،

- آمين صحيت.

وقّعتُ على مجموعة أوراقٍ، منها وثيقةُ العبور التي كنتُ سأغادر بها إلى الجزائر، ودَّعني سعادة القنصل، وعُدتُ مع الشّرطيَّيْن إلى السّجن، نُزِعَت الأصفاد منّي في طريق العودة.

في السّجن، اتّصلتُ بالموظّف المصري في المنظّمة الدّوليّة للهجرة "ياسر"، وأكّد لي أن حصولي على التّذكرة سيكون بعد أن يصلهم "أمر العبور من القنصلية".

مرَ أسبوعٌ دون جديد، ياسر أخذ إجازة أسبوع، كما أخبرني مغربي زميله.

موح صحراوي لم يطرأ جديد على قضيّته أيضاً، يريدُ أن ينتقل إلى "موندليزا" بعد أن سئم من "ألادابون"، زينو هو الآخر ضاق ذرعاً بالسّجن، ولم يكن يعلم متى سيغادره.

طلبت طبيبةُ السّجن من الشّرطة تخصيصَ وجباتٍ خاصّة لي، لأن وجبات السّجن تكون بين العجائن والحبوب الجافّة، وأيضاً مليئة بالتوابل التي منعَني الطّبيب عنها.

غادرتْ مُعظمُ السّجينات، وجاءت أُخريات، من بينهنّ مغربيةٌ، تُدعى "جوهر"، شابّةٌ عشرينيةٌ وصلت إلى اليونان قبل ثلاث سنوات. وجاءَنا وافدٌ جديدٌ، شابٌّ مغربيٌّ أمازيغيٌّ من بني ملال يُدعى سعيد، خرج في شاحنةٍ

من جزيرة خيوس، وبعد أن حاول الخروج من الميناء، اكتُشف أمره، وكانت تلك المرّة الثانية التي يواجه السيناريو نفسه، كان سعيد يرغبُ في العودة إلى الجزيرة، ليحاول من جديد.

تواصلَ توافدُ الجزائريّيْن على السّجن، زكي قادم من باتراس بعد أن أخفق في الوصول إلى باري الإيطالية، اكتُشِف أمره في منتصفِ الطّريق، كان مُختبئاً عند مدخنة الباخرة، خرجَ بعد أن عجز عن تحمُّل حرارتها، ما جعل العمّال يتفطّنون لوجوده.

زكي الشلفي تجاوزَ الحدود الكرواتية، ولم يبقَ له الكثير ليصل "ليوبليانا" عاصمة سلوفينيا. كان مُختبئاً في شاحنة، توقّفت عند نقطةِ مراقبة، وبعد تفتيشِ الشّاحنة بالكلاب، عثرَت عليه الشّرطة مُختبئاً أسفل المقطورة ما بين العجلات، وعثروا معه على وثيقة لجوء "أوزفايس". سلّمه حَرَس الحدود السّلوفينيّ إلى نظرائهم في كرواتيا الذين سلَّموه بدورهم إلى حَرَس الحدود الصرب، ليصل إلى الحدود المقدونية اليونانية، حيث قضى ستّة أشهر في سجن "دراما"، ولم يكنْ يرغب في قضاء المدّة ذاتها في سجون اليونان، وكان يرغبُ في العودة إلى الجزائر، ليرتاح من تَعَبِ الرّحلة، ليعيد المحاولة مرّة أخرى.

وصل نهاية الأسبوع الثاني كهلٌ تونسي، وجدتُهُ عندما عُدتُ من المستشفى، يدعونه "زهير طورينو"، عاش 34 سنة في إيطاليا، قضى منها 24 سنة في السّجون على فترات هناك، بسببِ تُهم عديدةٍ، منها المتاجرة بالمخدّرات والعنف، زوجتُهُ إيطالية، وله منها ولد يُدعى "حسين". جسدُ زهير النّحيل مزركشٌ بأشكالٍ عديدة من الوَشْم عند الرقبة، وفي الظّهْر والأرجل والبطن والذّراعَيْن برموز متنوّعة؛ زهور، أسماءٌ إيطالية، نساء، قوارب صيد، سهام ..

على يمينِ رقبته وشمٌ لحرفَيْن باللّاتينيّة يرمزان لشقيقَيْه اللّذَيْن قُتلا في حادث سَيْرٍ بتونس ..

ابن بنزرت يُتقنُ الفرنسية والإيطالية، ولديه ثقافةٌ واسعة، يحفظُ الكثير من قصائد الشِّعْرِ الجاهلي، وصل اليونان قبل سنة قادماً إليها من تركيا بعد أن أُبعِدَ من إيطاليا، بسبب قضايا جنائية، اعتقلتْهُ الشّرطة في حَيّ أمونيا في أثينا، لأنّه بلا وثائق، قدَّم نفسَهُ للشّرطة كفلسطينيّ حتّى يحصلَ على لجوءٍ، يُسهِّل الإفراج عليه.

اتّصل زكي بالقنصليّة، وكان لا يزال ينتظرُ رؤية القنصل.

في الأيّام التي كان يشتغل فيها كلّ من لافرو وماريو، كنتُ أحصلُ منهما على كمّيّات إضافية من حليبِ القارورات مع كرواسون، ويجتهدان في حصولي على وجبتي الخاصّة التي كانت تتأخّر أحياناً، وأحياناً لا تأتي في فتراتِ مناوبة زملائهم.

تدهور وضع زهير الصِّحِّيّ بعد أيّامٍ من وصوله، بسببِ توقّفه عن استعمال الهيروين الذي يُدمنُ عليه منذ عقود، بدأ جسده في الانتفاخ، وأعرض عن الطّعام.

مهاجرٌ آخر إريتري قال إنه يقيم في الدانمارك، وصل مساء مُمزَّقَ الثّياب، وجروحه تنزفُ دماً في جبينه ويَدَيْه بعد أن تشاجر مع الشّرطة، منحَهُ محمّد الهاتفَ حتّى يتّصل بالقنصليّة الدّنماركيّة في أثينا، لتُسهِّل عودته إلى كوبنهاغن، أطلق عليه محمّد اسم "أنجارا"، وهو اسمُ أكلةٍ شعبيّة إريترية.

"جوهر" تغنّي بالمغربي، تشاغبُ السّجينات، تنادي على محمّد، وتطلبُ سجائر، لديها ولدٌ بقي مع شقيقتها في أثينا، بعدها بدأت تصرخُ

بشدّة، وتشتم عندما جاءت الشّرطة، وطلبتْ منها أن توقِّع على وثيقةِ تسليمِ ابنها للدّولة، هاجتْ كثيراً، وملأ صوتها أركان السّجن حتّى يئِستْ منها الحارسات، وغادرنَ. وهي لم تكفّ عن طلبِ عقاقير النّوم من عدلان هرباً من يوميّات السّجن الطّويلة. وصلتْ سجينةٌ أخرى جديدة، جوليا الألبانية شَعْرها أشقر طويل، وجسدها طَرِيّ ومُمتلئ.

لم تزل قدرتي الجسمانية ضعيفة، كنتُ عاجزاً عن الوقوفِ طويلاً أمام النّافذة، ومراقبةِ عيونِ السّجينات، ولم أقوَ على مناداتهنّ، أخذت منّي العمليّة الجراحية معظم طاقتي، لكنّني فكّرتُ دائماً أن كلّ ما مرّ بي هو تجربة غنيّة جدّاً حتّى وإن لم يُكلَّل الهدفُ بالنجاح، فقد عرفتُ بلداناً ورجالاً، وأحببتُ اليونان التي عشتُ فيها أجملَ لحظاتِ حياتي.

وصل وليد وبقيّة الرّفاق إلى روما، وكانوا سيغادرون في الغد إلى باريس، كما أخبرني محمّد بعد أن ترك له وليد رسالة من الفيسبوك. لا جديد في باتراس مع سيد علي وحميمد وعبدو باليسترو ومحمّد، لكنّهم لم يفقدوا الأمل في إمكانية الوصول إلى إيطاليا، دفعَ محمّد 150 أورو مع بشير الأفغاني، وينتظرُ دوره في الخروج.

منتصفُ شهر أوت، ولم تُسلِّم القنصليّة بعدُ وثيقة العبور إلى منظّمة الهجرة الدّوليّة حتّى تقتطع تذاكر إلى الجزائر. وبعد حادثة الرّفاق في الطّائرة، تمّ تغييرُ برنامجِ ترحيلِ الجزائريّيْن العائدين إلى وطنهم، كما أخبرني ياسر.

كان زهير التّونسيّ يُعلِّم زكي الإيطالية، وأحياناً يضعُ نظّارته الطِّبِّيَّة، ويقرأ لنا الحظّ عبر أوراقِ البوكر، مرّة جمعَ الأوراق، وقامَ بتوزيعها بكيفيّاتٍ عديدة، وطلب أن أختار إحداها، وقام بخَلْطها، ووصل إلى نتيجةٍ، تفيدُ بقُربِ الإفراج عنّي، لم أُصدِّقه كثيراً.

طلبت الشّرطة من سعيد أن يستعدّ للعودة إلى جزيرة خيوس، شعرَ

بسعادةٍ غامرة وهو يُغيِّر ثيابه، أراد المحاولة وتجربة حظّه من جديد. سليمان التّبسّي كان قد غادر إلى جزيرة خيوس قبل عودتي من المستشفى، وبعد وصوله الجزيرة بأيّام نجح في التّسلّل إلى الباخرة، ووصل إلى أثينا، كما أخبرني زينو. أمّا رشيد ابن بوفاريك، فبعد أن عاد إلى جزيرة ميتيلني، رفضت تركيا استقباله، وقدّم طلبَ عودةٍ طَوْعيّةٍ إلى الجزائر.

كان حُلمي يتبخّرُ تدريجياً؛ لمَ أنا هنا؟ لا، كنتُ قادراً على المحاولة، كما كنتُ في السّابق حتّى لو أفرَجتْ عنّي الشّرطة، ولا أحد أعرفه لأبقى عنده حتّى أستعيد عافيتي.

قبل المغيب، نادَت الشّرطة على زكي من أجل ترحيله إلى جزيرة ميتيلني بعد أن طال انتظاره للقنصل الذي أخذ إجازة، تأثّرَ كثيراً لهذا القرار المفاجِئ، فقد كان يرغبُ في المغادرة معي.

كنتُ قد رغبتُ في العودة إلى الجزائر في عيد الأضحى، لكنّه مرّ عليّ في السّجن، بسبب تماطل قنصليّتنا.

في أواخر شهرِ أوت، تحسّن وضعي قليلاً، بدأ الجرحُ يندمل تدريجياً، وعادت شهيّتي إلى وضعها الطّبيعيّ. "جوهر" لا تزال تشاغب، وتتدلّل على عدلان وزينو، جوهر الكازوية (من الدار البيضاء بالمغرب) سمراءُ بقامةٍ قصيرة قليلاً، تُغيِّرُ ثيابها أكثر من مرّة في اليوم، وتغار كثيراً حين يطلبُ منها زينو إحضار جوليا، عشيقها الأوّل مات تحتَ تأثير المخدّرات، وكانت تبكي حين تذكر اسمه، تتحدّثُ بأسى عن والدتها التي تكفّلتْ بتربيتها مع شقيقاتها بعد وفاةِ والدها؛ كانت تتحدّثُ عن حملها الجديد من عاشق آخر معتقل، وعدَتْنا بجلسة براندي في ملهى روماني بأثينا، تُحبُّ السّهر فيه، لتُغنّي لنا بصوتها الأنثوي الخافت "البابور اللي جابني يلعن

والديه". تُحبُّ الغناء، وكانت تُطربنا بأغانٍ مغربية وجزائرية وشرقية، وترفعُ غناءَها عالياً عند الإفراجِ عن سجينةٍ ما.

غادرتْ جوهر قبلنا، ولم أعلم ماذا صنع الزمان بها، غادرتْ، وبقيتُ ألعن حظّي الذي يُبقيني عالقاً هناك.

يلعبُ الفتى الإريتري كرةَ القَدَمِ ببراعةٍ مع الرّفاق في ساحة السّجن، وزهير يمشي، وزينو يلعبُ قليلاً، ثمّ يستسلمُ سريعاً، بسببِ ضعفِ فريقه، ناويد هو الآخر مُولَعٌ بكرةِ القَدَم.

كان محمّد قد تقدّم بطلبٍ لقائد السّجن حتّى يُنقَل إلى "موندليزا"، لمحتُ الألباني شكير في كراسي السّاحة، كان يجلسُ مع مجموعةٍ من المساجين الألبان، وبعد أن رآني، جاء مُسرِعاً، وسلّم عليّ:

- كيف حالكَ، أخي؟

- كما ترى.

- لا عليكَ، أهمّ شيء استعادة عافيتكَ.

- طبعاً.

- وأنتَ، ماذا حلّ بكَ؟

غادرتُ سجن كوردلو، وجاؤوا بي هنا، ليُفرِجوا عنّي، المحامية تكفّلت بكلّ شيء، وحكمت المحكمة ببراءتي.

- عظيم.

- لا تقلقْ، سيتحسّن وضعكَ، وتعود إلى الوطن، وتُغادر مجدّداً بشكلٍ أفضل، ونحتسي نخبَ الصّداقة في فرانكفورت.

- في تيرانا أفضل.

ضحك شكير الطَّيِّب، وقال:

- كنْ بخير.

- مع السّلامة، صديقي.

الإريتري استجابَت له القنصليّة الدّنماركيّة، ومنحَتْهُ وثيقةً، تتيحُ له العودة إلى الدنمارك، وفي الصباح ودّعَنا وترَك بعضاً من المال لمحمّد وزينو.

في اللّيل، جاء جزائريٌّ آخر كان في "موندليزا"، فيصل الجيجلي أُلقيَ عليه القبض خارجَ مخيّم "موندليزا" الذي فرّ منه مع مجموعةٍ من الجزائريّيْن والتّونسيّيْن بعد أن وعدتْهم كلّ من القنصليّة الجزائرية والتّونسيّة بالتّرحيل قبل عيد الأضحى. كانوا عشرين شاباً، خمسة عشر جزائرياً، وخمسة تونسيّيْن هربوا بعد أن ثقبوا سياج المخيّم، وكان معهم بشير ابن بوفاريك الذي أفلتَ من قبضةِ الأمن، ونجحَ في الوصول إلى أثينا، والاختباء عند شقيقه.

فيصل تعرّض لضربٍ وحشيٍّ من الشّرطة، هو وبقية رفاقه الموقوفين، وحكمت عليهم المحكمة بسنة سجن، وجاء إلى "ألادابون"، لينتقل لاحقاً إلى سجنٍ، يقعُ في جزيرة خيوس.

وصل نصرو ليلة الفاتح من سبتمبر إلى "ألادابون"، أمسكتْ به الشّرطة في ميدان "أخرنون" بالعاصمة أثينا، لأنّه بلا وثائق، وصل نصرو ابن بني مسوس (الجزائر العاصمة) حتّى كرواتيا، لكنّه اختار العودة إلى ميناءِ باتراس، للمحاولة منه، التقى هناك بكلّ من سيد علي وعبدو، واختار العودة إلى أثينا باحثاً عن هويّة أوروبية، يحاولُ بها عبر مطار أثينا الدّوليّ.

نصرو خرجَ من ساموس مطلع هذه السّنة، ورغب في العودة إليها، لكن الشّرطة قدّمتْ له وثائق، وقّع عليها بالمعلومات نفسها التي قدّمها لهم لحظة اعتقاله، وتوقيعه عليها، بمعنى أنه سيمكث بالمكان ستّة أشهر، وهذا ما يرفضه، لهذا قدّم نفسه لهم على أساس أنه ليبي دون أن تُؤخَذ له بصمات.

معتوهةٌ جدّاً المصالح الأمنية وغريبة الأطوار، لا يوجد لديها قوانين واضحة في تعامُلها مع المهاجرين السّجناء. كنتُ أتفادى ظهور البصمة في باتراس حتّى يُفرَج عنّي هناك، وها هو نصرو يتحسّر، لأن الشّرطة لم تُبصِّمه؛ غريبٌ وضعُنا وأقدارُنا الهزلية.

غادر مَنْ تبقّى من الجورجيّيْن، وجاء فريقٌ آخر، أحدهم ضخمُ البنية قصير، وآخر طويل، لديه جنسية ليتوانية، تهمتُه التّهريب والتّزوير، كان يعاني من السّكّريّ.

بعد خروجنا مساء إلى ساحة السّجن، قامت مجموعةُ من الشّرطة المناوبة بتفتيشٍ شاملٍ للمهجع حتّى السّقف الذي تُخبَّأ فيه الهواتف التي حجزوها عندهم. ولم نعلم مَنْ بلّغ عن الهواتف، جمال أيضاً، عثروا على هاتفه عندما فتّشوه، وحوّلوه إلى المهجع الخامس. ومن حسن حظّنا بقي لدينا هاتف حمزة المازوني الذي أخرجه محمّد معه.

تمكّن شابٌّ باكستانيٌّ يُدعى "عمر" من الحصول على كمّيّة من الأفيون الأفغاني من بعضِ رفاقه في المهاجع الأخرى، لفَّهُ في سيجارَتَيْن، واتّجه إلى الحمّام مع مجموعةٍ من الأفغان والباكستانيّيْن، ومعهم عدلان وآخر جورجي، دعاني محمّد إلى جلسة الأفيون الذي لم أتعاطاه من قبل، لكنّني اكتفيتُ بسَحْبِ نَفَسٍ طويلٍ حتّى لا أنتشي وتتقلّب ذاكرتي المتخمة

بالوجع. حبيب الله كان يُؤذّن، ولأنّه من موطن الأفيون جاء مُسرِعاً بعد أن أنهى الأذان، وتقاسمَ ما تبقّى من السّيجارة مع الرفاق؛

- لكنّكَ ستُصلّي، يا حبيب.

- عادي، لن يفعل لي شيئاً.

- نكهته قوية جدّاً.

سَحَبَ أنفاساً أخرى، وأعاد الوضوء من جديد.

منحَني جمال هاتفه، لأطمئنّ على الرّفاق في باتراس، وجدتُ هاتف سيد علي مُغلَقاً، فاتّصلتُ بحميمد، لأحصل عليه لحسن الحظّ؛

- وشراك خويا.

- الحمد لله.

- كاش جديد؟

- والو.

- صحّتك بخير؟

- لاباس.

- وينتا يهبطوك؟

- مزال مابان والو.

- معليش.

- محمّد راه معاك حاب يكلّمك.

- وشراك دا موح؟

- لاباس خويا.

- علابالي راك مريض بصح اسمحلي نقولك خويا.

- وش كاين غير الخير؟

- فارس اللي كان معانا في ساموس مات.

- يا لطيف، كيفاه مات وينراه؟

- وصل صربيا مع كريم ومنصور والجماعة جاز عليه تران (قطار) قتلو.

- مسكين، ربّي يرحمو.

كان محمّد يبكي بشدّة، ولم يتمكّن من مواصلة الحديث معي.

بعد أن سمعتُ منه فاجعة المرحوم فارس، سلَّمتُ الهاتف لجمال، وذهبتُ إلى الحمّام، بكيتُ على فارس العظيم، تذكَّرتُ لحظة مغادرتنا سالونيك متّجهين إلى باتراس، وكيف كان مُصرّاً على مرافقتِنا، وكيف طلب منّي أن أُقنع بقيّة الرّفاق على إعانته، من أجل أن يقتني تذكرة، قال لي وقتها "أنتَ الكبير يسمعولك". لن أنسى عبارته هذه ما حييتُ، ولن أنسى صفاءَ روحه؛ الرحمة والسّلام لروحكَ النّقيّة المرحة التي خطفَها ذلك القطار المجرم المتّجه إلى صربيا.

فارس قتلتْهُ الجزائر الرّسميّة التي أكرمَتْهُ بالسّجون والتّشرّد، ودخول عالم الجريمة، ولم تترُك له إلّا حُلم "الحرقة" رغم جحيمها وقسوتها، ليهرب إلى أوروبا من طغيان تماسيح الشّرعيّة الثّوريّة، وبقية الجثث العفنة التي تُدير الوطن، كما يفعل اللّصوص وقُطّاع الطُّرُق.

فارس دخل جزيرة ساموس من تركيا ثمِلاً ومُفلِساً، ولم يصل إلى أثينا إلّا بعد أن قضى أشهراً في السّجن الذي اضطرّه لتمزيق جسده، والدّخول إلى مستشفى المجانين، ليهربَ منه لاحقاً؛ لا تزال بسمتُكَ السّاخرة محفورةً في ذاكرتي، أيّها الفتى العاصميّ الطّيِّب والبريء.

العودةُ إلى البدايةِ

في الخامس من سبتمبر صدر قرارُ ترحيلي إلى مخيّم "موندليزا"، رفقة محمّد الذي استجاب له نائبُ رئيس السّجن، وسمحَ له بالمغادرة إلى "موندليزا".

حلّت السّابعة مساء، ودَّعتُ ناويد بعد أن تركَ لديّ حسابَه الفيسبوكي، وودَّعتُ عدلان ونصرو وزينو والبقية. زينو كان متأثّراً لمُغادرتنا، كنتُ أعلم أنّه سيشعر بالوحدة في غيابنا.

مخيّم "موندليزا" أكبرُ بكثيرٍ من مخيّم ساموس، مُقسَّمٌ إلى مُربَّعاتٍ عديدةٍ، تضمُّ كرافاناتٍ، ويفصلها عن بقيةِ المُربّعات أسلاكٌ شائكةٌ عاليةٌ مع نقاطِ مراقبة، وأغلب مَنْ يأتي إليه، يُرحَّل منه إلى موطِنه الأصلي، وهناك مَنْ يقضي فترة ستّة أشهرٍ كعقوبة عدمِ حيازة الوثائق خاصّة مَنْ دخلوا اليونان برّاً. أخذوا محمّد إلى أحد الكارافانات، وأنا أخذوني في ناحيةٍ، يقيمُ فيها مهاجرون من شمال إفريقيا. مكانٌ كئيبٌ جدّاً، وقذر.

وجدتُ في المخيّم مرزاق الحراشي وموسى القبائلي الذي تركتُهُ في ساموس مع مجموعةٍ أخرى من الجزائريّيْن والتّونسيّيْن والمغربيّيْن. لم يبدُ على الرّفاق التّأثّر، كانوا يلعبون الدومينو على أنغام موسيقى الراي، ويُدخّنون، سيغادرون على مجموعاتٍ، كل يومٍ يغادرُ ستّة أفرادٍ بشكلٍ ثنائيٍّ منفصل، اثنان صباحاً، واثنان مساءً، واثنان ليلاً. خطّةٌ مُحكَمةٌ حتّى لا يُشكِّلوا جماعةً داخل الطّائرة، وتفاديا لسيناريو وليد ورفاقه.

شعرتُ بالحُرّيّة بالمخيّم مقارنةً بـ "ألادبون" الصّاخب في معظمِ الوقت، قادني الرّفاق إلى المكان الذي هربَ منه رشيد وفيصل، استغرقوا أيّاماً لثقب السياج، بعدها في المساء وضعوا طاولةً قُرب الثّقب، وتظاهروا بلَعِب الدومينو والرّقص لتمويه الشّرطة، وبعد المغيبِ مباشرة بدؤوا في التّسلّل من الثقب واحداً تلو الآخر، لاحقاً انتبه رجالُ الشّرطة بعد تغيُّر أفراد المناوبة عندما وجدوا أن عدد المتواجدين قد انخفض، وأُقيمتْ حالة طوارئ داخل المخيّم، وأبواق تصرخ، فتّشوا كثيراً عن المنفذ الذي خرج منه الرّفاق حتّى عثروا على الثّقب السِّحْرِيّ.

لا أنا عُدتُ إلى ساموس، ولا أنا غادرتُ مع وليد ورفاقه، ولا أنا هربتُ مع بشير؛ المرض بدّدَ كلّ شيء، ونسَفَ أحلامي.

سأعود إلى الجزائر، وبداخلي انكسارٌ طفيف، ستُعالجه سعادة الوالدة بعودتي من محاولةٍ كانت مفيدةً رغم كل شيء، ولو عاد بي الزمان، لقطعتُ البحار، وتجاوزتُ الحدود، وحاولتُ وحاولتُ حتّى يتحقّق حُلمي. سأعود إلى الوطن، وبداخلي شريطُ ذكرياتٍ طويل، ووُجُوه كثيرةٍ صادفتُها، ومُدُن عديدة زُرتُها، وسُجُون بائسة، مررتُ بها، وتعلّمتُ منها الكثير.

أحببتُ اليونان رغم كلّ ما حدث معي، كنتُ حُرّاً وسعيداً في معظمِ الوقت الذي قضيتُهُ فيها رغم أنّني دخلتُها بطريقةٍ غير شَرعيّة، تعلّقتُ كثيراً بالبلاد الهيلينية أرض الغواية السّاحرة، غواية الجغرافيا والتّاريخ والإنسان.

لن تتوقّف الهجرة مهما صادف المهاجرون من جشع المهرّبين ونفاق الحكومات وبؤس السجون ووحشية البحر، لن تتوقّف الهجرة، لأن أسبابها الرئيسة لا تزال قائمة، وتنتعش أكثر. شمالٌ متطوّر، يدعم طُغاة جنوبٍ غنيٍّ، لكنّه متخلّف، ويعجُّ بالمستبِدِّين ولصوص الأحلام ..

جنوب المتوسّط والشّرق الأوسط وشرق آسيا من أكثر المناطقِ

في العالم التي يهاجر منها النّاس هرباً من الحروب والفساد والفقر. الغربُ المستنير الذي تهرُب إليه شعوبُ تلك المناطق له يدٌ طويلة في المأساة، بدعمه لأسوإ الأنظمة المستبدّة، حتّى دول "العبور" التي يمرّ منها المهاجرون تستفيدُ كثيراً منهم خاصّة تركيا واليونان. الأتراك يساومون الاتّحاد الأوروبي بورقةِ المهاجرين، والحكومة اليونانية كذلك تلعبُ اللّعبة نفسها، لتتجاوزَ محنةَ مديونيَّتِها الثقيلة.

ذبُلتْ شجرةُ أحلامي، لكنّها لم تيبَس، عطرُ ساموس يُبقيها حَيّة ..

رفاقُ الرّحلةِ والسّجنِ

رفيقاي عادا إلى الجزائر نتيجة ترحيل قَسْرِيٍّ من جزيرة ساموس إلى تركيا، ثمّ إلى الجزائر.

- فارس العاصميّ وبلال ابن بوفاريك انتقلا إلى ذمّة الله.

- سيد علي وصلَ باري الإيطالية رفقة عبدو باليسترو، ويقيمان حالياً في فرنسا.

- محمّد وصل إيطاليا بعد عودتي إلى الجزائر، ويقيمُ حالياً في ألمانيا.

- عبد النّور البومرداسي عاد إلى أثينا.

- يويو تمّ ترحيلُه إلى الجزائر، وعاد بعد شهرَيْن إلى اليونان عبر تركيا.

- إلياس القبايلي تمّ ترحيلُه إلى الجزائر رفقة عبدو بوفاريك، ومتواجدٌ حالياً في إسبانيا.

- إلياس رغاية متواجدٌ في البوسنة.

- حكيم بوفاريك عاد طَوْعَاً إلى الجزائر.

- سليم فوندام لا يزال في باتراس رفقة حميمد.

- شكير الألباني أُفرِجَ عنه، وعاد إلى ميونيخ.

- نبيل الشّلفي نُقِلَ إلى سجنِ كورينتس الذي قضى فيه ستّة أشهر، وأُفرِجَ عنه، ولا يزال في باتراس.

- كريم ومنصور ويوسف "رفاق سالونيك" وصلوا سلوفينيا نهاية سبتمبر/ كريم متواجدٌ حالياً في هولندا ومنصور في فرنسا.

- يوسف في ألمانيا.

- صدّام وصل ألمانيا.

- حقو الشاوي لا يزال في أثينا.

- زينو العاصمي أُفرِجَ عنه شهر فيفري الماضي، وبقي في أثينا.

- موح صحرواي حصل على لجوء، وأُفرِجَ عنه مطلع السنة، ومتواجدٌ في أثينا.

- نصرو عاد إلى الجزائر قبل نهاية السنة.

- زكي المصري أُجبر على العودة إلى مصر.

- ناويد انتقَل إلى مخيّم موندليزا، وأُفرِجَ عنه لاحقاً، ولا يزال في أثينا.

- سليمان التّبسّي وصل ألمانيا بعد أن قطعَ طريق البلقان.

- سعيد المغربي بعد أن وصل إلى خيوس تقدّم بطلب لجوء، ورُفض طلبه، ليعود إلى المغرب.

- عمّار الطلياني عاد إلى الجزائر.

- بوتشي استقرّ في صربيا.

- يحيى الغليزاني "الحلّاق" وصل فرنسا، وتمّ ترحيله إلى الجزائر.

- زينو التيارتي متواجدٌ في سويسرا.

- وليد متواجدٌ في باريس.

- حليم الميلي في مرسيليا.

فهرس السيرة

سيرةُ جثّةٍ تطفو في البحرِ / مقدمة لسعيد خطيبي.............. 7
فشلٌ في النّوم.................................. 11
كلُّنا أفارقةٌ.................................. 21
موعدٌ مؤجّل مع البحر............................ 50
بوّابةُ العذراء 88
المخيّمُ الجحيمُ 113
قلب في ساموس وعين على أثينا 131
باخرةُ العُبُورِ.................................. 148
هُرُوبٌ وانتظارٌ................................. 169
محطّةٌ جديدةٌ.................................. 195
فزّاعةُ الأمنِ والمهرّبون الأفغان......................... 208
أملٌ وخيبةٌ.................................... 217
ظُهُورُ البصمةِ 244
سجنُ ألادابون 269
المرضُ يهزمُنا 305
العودةُ إلى البدايةِ 329
رفاقُ الرّحلةِ والسّجنِ.............................. 332

من الكتاب:

بعد التّحرّر من الوثيقة التي تربطني بالوطن، أخذتُ نَفَساً عميقاً، وتأمّلتُ سطح الجزيرة. تخيّلتُ «ساموس» شقراء هيلينة ناعمة مستلقيةً على جنبها الأيمن، وتتهيّأ للنوم، ونحن نتسلّقُها ونمشي على جغرافيا جسدها حتّى نبلغ لون عينَيْها اللامعَتَيْن، منحدراتٌ جبلية قاسية بأعشابٍ شوكيةٍ وأشجار قصيرة وأرضية بصخور صلبة مغطّاة بفطرياتٍ وحشائش مبتلّة ولزجة. لم نَخَفْ، ولم نشعر بالرَّهْبَة، تقدّمَ مرافقي، واستعان بإنارة الهاتف، ولم يُنصِت لنصائح حازم المصري الذي رضخ في النهاية، وتبعنا، كانت المسالك ضيِّقةً جدّاً، والمنحدرات تتضاعف، ويزداد طولها، لا مَعْلَم واضح يلوحُ في الأفق، ارتفاع ثمّ انخفاض، البحر يظهر لنا على اليمين، كنّا نمشي وعلى الأرض صادفتْنا بقايا ملابس، سراويل، أقمصة، لعبة أطفال من القماش، حذاء امرأة، قارورات مياه ... بعدها وجدْنا مسلكاً، به شارات من القماش الأبيض مُثبّتةٌ على الأغصان، وضعها مَنْ مرّوا قبلنا، لتسهيل عبور مَنْ يأتي بعدهم، جحافلُ بشريةٌ رهيبةٌ مرّتْ من هنا، أزعجتْ سباتَ هذا الجبل الذي تحدّى أعماق بحر إيجة، واختار البقاء شامخاً ومُعانِقاً دفء الشمس، وتدوين أنين الإنسانية المعذّبة.

منشورات المتوسط

هي سيرةٌ لـ «الحراگة»، أو «الحراقة» كما يكتبها الجزائريون، أو «الحراقة» كما تكتبها الصحافة العربية، قد نختلف على التَّسمية نعم، ولكنَّنا لن نختلف أبداً على أنَّ العربي رمضاني يكتب هنا نشيداً طويلاً عن المهاجرين الذين يُسمُّونهم (غير الشرعيين). ومع أنه يكتب قصته هو إلَّا أنه يكتبها بعد أن خَبِر أنَّ كلَّ أولئك المهاجرين، من شمال إفريقيا، وجنوب الصحراء الكبرى ومن الشرق الأوسط، صار لهم طعمُ الملح ذاته، صاروا أخوة تربط بينهم صلة الملح، ملح البحر الأبيض المتوسط، الذي سنسمع أناشيده هنا.

الكثير من التفاصيل، في روايته الأولى هذه، يسردها العربي رمضاني بصدقٍ جارح، وألم كبير ناقلاً حكايات الناجين من البحر والعائدين إليه، جثثاً كانوا أو مساجين مُرحَّلين. وبين الحلم والكابوس خيطُ ضوءٍ نتبعه لتقودنا الأحداث إلى محاكمةٍ أخلاقية لأنظمة فاسدة، تدفعُ على اختلاف طرقِها، مُواطنيها لركوب الموج والمجازفة في قوارب هي تسمية أخرى لنعوش الموتى.

يُنصح لقراءة هذه الرواية وضع واقٍ شمسيّ ومطريّ شفاف وجلب الكثير من ماء الشرب، دون ذلك فقد تُصابون بحروق تصل للدَّرجة الثانية، وبجفاف فم، وبالكثير الكثير من الملح.

ISBN 978-88-32201-17-8
9 788832 201178

المتوسط